

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد/ كلية الآداب
قسم التاريخ

الرحالة البندقي ماركو بولو(ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) ومروياته عن المغول (دراسة في المصادر المغولية والاسلامية)

أطروحة
تقدم بها الطالب

أحمد فرطوس حيدر

الى مجلس كلية الآداب – جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في فلسفة التاريخ الاسلامي

بإشراف
الاستاذ الدكتور

مرتضى حسن النقيب

١٤٣٨هـ ٢٠١٧م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ
ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ
ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ

(سورة الاسراء/ آية ٨٥)

إقرار المشرف

أشهد ان إعداد هذه ألاطروحة الموسومة (الرحالة البندقي ماركو بولو ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م ومروياته عن المغول- دراسة في المصادر المغولية والاسلامية) التي تقدم بها الطالب (أحمد فرطوس حيدر) ، قد جرت تحت اشرافي في جامعة بغداد/ كلية الاداب ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي .

التوقيع :

الاسم : أ . د مرتضى حسن النقيب

التاريخ : / ١٢ / ٢٠١٦م

وبناءاً على التوصيات المتوفرة ، ارشح هذه ألاطروحة للمناقشة .

التوقيع :

الاسم : أ. م . د عامر حمزة الغريب

رئيس قسم التاريخ

٢٦ / ١٢ / ٢٠١٦

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة بأننا أطلعنا على الاطروحة المقدمة من قبل الطالب (احمد فرطوس حيدر عبدالله) والموسومة بـ(الرحالة البندقي ماركو بولوت(٧٢٥هـ/١٣٢٤م) ومروياته عن المغول، دراسة في المصادر المغولية والاسلامية)، وقد ناقشنا الطالب في محتوياتها وفيما له علاقة بها ووجدنا أنها جديرة بالقبول لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي بدرجة (إمتياز).

التوقيع :
أ د . ليث شاكر محمود
رئيساً

التوقيع:
أ.د. مرتضى حسن النقيب
مشرفاً

التوقيع:
أ.د . هاشم ناصر حسين الكعبي
عضواً

التوقيع:
أ.م .د. نوال ناظم محمود
عضواً

التوقيع:
أ.م.د. سهاد خزعل نجيب
عضواً

التوقيع:
أ.م. د . وفاء عدنان حميد
عضواً

صدقت من قبل مجلس كلية الآداب / جامعة بغداد

التوقيع:
أ. د . صلاح فليفل عايد الجابري
عميد كلية الآداب



شكر وعرفان

يطيب لي أن اتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أستاذي الفاضل الدكتور مرتضى حسن النقيب الذي تفضل مشكوراً بقبول الأشراف على هذه الاطروحة ، ولما بذله من جهد كبير من خلال أبداء الملاحظات العلمية القيمة والارشادات السديدة التي كان لها الأثر الكبير في أثراء هذه الاطروحة وظهورها على النحو الذي عليه الان فله منا واجب العرفان وجزيل الشكر والامتنان .

كما اتقدم بالشكر الجزيل إلى الاساتذة الذين تتلمذت على أيديهم ونهلت من علمهم في السنة التحضيرية وهم كل من الاستاذ الدكتور حمدان عبد المجيد الكبيسي، وألاستاذ الدكتور المرحوم بهجة كامل عبد اللطيف التكريتي، والاستاذ الدكتورة صباح الشيخلي، والاستاذ الدكتور ناجي حسن، والاستاذ الدكتورة زكية حسن ابراهيم، والاستاذ الدكتور ليث شاكر محمود والاستاذ المساعد الدكتورة نوال ناظم محمود والاستاذ المساعد الدكتور عبد الرحمن فرطوس الاستاذ المساعد الدكتورة وفاء عدنان حميد .
كما اسجل شكري وتقديري لرئيس قسم التاريخ الاستاذ المساعد عامر حمزة حسين والاستاذ الدكتور اسامة عبد الرحمن الدوري رئيس القسم السابق والاستاذ الدكتور نذير جبار الهنداوي.

كما أود تقديم خالص الشكر والامتنان للأستاذ المساعد الدكتور بهاء نجم محمود أستاذ اللغة الايطالية في كلية اللغات / جامعة بغداد لما قدمه لي من عون ومساعدة في الحصول على بعض المصادر باللغة الايطالية .

كما أتقدم بالشكر لجميع من ساهم في أنجاز هذه الاطروحة وبشكل خاص مكتبة قسم التاريخ ومكتبة قسم اللغة الايطالية لما قدموه لي من مساعدة فلهم مني جزيل الشكر والعرفان .



المحتويات

المحتويات

المقدمة ونطاق البحث وكشف المصادر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تتناول هذه الاطروحة المعنونة(الرحالة البندقي ماركو بولو ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) ومروياته عن المغول ، وهي دراسة أكاديمية في المصادر المغولية والاسلامية معاً ، وأهمية الموضوع تكمن في القيمة العلمية للمرويات التاريخية والبلدانية التي أوردها هذا الرحالة البندقي الشهير بتسمية ماركو بولو الذي أحتل مكانة مرموقة بين المغامرين الأوربيين في التاريخ الاسلامي الوسيط لم يصل إليها أياً من الرحالة الذين سبقوه في الابحار إلى شتى المدن الاوربية والاسيوية ، وذلك لسببين رئيسين ، الأول يتعلق بقيمة المرويات التي دونها هذا الرحالة عن المغول من الناحيتين التاريخية والبلدانية في ذروة عصرهم المملوء بالحروب والاضطرابات ، وثانيهما حالة الأثر الكبير الذي تركته هذه المرويات على المفكرين الأوربيين ومجتمعاتهم عن أقوام المغول الذين تحولوا في برهة من الزمن من قبائل رعوية تتقاتل فيما بينها إلى قوة عسكرية_ سياسية موحدة ضمنت سيادة العالم وخضعت لها عسكرياً أكثر من نصف سكان المعمورة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

ولاشك أن القيمة العامة لتلك المرويات عن عالم المغول وخانياتهم متأتية من كونها تعد الروايات التاريخية الأشهر بلدانياً عن وصف العالم الاسيوي للأوربيين خارج حدود بلاد أوربا في ذلك الوقت حين كان الاوربيون يطلقون عليه مصطلح النصف الأخر من العالم أو تسمية الشرق الغامض ، وهو عالم كان يمثل مجتمعات بشرية مختلفة الاقوام والاعراق لم يكن للأوربيين من أهل المراتب أي معرفة سياسية أو دراية كافية بأسراره وخفاياه ، لأنهم لم يكونوا كبحارة مغامرين سوى على تلامس وأحتكاك بحري بأطرافه المنظورة .

والواقع أن هذه الاهمية عن المغول الاسيويين تعود كذلك إلى كونها قد مهدت لرحلات أوربية جديدة ، ومن أجل ذلك أضحت روايات ماركو بولو في أدبيات كتب الرحلات ذا تأثير كبير في مصنفاتهم ، ولاسيما لدى المغامرين الأوربيين من خلال تمهيدها الطريق لوصول أعداد كبيرة من هؤلاء الرحالة الاوربيين إلى أصقاع آسيا المجهولة في القرون التالية ، من خلال أستخدامهم المعلومات التي تركها ماركو بولو بعد أن أكتسبت تلك المرويات الثقة والتصديق لدى المعنيين من أهل الترحال والمغامرة ، ولا نبالغ حقيقة أن أدعينا أن تلك المرويات التي قدمها ماركو بولو عن عالم البحار قد أسهمت بشكل مباشر في التمهيد لحركة الاستكشافات الجغرافية الهائلة التي أعقبت أعمال ذلك الرحالة البندقي .

وفيما عدا هذه الأهمية العامة لروايات ماركو بولو وأسهاماته الجغرافية البلدانية البرية والبحرية، يظل التساؤل أكاديمياً عن القيمة التاريخية لهذه المرويات ومصداقيتها ، ولاسيما فيما يخص تاريخ المغول ؟ لان الأجابة على هذا السؤال الجوهري يعد من أهم دوافع التوجه نحو هذه الدراسة والغوص في تلك الاشكاليات وفي حقيقة الأمر الواقع أن هذه المرويات أصبحت ذات قيمة تاريخية كبيرة في المجال الاكاديمي لكل المختصين بالتاريخ الاسيوي بشكل عام والمغولي بشكل خاص لأنها ملأت فراغاً كبيراً لبعض حوادث القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي لا يمكن تجاوزها ولانجد تفاصيل عنها في غيرها من المصادر التي دونت تاريخ المغول ولاسيما الكلاسيكية منها، إذ إن فيها من التمايز الواضح مايجعلها مصدراً فريداً لمعلومات وتفاصيل عن تلك البلدان، وأهم مدنها وحوادثها التاريخية على نحو أحكام السيطرة على الصين ومحاولات غزو اليابان الفاشلة وغيرها من المحاولات والمغامرات في البر الاسيوي الفسيح.

ومن هنا نقول أن وصف وتحليل ودراسة هذه المرويات التي تركها ماركو بولو منذ ذلك الوقت المبكر في تاريخ المغول تشكل محاولة جادة لفهم التاريخ

المغولي الذي تميز بالغموض والابهام في الكثير من وقائعه التاريخية بشكل أكثر عمقاً وشمولية للتاريخ السياسي المغولي ودويلاته .

ومن دون أدنى شك فإن المرويات التي تركها ماركو بولو عن المغول أكتسبت الكثير من الاهمية السياسية كون هذا البندقي المغامر كان صديقاً مقرباً لقوبيلاي قاآن (٦٥٨-٦٩٣هـ/ ١٢٦٠-١٢٩٤م) خامس أباطرة المغول الذي قام بنقل مركز الامبراطورية المغولية من قراقورم في منغوليا إلى خان باليق في الصين ، وقد عاصر ماركو بولو هذا الحدث بنفسه ، إذ أقام هذا الرحالة في البلاط الجديد لما يقرب سبعة عشر عاماً ونال خلالها أعلى درجات التكريم من قاآن المغول الذي منحه فرمان (البايزة) في البقاء في الصين التي لم تكن لتمنح لغير الأمراء المغول إلا نادراً ، وهو تكريم كان يحظى به صاحبه بأمتيازات وتسهيلات في كل بلاد المغول التي مكنته من التجوال في أملاك بلاد القاآن وأطرافه ، ومن أجل ذلك نقول أن مرويات ماركو بولو عن المغول ووقائعها مع أهل المراتب في خان باليق أشتملت على مادة تاريخية مهمة لا يمكن نكرانها ، تحل كثير من أشكاليات البناء السياسي والأداري لمؤسسات الامبراطورية المغولية ونظمها العسكرية وطرق الادارة التي كانت تديرها، والتي كانت ترتكز أساساً على قوانين الياسا الجنكيزخانية ، وتقاليد المغول القديمة ، كما شهد بولو بنفسه التحول الحضاري الكبير في حياة المغول ممثلاً بقيام أسرة اليوان المغولية في الحكم التي أختلفت بسماتها ومميزاتها العامة عن خصوصيات الحقبة المغولية السابقة التي عرفت بها مجتمعاتها الرعوية والقبلية وهو ما يتطلب منا الخروج بدراسة علمية متفحصة لروايات ماركو بولو وحوادثها من أجل تحديد قيمتها التاريخية أكاديمياً في ضوء المعالجات النقدية والتحليلية للمصادر وتفكيك عناصرها الكتابية مع الاخذ بنظر الاعتبار الحقائق التاريخية الثابتة بعيداً عن الاغراض والاهواء والمصالح الشخصية التي طالما أنزلق إليها ماركو بولو في نقله لأخبار هؤلاء المغول والوقائع المرتبطة بتاريخهم . ومثل هذا بطبيعة الحال يشير إلى مسالة الاشكالات المنهجية في الاطروحة ومايتطلبه من كشف وتحليل للمصادر والمراجع قيد الدراسة.

في بعض الاشكالات المنهجية وكشف المصادر

في ضوء هذا التقديم للموضوع نتسائل عن أهم الاشكالات المنهجية التي تعترض كتابة الاطروحة وصيرورتها ، ولا مناص بأن أهم تلك الاشكالات وأكثرها وضوحاً هي تلك التي تتعلق بشخص ماركو بولو نفسه وبرحلاته ، وفي أختلاف المؤرخين والباحثين عن شخصيته المثيرة للجدل ، ولما يظهر بين الباحثين عدد من الاسئلة الشائكة التي أحدثت جدلاً واسعاً بينهم حول شخصيته ومروياته ، ويأتي على رأس تلك الاسئلة المثيرة للجدل فيما اذا كانت مرويات هذا الرحالة البندقي الذي نحن بصدد وصفها وتحليلها هي مرويات حقيقية واقعاً أم مجرد خيال ، أم أنها كمادة مدونة تحمل بين طياتها بعض المبالغات المضافة إليها لاحقاً ، كذلك التساؤل المهم فيما اذا كان ماركو بولو لم يصل إلى البر الصيني أساساً على نحو ماتدعي بعض دراسات الباحثين، واذ كان الأمر كذلك ماهي خلفيات معلوماته الهائلة عن الصين والبلاط المغولي ولاسيما أن الدراسات التي تنكر على ماركو بولو رحلاته إلى تلك البلاد لم تقدم جواب شاف يدعم طروحاتهم؟ .

ويظهر الخلاف جلياً في مرويات ماركو بولو عن المغول _ التتار أنفسهم فمع أنهم أستخدموا شتى الاساليب الوحشية والقتل والتنكيل في مجتمعاتهم الرعوية ، واحلوا المآسي في معظم المناطق التي خضعت لهم ، وماركو بولو كغيره من المؤرخين الوسيطيين أسهب في الحديث عن تلك المجازر الدموية وبشاعتها بحق بنو البشر، إلا أن مروياته ضمت بين طياتها معلومات تمثل الوجه الآخر غير السلبي والمعهود عن تلك القبائل البربرية ونشاطها، فقد قدم ماركو بولو صورة مغايرة عن مركز الامبراطورية المغولية في خان باليق وسواها من المدن الصينية تختلف عن الكثير من المؤرخين والباحثين ، وتمثل أبهى صور من الحضارة والتمدن وأعلى مراتب الأدارة والمهارة في الحكم فلماذا هذا الاختلاف في وجهات النظر تلك فهل كان هذا الاختلاف والصورة المغايرة عن المغول التي قدمها بولو نتيجة لأقامته الطويلة في البلاط المغولي وأرتباطه برجالات الأدارة المغولية أم أنه

كان شاهداً على مرحلة حدث فيها تحول ومنعطف تاريخي لم يتح لغيره من المؤرخين الغوص في تفاصيلها؟ هذا ما سنحاول أثارته بين ثنايا هذه الاطروحة.

وأن ما يتوفر لنا من معلومات تقول أن هذا مرده يرجع إلى أختلاف بين وجهات النظر بين المصنفين المؤرخين ومواقفهم من حركة المغول التوسعية بأتجاه أصقاع العالم الاسيوي والأوربي بحسب ما أسفرت عنه من نتائج باهرة ، فالمصادر الاسلامية مثلاً نظرت إلى الغزو المغولي على أنه كارثة كبرى أحلت ببلاد المسلمين والعالم الاسلامي التي تسببت في قيام الدولة الايلخانية الوثنية وأدارتها على أنقاض دولتهم العباسية ، كيف لا وأن هؤلاء المغول مزقوا بلاد المسلمين واستأصلوا خلافتهم الاسلامية من الوجود ، فيما تحكي المصادر الصينية ومن نقل عنها على النقيض من ذلك بل أن الكثير من الصينيين بدوافع الحرص يرون في الغزو المغولي وما أسفر عنه من نتائج بأنه فأل خير على الصينيين، فقد وفر الغزو المغولي للصين فرصة تاريخية لتوحيد البلاد فبعد أن كانت البلاد تعاني من التجزئة والتشرذم والتنازع بين عدة أسر وسلالات تتنازع فيما بينها التي تهاوت الواحدة تلو الأخرى بفعل الضربات القاصمة التي وجهها المغول لهم أبتداءاً من عهد جنكيزخان حتى تمكن حفيده قوبيلاي قآن في النهاية من أخضاع كامل الارض الصينية إلى سلطانه ، وعند زوال هؤلاء الغزاة تركوا هذه البلاد موحدة قائمة بسلطتها ، وهو ماجعل المؤرخين الصينيين ومن نقل عنهم ينظرون إلى الغزو المغولي ونتائجه ليست بتلك النظرة السوداوية التي وصف بها المؤرخين المسلمين هؤلاء الغزاة ، وفي هذا المحتوى لاغرابة أن يقدم لنا ماركو بولو صورة مغايرة عن هؤلاء المغول الذي عاش معهم شخصياً في الصين لما من يقرب سبعة عشر عاماً كان فيها شاهداً على تلك التحولات والمنعطف التاريخي مما يستوجب منا نحن الدارسين الحيطة والحذر عند عرض تلك المرويات ومقارنتها مع المصادر المعادية الأخرى ذات الصلة .

ولم تخل الرحلة من أشكالات أخرى كطبيعة الدور الذي قام به ماركو بولو وعمله لدى القآن المغول قوبيلاي ، وأسباب قيام هذا الرحالة بمغامراته ورحلاته صوب أقصى الشرق الاسيوي، واذا ما كان الهدف من وراء تلك الزيارة دوافع تجارية بحتة أم دوافع دينية ترمي للتبشير بالديانة المسيحية، فضلاً عن أشكالات تاريخية لدى المؤرخين تخص بعض المصطلحات الغامضة وتوضيحها والتي سنحاول تحليلها في صفحات الاطروحة ، فماذا بشأن نطاق البحث ومصادر الاطروحة وخصوصياتها الهستريوغرافية والتاريخية .

نطاق البحث

تتكون هذه الاطروحة من مقدمة وأربعة فصول وخلاصة مركزة لنتائج هذه الدراسة فضلاً عن قائمة بالمصادر والمراجع .

تناولنا في الفصل الأول سيرة وحياة الرحالة البندقي ماركو بولو عالجنا فيها سيرته الشخصية أبتداءاً من طفولته في مدينة البندقية والاسرة التي ينتمي إليها وعملهم في التجارة وتطرقنا كذلك إلى توليه منصب حاكم لأقليم هانزو في الصين فضلاً عن أسره من قبل الجنويين حتى وفاته سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م .

وتناول الفصل الثاني دراسة مقارنة للعادات الاجتماعية في مرويات ماركو بولو ، وأثر قوانين الياسا المغولية على تلك العادات الاجتماعية للمغول وأمتزاجها بالوقائع الاجتماعية للشعوب المغلوبة ، وتم بحث أهم تلك العادات البشرية مثل حالات المسكن والملبس وعادات الزواج وديانتهم الشامانية ومراسيم الاحتفال بالاعياد، فضلاً عن عاداتهم في ممارسة الطب لدى المغول ووسائل الفلك والتسلية وغيرها .

وقد كرس الفصل الثالث مرويات ماركو بولو عن كل مايتعلق بالدولة الايلخانية بداية من مقدمات الحملة التي أطاحت بالدولة الاسماعيلية التي أنشائها حسن الصباح(ت٥١٩هـ/١١٢٥م) وتضمن ايضاً كذلك مرويات هذا الرحالة عن ستة من حكام الدولة الايلخانية وهم كل من هولاكو خان، وآباقا خان، واحمد

تكودار، وارغون خان، وكيخاتو خان، وبايدو خان، إذ أنقطعت بعد ذلك أخبار ومرويات ماركو بولو بعد هذا الايلخان أثر عودته إلى مدينة البندقية في عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م .

وتناول الفصل الرابع البلدان التي كانت تتكون منها الامبراطورية المغولية ، فقد وردت مرويات تمت معالجتها عن كل من العراق وبلاد فارس وآسيا الصغرى وأرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) وبلاد ماوراء النهر وبلاد آريانا (افغانستان) وكذلك التطرق إلى منغوليا الموطن الاصلي للمغول، والصين وبورما وكمبوديا وسيبيريا وروسيا والحملات البحرية على اليابان التي فشل المغول في أخضاع جزرها، مما جعل هؤلاء المغول يقيموا أكبر أمبراطورية في التاريخ إذ خضعت لهم أكثر من نصف العالم المعروف والمكتشف آنذاك، وسنبدأ كلامنا في الحديث عن المصادر والمراجع التي غطت رحلات ماركو بولو وطرق مواصلاته بين البندقية وخان باليق في الصين .

في المصادر المغولية والفارسية

يأتي على رأس تلك المصادر المغولية وأهمها وقائعاً هو مصنف علاء الدين عطا ملك الجويني (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)[١]، المعنون باللغة الفارسية بأسم (تاريخ جهانكشاي)[٢] أو فاتح العالم جنكيزخان (٥٤٩ – ٦٢٤هـ/١١٥٥-١٢٢٧م)، وعلى الرغم من أن عطا الجويني أنتهى من تدوين مصنفه هذا في فترة مبكرة من حياته، يعود إلى أيام ما قبل الاندفاع المغولي صوب عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد فقد حظي جهانكشاي بأهتمام كبير وشهرة واسعة من لدن الباحثين لما يتضمنه من معلومات فريدة عن كل ما يخص التاريخ المغولي ووقائعه، وقد ساعد الجويني في ذلك وظيفته الادارية التي شغلها في الديوان بالسفر إلى عاصمة بلاد المغول قراقورم، والمكوث فيها ما يزيد عن سنة هناك التقى خلالها بعدد من الامراء والقادة المغول، الذين أمدوه بمعلومات وافية لمصنفه تاريخ جهانكشاي ، وهو ما وفر مادة تاريخية لا يمكن لأي باحث من طلبة الدراسات المغولية الاستغناء عنها، ولاسيما فيما يتعلق بالقبائل المغولية التي شكلت من عناصرها الامبراطورية المغولية وفتوحاتهم الأولى.

وتكمن أهمية عمل الجويني كمصنف في أنه يعد من أهم مصادر هذه الاطروحة لأنه يساعد في مقارنة محتوياته مع مرويات ماركو بولو حول المغول

---

(١) وهو علاء الدين عطا ملك بن شمس الجويني، ولد في جوين بنيسابور سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، ونشأ في اسرة ولعت في الأدب والشعر، وتميزت بعملها في الادارة والديوان حتى عرفت أسرتهم بأصحاب الديوان، فقد عمل جده شمس الدين الجويني في عدد من المناصب الادارية في الدولة الخوارزمية خلال فترة حكم السلطان محمد خوارزمشاه (٦١٧هـ/١٢٢٠م)، فيما تقلد والده عطا ملك منصب صاحب الديوان في ولايتي خراسان ومازندران تحت أمرة المغول، أما علاء الدين فقد تدرج في المناصب الادارية إذ عمل كاتب أنشاء في خراسان اولاً، ثم تولى منصب حاكم العراق العربي ببغداد لمدة أربع وعشرين سنة حتى وفاته سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م. وللمزيد عن سيرته انظر: محمد بن علي بن طباطبا الطقطقي (ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، الفخري في الأداب السلطانية (بيروت : دار صادر، ١٩٦٦م)، صص ٢٢-٢٣؛ خواندمير، دستور الوزراء، نشر وتصحيح سعيد النفيسي (طهران: ١٣١٧ه.ش) ، ص ٣٣٧؛ محمد سعيد جمال الدين، علاء الدين عطا ملك حاكم العراق بعد أنقضاء الخلافة العباسية في بغداد (القاهرة: بلا.م، ١٩٨٢م)، ص ٦.

(٢) ترجمة محمد التونجي (دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، ١٩٨٥م).

ولأن عمل الجويني يشابه إلى حد كبير ما قام به ماركو بولو، فالأثنان في رواياتهما يمثلان نتاج التجربة الشخصية التي تعتمد على المشاهدات الحية والمشاركة الشخصية في تفاصيل الحوادث والوقائع التي جرت ببلاد المغول لقربهما من مركز القرار المغولي والايلخاني فكانا شاهدين على الكثير من حوادث ذلك العصر وغزواته

وفي الوقت الذي يعد فيه عمل الجويني مفتاحاً وقاعدة أساسية لكل المعلومات التي توفرت لنا عن المغول في بلاد المسلمين، وأنتقت منه معظم المصادر التالية مادتها التاريخية، فإن ماركو بولو يظهر بمثابة النافذة الأهم التي أطلع من خلالها الأوربيين على كل ما يتعلق بمعلوماتهم عن المغول وأحوالهم في الصين والتبت وما جاورها من بلدان خضعت لحكم المغول.

ويعد مصنف رشيد الدين بن فضل الله الهمذاني (ت٧١٨هـ/ ١٣١٨م)(١) المسمى جامع التواريخ(٢)، من أميز المصادر المغولية كذلك، إذ إن مؤلفه يشكل أحد المؤرخين المسلمين_المغول الكبار الذين عاصروا أحداث نشأة وتكوين الامبراطورية المغولية وخانياتها، وقد عاش رشيد الدين في الحقبة نفسها التي كان قد عاشها ماركو بولو، ويلاحظ ايضاً أن مرويات ومعلومات رشيد الدين أكتسبت طابع الوثائق الشخصية عن المغول، فضلاً عن أنه دون كتابه جامع التواريخ بناءاً على رغبة السلطان الايلخاني محمود غازان شخصياً الذي كان قد وضع تحت تصرفه

---

(١) وهو الوزير الكبير رشيد الدين بن فضل الله بن أبي الخير الهمذاني ينتسب لعائلة أذرية وكان واسع الافق غزير الثقافة، عرف عنه بتعدد المواهب فكان أدارياً مؤرخاً وطبيباً وأديباً فضلاً عن أجادته لعدد من اللغات كالفارسية والعربية والعبرية والتركية والمغولية وكان من أصول يهودية فأسلم، وقد شغل منصب الوزارة لثلاثة من السلاطين الايلخانيين وهم كل من السلطان محمود غازان (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م) واخاه السلطان اولجياتو (ت ٧١٦هـ/١٣١٦م) وأوائل حكم السلطان ابي سعيد (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٧م)، وقتل بطريقة بشعة وطيف برأسه في أنحاء تبريز أثر =اتهامه بدس السم لسلطان اولجياتو، فضلاً عن أثارة الشكوك حول تمسكه بديانته اليهودية الاصلية التي ينتمي إليها. للمزيد من المعلومات عن سيرته انظر: خواندمير، دستور الوزراء ،صص ٣٧٤-٣٧٧؛ وانظر: فواد عبد المعطي الصياد، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين بن فضل الله الهمذاني، ط١ (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م) ، صص ٩٠-٩٢.

(٢) ترجمة محمد صادق نشات وأخرون (القاهرة : مطبعة وزارة الثقافة والارشاد ، ١٩٦٠م)

لتدوين مصنفه الوثائق والسجلات التي يحتفظ بها هذا السلطان في خزائن الكتب التي يمتلكها فضلاً عن تدوين بعضاً من هذه المرويات جاءت على لسان خانات المغول أنفسهم، ناهيك عن مشاهداته الحية، كإداري ناجح ولقاءه بعدد من الامراء والقادة المغول.

وفيما يخص دراستنا تظهر أهمية جامع التواريخ من خلال مقارنة مادته مع مرويات ماركو بولو للتحقق من صحة ما أورده ماركو بولو من معلومات عن المغول، ومع أن مرويات رشيد الدين فضل الله أتسمت بالدقة في وصف أحوال المغول وعاداتهم الاجتماعية لأمور تتعلق بطبيعة عمله كمؤرخ، نجد مرويات ماركو بولو يغلب عليها طابع الوصف في الرواية وذكر حقائقها، وهو أسلوب دأب عليه الرحالة في وصف رحلاتهم عامة، مما فتح المجال للتحليل والاستنتاج والمقارنة بين ثنايا الروايات المشتركة بينهما.

ومع تلك الاهمية لجامع التواريخ ، إلا أنه ما يعاب على رشيد الدين أنه لم يشر إلى الحملات المغولية الكبرى في الشرق الاسيوي ولاسيما الحملات الفاشلة ضد اليابان وبورما وكمبوديا وغيرها إذ وصلت الامبراطورية المغولية لأقصى اتساع لها، وهي الحملات التي أسهب ماركو بولو في وصف تفاصيلها ، في الوقت ذاته صمت فيه رشيد الدين عن تناول تلك الاحداث الهامة في التاريخ المغولي والعالمي معاً، وفي حقيقة الامر نحن لا نمتلك الاجابة عن سبب سكوت رشيد الدين عن تلك الحوادث لكننا يمكن أن نستنتج أن للبعد الجغرافي كان له أثره في عدم تناول الوزير لتلك الحملات إذ كان على ما يبدو في وضع لايسمح له بالاطلاع المباشر على تلك الحوادث وتدوينها لانشغاله بالعمل في منصب الوزارة في البلاط الايلخاني.

ومن المصادر الفارسية المهمة ما كتبه خواندمير (٩٤٢هـ/ ١٥٤٤م)[١] بعنوان دستور الوزراء الذي ورد فيه تراجم لعدد من الوزراء المغول والمسلمين الذين عملوا عند المغول فضلاً عن مرويات تمس الجوانب الاجتماعية للمغول .

---

(١) وهو غياث الدين محمد بن همام الدين المعروف بخواندمير، وجده المؤرخ المعروف ميرخواند صاحب المصنف الشهير (روضة الصفا) الذي ألف على غرار (الكامل في

ولدينا كتاب يعرف بالتاريخ السري للمغول بعنوان (The Secret History of the Mongols)[١] ولا يعرف مصنفه على وجه التحديد فيما اذا كان فرداً أو مجموعة مؤرخين ، وهو يمثل أقدم عمل باق في اللغة المغولية عن المغول، وأهمية هذا المصنف تتمثل في كونه المصدر الوحيد الذي دون من قبل المغول أنفسهم، وبأمر من كبير حكامهم جنكيزخان، وقد وردت فيه تراجم وافية لشخص جنكيزخان وأسلافه، وأخبار الماضي المغولي وما حمله تراثهم من تقاليد وروايات أسطورية عن نشأة وقيام دولتهم تحت أمرة الامبراطور المؤسس.

كتب التاريخ العام أو الحوليات

يأتي في مقدمة كتب الحوليات التي أفادت الدراسة مصنف ابن الاثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)[٢] المعنون بأسم (الكامل في التاريخ)[٣] الذي يغطي حيزاً مهماً في دراستنا، لما يتضمن من أخبار مهمة عن الزحف المغولي نحو المشرق الاسلامي، فعلى الرغم من أن ابن الاثير توقف عند حدود سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م أي قبل وقوع الغزو المغولي لبغداد وقيام السلطنة الايلخانية الجديدة في صفر من سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، إلا أنه أورد مرويات في غاية الاهمية عن بلاد تركستان والدولة الخوارزمية ومدنها الرئيسة كسمرقند وبخارى وغيرها من مدن بلاد ما وراء النهر.

التاريخ) لأبن الاثير، وقد ولد سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م في مدينة شيراز ببلاد فارس، وقد برع في الادب والشعر فضلاً عن كونه مصنف أسلامي، وقد توفي في الهند أثر رحلة قام بها. للمزيد عن سيرته انظر: عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان (بغداد: شركة التجارة للطباعة المحدودة، ١٩٥٧م)، صص ٢٥-٢٨؛ الصياد، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين بن فضل الله الهمذاني، ص ٢٨٢.

(١) Translated and Edited By Urgunge Onon (London : ٢٠٠١).

(٢) وهو المصنف الكبير عز الدين علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم المعروف بأبن الاثير، ولد سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، ونشأ في كنف أسرة ثرية عملت في التجارة إلى جانب ولعها بالادب والفقه والحديث. للمزيد عن سيرته انظر: ابي العباس شمس الدين بن محمد بن ابي بكر المعروف بابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق احسان عباس (بيروت : دار صادر، ١٩٧١م)، ج٣، ص ٣٤٩؛ شمس الدين بن عثمان بن قايمز الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الاسلام، تحقيق بشار عواد معروف واخرون (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦م)، ج٢، صص٢٢٩-٢٣٠.

(٣) (القاهرة: المكتبة التجارية ، ١٩٥٨م).

وأهم ما يميز مرويات ابن الاثير أنه يمثل وجهة النظر الاسلامية_العباسية في نزاع المسلمين مع المغول، وهو لا يخفي أنحيازه للقضايا التي تخص المسلمين على نحو ما يعبر هو عن ذلك في أكثر من موضع من مصنفه الكامل ، وينطبق الامر كذلك في المقابل على مرويات الرحالة ماركو بولو الذي يمثل وجهة النظر المغولية مما أفاد الدراسة كثيراً في ناحيتي الاختلاف والتناقض التي ظهرت بين وجهتيهما.

ومن المصادر التي أغنت الدراسة الموسوعة التي وضعها البلداني الكبير ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)[١] بعنوان (مسالك الابصار في ممالك الامصار)[٢]، وقد أفرد فيها معلومات قيمة عن كل ما يخص الامبراطورية المغولية ونظامها الأداري خلال حكم قوبيلاي قاآن (٦٥٨- ٦٩٤هـ/ ١٢٦٠-١٢٩٤م)، كما مست رواياته العديد من البلدان التي خضعت لحكم المغول في أقصى شرق آسيا وغربها.

وما يزيد من أهمية مرويات العمري عن المغول وجود الكثير من المشتركات مع مرويات ماركو بولو إذ إن موسوعة العمري أحتوت على معلومات تاريخية بمسحة جغرافية على نحو ما يدل عنوان المصنف مسالك الابصار، وأنه في الوقت الذي دون فيه ماركو بولو مروياته عبر مشاهداته الحية عن كثب ، في المقابل نقل العمري العديد من مروياته عن أشخاص زاروا الصين والبلاط المغولي وتضمن أخبار تتفق تارة مع روايات الرحالة، وتختلف معه تارة أخرى مما يفسح المجال للدراسة والمقارنة والاستنتاج بين ثنايا تلك المعلومات وتفكيك نصوصها.

---

(١) وهو شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله العمري، ولد في دمشق سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، ثم أنتقل إلى القاهرة التي برزت فيها مواهبه في اللغة والأدب والفقه، وقد تدرج في المناصب إذ عمل قاضياً حتى شغل منصب رئيس ديوان الانشاء في القاهرة في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٢م) حتى وفاته. للمزيد عن سيرته انظر: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس (بيروت: دار الثقافة ، ١٩٧٣م)، ج١، ص ١٥٩؛ احمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م)، ج١، ص ٣٥٤.

(٢) تحقيق كامل سلمان واخرون (بيروت : دار الكتب العلمية ،١٩٧١م)

ومن المصادر المملوكية التي أفادت فصول الدراسة الموسوعة الضخمة التي وضعها المنشئ القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨)[١] والمعنونة بأسم (صبح الاعشى في صناعة الانشا)[٢]، وتظهر مكانة هذه الموسوعة في أن مؤلفها أفرد مساحة واسعة فيما يخص التاريخ المغولي ووضعها في قسمين رئيسين، الأولى الأخبار التي وردت عنهم في مركز الامبراطورية المغولية نفسها ، والثانية ما ورد عن أخبار ومرويات في الخانيات المغولية الكبرى التي أقاموها بعيداً عن المركز في منغوليا ، ولهذه الموسوعة فائدة كبيرة فيما يخص دراستنا فقد أحتوت على معلومات تاريخية وبلدانية على النحو الذي ذهب إليه ماركو بولو في تدوين رحلته الشهيرة .

المصادر البلدانية وكتب الرحلات

حظيت المصنفات البلدانية والرحلات بأهمية كبيرة في دراستنا إذ تعد من أهم المصادر التي عولنا عليها في الكتابة ، وهي في محتواها كتب عامة لا يمكن الاستغناء عنها لكونها تمثل العامل المساعد الرئيس لدراسة رحلات ماركو بولو لما توفره لنا من معلومات ذات قيمة تاريخية وجغرافية عن البلدان الكثيرة التي أخضعها المغول، ومثل هذه المصنفات تسجل المعلومات عن الأمراء المغول من خلال تجوالهم ومشاهداتهم الحية عن المدن الصينية وأسواقها وتحديد المواقع الجغرافية، وكذلك الاهتمام بعادات الشعوب وأحوالها الاجتماعية والثقافية على الرغم من بعض الاشكالات التي تخص أصحابها وأتهامهم بالكذب والمبالغة في بعض المعلومات ولاسيما كتابات الرحالة ومنهم ماركو بولو بطبيعة الحال.ويأتي في مقدمة هؤلاء

(١) وهو شهاب الدين احمد ابو العباس بن علي القلقشندي، الذي ولد في سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م في قرية قلقشندة أحد ضواحي القليوبية قرب القاهرة، وقد برع في اللغة والادب والفقه،وحظي بمكانة رفيعة عند السلطان المملوكي مؤسس دولة المماليك البرجية برقوق (ت ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م) إذ تولى خلال فترة حكمه منصب ديوان الانشاء. للمزيد من المعلومات عن سيرته انظر: أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم_(القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م)، ج١، صص ٤١٦-٤٢٠.

(٢) (القاهرة: دار الكتب المصرية ، ١٩٢٢م).

البلدانيين ماوضعه البلداني ياقوت الحموي(ت٦٢٦ه/١٢٢٨م) ، ومايحتوي مصنفه (معجم البلدان)[١] الذي عولنا عليه في جميع فصول هذه الدراسة خاصة لتحديد المواقع الجغرافية بدقة وأسواقها، فضلاً عما أحتوى من معلومات هائلة ضمها هذا المعجم، والتي أعانت عمل الباحث وأزالت الكثير من الغموض والالتباس في حيثيات هذه الفصول.

ومن الرحلات التي أفادت الدراسة مصنف القزويني (٦٨٢هـ/١٢٨٤م)[٢] المعروف بـ(اثار البلاد واخبار العباد)[٣]، وأهمية هذا المصنف أنه قد وردت فيه معلومات لانجدها عند أي من البلدنيين الأخرين ولاسيما فيما يخص أقصى الشرق الاسيوي مستعرضاً العادات الاجتماعية والثقافية للعديد من المدن والبلدان التي خضعت لسيطرة المغول وادارتها كبلداني معاصر.

كما يعد كتاب الراهب والرحالة أودوريك دو بوردنون (Odorico da Pordenon) (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣١م)[٤] والمعروف بـأسم (مشاهدات أودوريك دو بوردنون الفرنسيكاني في الصين)[٥]وهو من أهم كتب الرحلات التي عولنا عليها في تغطية الجوانب السياسية والعمرانية من دراستنا، ولاسيما أن الراهب دوبوردنون

---

(١) (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧م).

(٢) وهو جمال الدين ابو يحيى زكريا بن محمد القزويني، ولد في قزوين ببلاد فارس سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، وتولى منصب القضاء في أثناء خلافة المستعصم بالله في ولايتي واسط والحلة. وللمزيد عن سيرته انظر: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي المعروف بحاجي خليفة (ت ١٠١٧هـ/١٦٠٨م)، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، (بيروت : دار احياء التراث العربي، د. ت)، ج١، ص ٩.

(٣) (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠م).

(٤) أودوريك دو بوردنون: وهو رحالة وراهب ولد في مدينة دبوردنون الايطالية سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م، دخل الرهبنة قبل بلوغ عامه الخامس عشر، وأظهر تحمساً شديداً للالتحاق ببعثات الفرنسيكان التبشيرية في آسيا، قام بعدد من الرحلات، وفي سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م توجه على رأس بعثة تبشيرية نحو أقصى شرق آسيا، وأستمرت رحلته هناك ما يقرب ستة عشر عاماً وصل خلالها إلى الصين وزار عاصمتها خان باليق وعاد بعدها إلى بلاده سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م نال خلالها الأحترام والتبجيل لما بذله من جهود في خدمة الكنيسة الكاثوليكية، وكان يخطط للقيام برحلة أخرى إلى الشرق برفقة عدد من الرهبان إلا إن المنية سرعان ما ادركته. للمزيد من المعلومات عن سيرته انظر:
Suzanne Conklin , Marco Polo and the Encounter of East and West , (Tornto: University Of Tornto, ٢٠٠٨), P.١٤٨.

(٥) ترجمة علي احمد السيد (القاهرة: دار المعرفة الجامعية ، بلا. ت).

رحالة معاصر لماركو بولو إذ قام بعدد من الرحلات التبشيرية التي قام بزيارتها، وما يميز عمل هذا الرحالة تشابه عمله مع الرحالة البندقي ولاسيما فيما يتعلق برحلاتهم الطويلة نحو الشرق الاسيوي، والمناطق الخاضعة لحكم المغول وجهودهما في خدمة الكنيسة الكاثوليكية ومحاولة تنصير بين المغول وشعوبهم الوثنية .

وللراهب دوبوردنون أهمية أخرى ينفرد بها كونه يرد بطريقة غير مباشرة على الشكوك والمزاعم التي طالت الرحالة البندقي ماركو بولو والادعاء بعدم ذهابه إلى الصين ، مع أن الحقيقة تبقى أن معظم مرويات أودوريك دو بوردنون حول الصين وبلاط المغول وزعمائهم، وما يتعلق بعاصمتهم خان باليق وقصورها تؤيد وتتطابق إلى حد كبير مع ماذهب إليه ماركو بولو في مروياته عن بلاد الصين في المدة التي أعقبت وفاة قوبيلاي قاآن في سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م.

ومن بين أهم كتب الرحلات التي أخذت حيزاً مهماً في دراستنا هي الرحلات التي قام بها الرحالة الطنجي ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)[١] والمعروفة بـ (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار)[٢]، وابن بطوطة يعد رحالة معاصراً لماركو بولو، وقد زار العديد من البلدان التي زارها بولو، وزعم أنه زار الصين وشاهد عاصمتها خان باليق أبان فترة حكم أسرة اليوان المغولية، ويلاحظ أنه أسهب في وصف المدن الصينية وسكانها وصناعتها ولذلك حظيت إقواله بأهمية كبيرة عند مقارنتها مع مرويات ماركو بولو بفعل التقارب الزمني بين الرحالتين، إلا هناك ثمة أهمية خاصة في عمل هذين الرحالتين فقد حظيا بشهرة واسعة بين أوساط

---

(١) وهو محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بأبن بطوطة، ويعد من أشهر الرحالة العرب المغاربة ، كما عرف عنه بكونه فقيهاً إذ تولى القضاء في أحد مدن الهند، ولد في طنجة سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م، وقام بالعديد من الرحلات في افريقيا وآسيا والاندلس، وقد أثارت بعضاً من رحلاته الجدل والتشكيك في صحتها ولاسيما ما يتعلق بزيارته للصين. وللمزيد من المعلومات عن سيرته انظر عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان (بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٩٥٧م) صص ٢٠١-٢٠٥؛ حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م)، صص ٢٤١-٢٤٢.

(٢) (القاهرة: بلا .م، ١٩٦٨م).

المستشرقين والمؤرخين، وفي ذات الوقت نالا الكثير من الاتهامات والشكوك ولاسيما فيما يتعلق بزيارتهما للصين.

ومع أن عمل أبن بطوطة يتشابه إلى حد ما مع عمل ماركو بولو من حيث الوصف وطرق المواصلات إلا إن ما يميز مرويات الأخير عن ابن بطوطة أنها كانت شاملة لمختلف جوانب الحياة عند المغول لاسيما ألاحداث السياسية منها لكون ماركو بولو كان قريباً من مصدر القرار المغولي ويعيش في مركز الامبراطورية المغولية، في حين أكتفى أبن بطوطة بالتركيز على وصف الجوانب الادارية والاقتصادية والدينية لأنه كان مجرد رحالة مغامر ، ولم يرتبط بوظيفة إدارية كحال ابن البندقية ماركو بولو، ومع ذلك فإن مرويات ابن بطوطة في هذه الجوانب لا يمكن أغفالها إذ يرد فيها وصف خاص عن أقوام المغول وأحوالهم الاجتماعية، ويقدم وصفاً يكاد يكون متطابقاً مع ما ذكره ماركو بولو في مقولاته عن عاصمة الصين (خان باليق) وفي أستعمال النقد الورقي ووصف المدن والمواني التجارية الخاضعة للسيطرة المغولية .

الدراسات الحديثة

إقتضت طبيعة هذه الدراسة تقسيم الدراسات الحديثة الخاصة بالإطروحة إلى قسمين رئيسيين، الاول تلك الدراسات التي عنيت بسيرة وحياة وشخصية ماركو بولو سواء ايام حياته في البندقية أو مغامراته وجولاته البحرية لاحقاً ، وهو حقل كبير حتى عرف بحقل دراسات ماركو بولو، والذي يعتمد بالاساس على مصنف ماركو بولو المعروف بأسم (رحلات ماركو بولو)[1] وهو حقل يهتم بكل تفاصيل حياته أبتداءاً من ولادته في البندقية حتى قيامه برحلته الشهيرة نحو الصين والشكوك التي طالت مغامراته، والقسم الثاني يتناول الدراسات التي عرضت عن ماركو بولو في

(١) ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط٢(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م)

الشأن المغولي فضلاً عن الموسوعات التي أفادت الاطروحة في مجمل فصولها كدائرة المعارف الاسلامية والموسوعة البريطانية، والايطالية، والامريكية.

الدراسات التي أختصت بسيرة وحياة ماركو بولو

من بين أهم الدراسات التي أهتمت بسيرة وحياة ماركو بولو هو ما قام به الباحث ريشارد جي ولش (Richard. J. Walsh) بعنوان (ماركو بولو مغامراته واستكشافاته)[1] وعلى الرغم من بعض المأخذ على هذا الارجيز بكونه لا يعد سوى ملخص لرحلة ماركو بولو نفسها لأنه تناول بشكل مختصر البلدان التي زارها ماركو بولو، إلا أنه أفاد الدراسة إذ قام بتوضيح بعض الالتباس الوارد في الرحلة وتحديد بعض المناطق بدقة على ما هي عليها الان فضلاً عن وصف ألاحوال الاجتماعية للمغول وأظهار النهضة العمرانية التي عرفوا بها في أثناء حكمهم للصين.

ومن الكتب التي أعتمدنا عليها في دراسة الاطروحة ما كتبه لورنس بيركرين (Laurence Bergreen) أحد أشهر كتاب السيرة الذاتية للرحالة البندقي ماركو بولو بعنوان (Marco Polo from Venice to Xanadu)[2] أي ماركو بولو من البندقية إلى قصر الزاندو المعروف بالمصادر الأوربية بأسم اكساندو، وقد ضم معلومات قيمة عن سيرة وحياة ماركو بولو، وقد أكد على زيارة ماركو بولو للصين نافياً المزاعم التي ذكرها بعض المؤرخين في عدم وصول ماركو بولو إلى تلك البلاد ومن تلك الدراسات المميزة ايضاً ما كتبه تيم مكنيس (Tim Mcneese) تحت عنوان (Marco polo and the Realm of Kublai khan)[3] أي ماركو بولو في مملكة قوبيلاي، وهو كتاب شامل تناول فيه مكنيس سيرة وحياة ماركو بولو أبتداءاً من حياته في البندقية ومغامراته وتجواله في أصقاع الشرق وأستقراره في بلاط الامبراطورية المغولية حتى عودته إلى مدينة البندقية سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م

(١) ترجمة حسين الياس (بغداد: مطبعة اسعد ، ١٩٥٩م) .

(٢) (New York: ٢٠٠٧)
(٣) (Texas: ٢٠٠٦).

فضلاً عما ورد فيه من روايات عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والفتوحات المغولية في أقصى شرق آسيا.

وعلى النقيض من ذلك كان من بين أكثر الدراسات التي تناولت سيرة ماركو بولو أثاره للجدل ما كتبته الباحثة الانكليزية فرنسس وود (Frances Wood) في كتابها المعنون (ماركو بولو هل وصل الصين)[1] وهي دراسة قامت بالاساس على نقض عمل الرحالة ماركو بولو، وعرض الحجج والأدلة والبراهين التي تدحض زيارة هذا الرحالة البندقي إلى الصين، وانه لم يتجاوز في رحلته مدينة القسطنطينية على أبعد تقدير بحسب زعمها، ومع أن هذا الاصرار من وجهة نظرها لا يمثل سوى راياً منفرداً تدحضه الوقائع التاريخية لدى الكتاب الاخرين، إلا أنه في حقيقة الامر أن الباحثة وود وظفت بعض الاشكاليات والمبالغات الواردة في مرويات ماركو بولو للتشكيك في صحة رحلاته بالمجمل من خلال الانحياز التام لوجهة نظرها تلك.

غير أن عدد من الباحثين والمختصين في التاريخ المغولي مع إقرارهم بوجود بعض المبالغات في بعض الروايات عن ماركو بولو ، وهو أسلوب دأب عليه معظم الرحالة لتعظيم كتاباتهم عدوا أن ما ورد في عمل فرنسس وود الاكاديمي مجرد محاولة تنظيرية في الكتابة لكسب الشهرة ليس إلا، وأن وجود عدد من المبالغات التي وقعت عليها وود لا ينفي صحة الآف الروايات الأخرى التي تجمع عليها مصادر المغول ومجتمعاتهم بصحتها، ومع هذا فإن وود في مصنفها هذا عن ماركو بولو وفرت مادة غنية بالمعلومات ، وشخصت مكامن الخلل والضعف في بعض من مرويات ماركو بولو، وهو ما فتح المجال أمامنا للمقارنة والاستنتاج بين ثنايا تلك الروايات المتشابكة .

---

[1] ترجمة فاضل جتكر (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م) .

اهم المراجع الحديثة

يأتي في مقدمة تلك الدراسات الحديثة التي أخذت حيزاً مهماً في صفحات الاطروحة، الدراسة التي قام بها عادل هلال تحت عنوان (العلاقات بين اوربا والمغول وأثرها على العالم الاسلامي)[١] وقد أفرد هذا الباحث المصري فصلاً خاصاً للتجارة بين المدن الايطالية مع أقاليم آسيا التي كانت تخضع لسيطرة المغول، ومن بينها الرحلات التجارية التي قامت بها اسرة بولو بين البندقية والشرق الاسيوي وصولاً إلى الصين.

ومن الدراسات الاستشراقية التي حظيت بكثير من الاهتمام بكتابات ماركو بولو تلك الدراسة التي قام بها المؤرخ الانكليزي هاورث (Howorth) أحد المتخصصين الكبار في تاريخ المغول بعنوان (History of the Mongols)[٢] إذ أورد فيها معلومات مهمة عن تاريخ المغول وحياتهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم.

ومن بين الدراسات الاستشراقية التي عولنا عليها الدراسة التي قدمها جورج لاين (George lane) تحت عنوان (عصر المغول)[٣] وهي دراسة شاملة لكل ما يخص أقوام المغول العرقية وما يتعلق بأحوالهم الاجتماعية والعمرانية والدينية، فضلاً عن عدد من الدراسات الأخرى ذات المواضيع الفردية التي أضافت وقائع مهمة لعمل الباحث وغطت جوانب الدراسة مثل ما كتبه فؤاد عبد المعطي الصياد بعنوان (المغول في التاريخ)[٤] ، وكذلك ما قدمته الباحثة الايرانية شيرين بياني المعنونة (المغول التركيبة الدينية والسياسية)[٥].

(١) (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ١٩٩٧م).
(٢) (London: ١٩٢٧).
(٣) ترجمة تغريد الغضبان (ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٢م).
(٤) (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٠م).
(٥) ترجمة سيف علي (بيروت: المركز الاكاديمي للابحاث، ٢٠١٣م).

الفصل الأول

سيرة وحياة وشخصية

ماركو بولو

في تسمية ماركو بولو ونشأته

ماركو بولو أسم على مسمى بين الأوربيين ولحد ما لإقرانهم المستشرقين، وتجمع المصادر على أن أسمه هو ماركو نيقولا اندريا، والمعروف بماركو بولو الرحالة البندقي الشهير، الذي أشتهر بين المغول أبان القرون الوسطى، وبولو هو أسم الشهرة الذي أقترنت به أسرته، ولا يعرف بالتحديد عن سبب هذه التسمية، ولكن يحتمل أن يكون هذا الأسم يعود لأحد أجداده القدامى الذي أنتقل إلى ماركو بالنسب [١].

وتكاد تجمع المصادر المتداولة عن هذا الرحالة البندقي الشهير إلى أنه رأى النور منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وبالتحديد سنة ٦٥٢هـ/ وهو ما يصادف ١٥ ايلول لعام ١٢٥٤م[٢]، ويرجح أغلب المؤرخون على أن ولادته كانت في البندقية [٣]ذاتها، وهو المكان الذي نشأ وترعرع وتوفي فيه، مع أن بعض المؤرخين على نحو مكنيس يذهب إلى أن ماركو بولو ولد في مدينة

---

(١) عن سيرة ماركو بولو انظر: رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛ عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، ص ١٧٢؛ وانظر ايضاً فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ١٥٩؛

Marco Polo, Il Milione (Milano:١٩٧٥) , pp.٢-٤ ؛
Robert .G.Albion, Marco Polo, Encyclopedia International, Vol, ١٤,P. ٤٩٧؛ Gaspar.v.Gil , Marco Polo, Encyclpedia Italiana, (Milano:١٩٩٦) , vol ٩ , p.٣٨١ .

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛ عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، صص ١٧٢-١٧٣. في حين ينفرد الباحث تيم مكنيس (Tim Mcneese) برواية مفادها بأن ليس هناك تاريخ محدد لولادته، ويرجح حدوثها بين السنوات (٦٤٩-٦٥٢هـ/ ١٢٥١-١٢٥٤م) . للمزيد من المعلومات انظر :

Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P.١٢.

(٣) البندقية: وهي مدينة تقع في شمال ايطاليا، وتعد في ذلك الوقت من أهم المدن التجارية، وقد أشتهرت بمبانيها الأثرية والقصور والكنائس الفخمة. للمزيد انظر:

Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٢٠.

كرزولا[١] (Curzola) الواقعة في كرواتيا والتي كانت تحت نفوذ مدينة البندقية ثم أنتقل في سن مبكرة من حياته إلى مدينة البندقية المعروفة بتجارتها مع دول البحر الادرياتكي الذي يفصل بين المدن الايطالية والبلقان[٢].

وقد عرف عن هذا الصبي البندقي أنه نشأ نشأة دينية كاثوليكية لان أسرته كانت تعرف بحرصها الشديد على ممارسة الطقوس الدينية، والاحتفالات التي تقيمها الكنيسة المحلية مع أن نشأته تعود إلى كنف عائلة تجارية ثرية وفرت له منذ عهد مبكر فرصة التعليم الرسمي الذي كانت تقيمه الكنيسة، ويقتصر على ما يبدو على أبناء الطبقة الثرية والارستقراطية وذلك لارتفاع تكاليفه الباهظة، ولا تشير المصادر إلى قيامه في هذا الوقت من حياته بأي دور مهم حتى بلغ من العمر سبعة عشر عاماً وقيامه برحلته الشهيرة نحو بلاط المغول [٣].

بيت ماركو بولو واسرته

ينتسب ماركو بولو إلى أحد العائلات النبيلة من الطبقة الارستقراطية في البندقية وعلى الرغم من أنها كانت لا تعد من ضمن المراتب العليا لطبقة النبلاء ولكن أسم العائلة قد أدرج في مجلس البندقية ضمن كبار الشخصيات من البيوتات[٤]، ويبدو أن أسم اسرة بولو لم يكن بذات الشهرة قبل قيام ماركو برحلته

---

(١) كرزولا: وهي مدينة تقع حالياً في دولة كرواتيا، وكانت خاضعة وقتذاك لحكم البندقية، وقد أشتهرت بالتجارة، وفيها ميناء تجاري كبير. للمزيد انظر:
Stephen. G. Haw, Macro Polo's China, (New York: ٢٠٠٦), P. ٤١.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٦؛ لين سابل واخرون، ١٠٠٠ حدث عظيم، ترجمة مازن طلميات، ط١(دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٨م)، ص١٠٦، حسين محمد فهيم، ادب الرحلات (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٩٨٩)، ص ٢١؛
Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P.١٢.
(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛
Henri Cordier, Marco Polo,IN EB, pp. ١٧٤-١٧٧
(٤) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ١٥٩؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٣٤-٣٥.

الشهيرة التي قادته إلى الصين، ويمكن أن نستنتج ذلك من شحة المعلومات المتعلقة بأسلافه في مدينة البندقية إذ أن ماركو بولو شخصياً وليس أسلافه من وضع أسم العائلة على طريق الشهرة لا غير، إلا أن المصادر تشير أن جده يدعى اندريا، وكان من رجال الكنيسة، ويعمل في ابرشية سان فيليكس في مدينة البندقية (١)، وقد خلف ثلاثة أبناء ذكور وبنت واحدة وهم كل من العم ماركو وهو أكبر أبناءه الذي لم يغادر البندقية، وأوكلت إليه مهمة إدارة تجارة العائلة حتى وقت وفاته في سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م (٢)، ونيقولا والد ماركو الذي رافقة في رحلته إلى الصين، والذي كان دائم التنقل بين البندقية والقسطنطينية (٣)، للقيام بالاعمال التجارية التي كان يضطلع بها وتوفي سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م. أما أبنه الثالث فهو ماتيو الذي رافق ايضاً ماركو في رحلته نحو الصين وتوفي سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م(٤).

أما الابنة الرابعة تدعى فلورا والتي قامت بالعناية بماركو بولو وتربيته في طفولته أثر وفاة والدته(٥)، ومن جهة الام فلا تشير المصادر إلى أية معلومات عن

---

(١)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٣٥.

(٢) فرنسس وود، ماركو بولو، هل وصل الصين، ص ١٥٩؛

Lconardo Olschki, Marco polo's Asia (Barkely: ١٩٦٠),p. ١٠٠.

(٣) القسطنطينية: وهي المدينة التي أتخذ منها الامبراطور قسطنطين الأكبر حاضرة للأمبراطورية الرومانية سنة (٣٣٥-٣٩٥م)، ومن ثم أصبحت حاضرة للأمبراطورية البيزنطينية، وقد فتحها العثمانيون سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م علي يد السلطان محمد الفاتح، وهي مدينة اسطنبول الحالية، للمزيد انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٤٧؛ فيليب مانسيل، القسطنطينية، ترجمة مصطفى محمد قاسم (الكويت: المجلس الوطمني للثقافة والفنون، ٢٠١٥م) ، صص ٩-١١.

(٤) هذه التواريخ المعلنة عن وفاة الاخوين نيقولا وماتيو مجرد ترجيحات ، بينما يشير الباحث وليم مارسدن الذي نقل رحلات ماركو من الايطالية إلى الانكليزية أن الاخوين عادا سوية برفقة ماركو إلى مدينة البندقية في عام ٦٩٥ه/١٢٩٥م ، وفي الحقيقة أن النص المتعلق بعودتهم لم يشر صراحة إلى ذلك إذ يذكر ماركو بانه عاد ومن معه من مرافقين إلى مدينته البندقية دون أشارة صريحة إلى عودة والده نيقولا وعمه ماتيو ، ومهما يكن من أمر فإن ماركو لم يشر إلى أي رواية تخصهما بعد عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م في أشارته إلى مساعدتهم المغول في حصار مدينة هسيانغ ينغ الصينية حيث طغى بعد هذا التاريخ أخبار ماركو ورواياته . للمزيد من المعلومات انظر: ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ١٨؛ فرنسس وود ، ماركو بولو هل وصل الصين، صص ١٦٩-١٦٠؛

Marco Polo, Il Milione, PP.١-٣, The travels of Marco Polo, translated Willaim Marsden (London:٩٣١),p ١-٢.,

(٥) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ١٩٠؛ وانظر ايضاً

سيرة حياتها بما في ذلك أسمها الذي ظل غير مستخدم في التداول، وكل ما يرد عنها أنها توفيت سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م عندما كان ماركو طفلاً صغيراً في السادسة من عمره، وقامت عمته فلورا بتربيته [١].

ومن ناحية أسرته الشخصية، وكما هو معروف فإن ماركو بولو لم يتزوج طوال السبعة عشر عاماً التي قضاها في الصين، والحقيقة هذا يعد موقف غريب من ماركو ولاسيما أنه كان مقرباً من القآن الذي كان دائماً ما يمنح للمقربين منه نساء فائقات الجمال، ولكنه على مايبدو لم يجد الفتاة التي تناسب تطلعاته من جهة ومعتقده المسيحي الكاثوليكي من جهة أخرى، ولاسيما أن الزواج في تلك الفترة قد يمثل مشكلة معقدة له مع عدم وجود مبدأ الطلاق في الديانة المسيحية مما جعله يؤجل فكرة الارتباط حتى عودته لمدينته البندقية [٢]،وهو ما حصل بالفعل إذ تجمع المصادر أن ماركو قد أقترن بالزواج من أمراة تدعى دوناتا باودر، وقد أكدت مصادر سيرته أن دوناتا كانت الزوجة الوحيدة لماركو وفقاً لمبادى الدين المسيحي الذي يمنع من تعدد الزيجات، وقد تزوجها سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م عندما كان في السادسة والاربعين من عمره أثر عودته من رحلاته الطويلة في أصقاع آسيا، وقد انجبت له ثلاث بنات وهن كل من بيليلا وفانتينا وموريتا [٣].

هل وصل ماركو بولو إلى الصين؟

من القضايا الشائكة التي أثارت الجدل بين أوساط المؤرخين والباحثين على حد سواء تلك المسالة التي تتعلق بزيارة ماركو بولو إلى الصين، وعمله عند قآن المغول قوبيلاي قآن، فهل وصل ماركو بولو إلى إلصين فعلاً؟ وهل كانت له

=Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, p.٣٥.
(١) ريشاد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٢٢.
(٢)Marco Polo, The travels of Marco Polo, p.٣ ؛ Stephen Haw, Marco polo's China, p. ٤.
(٣)Tim Mcneese, Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P.١٧.

علاقات مع القآن قبل عودته المفترضة إلى البندقية، واذا لم يكن قد وصل إلى تلك البلاد كما أدعى بعض المؤرخين فما هي مصدر معلوماته الغزيرة عن المغول وبلاطهم في الصين التي تكاد تجمع عليها المصادر، في البداية نقول أن هناك وجهتي نظر متباينة في هذا الشان، الاولى تدعم صحة معظم تلك الروايات في ذهاب ماركو بولو إلى الصين، وأستقراره فيها حتى عودته إلى مدينة البندقية، وهو ما تدعمه المصادر والوقائع التاريخية الثابتة على الرغم من كونها لا تنفي ما أنزلق إليه من مبالغات بشأن المهام التي قام بها هناك الذي قد يصل إلى الكذب احياناً مما فتح المجال للتشكيك في مجمل رواياته [١]. أما وجهة النظر الثانية فتنفي أن يكون ماركو بولو قد وصل إلى الصين واقعاً من دون أن تقدم الدليل القاطع الذي يدعم طروحاتها سوى بعض التفاصيل الجزئية التي لا تخل بالسياق العام للرحلة، وفي الوقت نفسه تتجاهل الآف المرويات التي أوردها ماركو بولو والتي تجمع عليها المصادر المغولية والصينية والفارسية مما فتح جدلاً مفتوحاً بين وجهتي النظر المتعارضتين[٢] .والحقيقة أن هذا الجدل يعود إلى ايام ماركو بولو نفسه فلم تقابل تلك الروايات بالكثير من التصديق من قبل معاصريه حتى أن كتابه الرحلات وصف بالمليوني أي ذو المليون كذبة أو رواية[٣]، وذلك لأسباب تبدو موضوعية آنذاك أهمها أن ماركو بولو كان قد قدم عن الشرق عامة والصين خاصة معلومات هائلة وغير مسبوقة إلى الأوربيين يجهل الناس عنها أي شيء بحيث بدت تلك المعلومات وكأنها مجموعة من القصص والخرافات، ومن وجهة اخرى أنه قدم معلومات لصورة مغايرة عما رسخ في الأذهان عن المغول وخاناتهم، بحيث أظهرهم في أبهى صور الحضارة والتمدن خلال حكم أسرة اليوان التي هي بخلاف ما يعرفه العالم عنهم من الصور النمطية التي وسمتهم بالوحشية والهمجية

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص ١٨-٢٠.
(٢) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، صص٢٢٣-٢٢٩؛ Stephen Haw, Marco Polo's China, pp. ٧-٨.
(٣) ريشاد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٢٠؛ فهيم، ادب الرحلات، ص ٢٢.

والبربرية[1] حتى أن ماركو نفسه تنبه إلى هذا الأمر وكان مدركاً أن تلك الروايات ستثير الشك والريبة فهو يقر بذلك بقوله " أنه لم يستطع أن يبوح بالحقيقة كلها، فأضطررت أن أروي بعضاً من القصص بأقتضاب خشية أن لا أجد من يصدقني"[2]ومع أننا لو أستعرضنا الأدلة التي تزعم أن ماركو بولو لم يصل إلى الصين لنجد فيها أقوال ما هو جدير بالمناقشة والموضوعية في الطرح ، في حين أتسم أغلبها بالضعف تماماً فكان من السهولة دحض أتهامها [3]، وفي الواقع أن تلك المزاعم كانت تشير في أغلبها إلى المبالغة والكذب وتضخيم دور اسرة بولو حتى ظهرت مؤخراً الدراسة المعنونة (ماركو بولو هل وصل الصين) في أواخر القرن الماضي وبالتحديد في سنة ١٩٩٥م للباحثة الانكليزية فرنسس وود التي زعمت فيها وود أن ماركو بولو لم يصل إلى الصين أبداً وعرضت عدد من الأدلة والبراهين لدعم أقوالها والتي سنحاول دراسة ماجاء فيها، فضلاً عن الطعون الأخرى التي وجهت له من قبل معاصريه الأوربيين.

ومن بين أهم تلك المزاعم التي أخذت على ماركو بولو أنه قدم مادة وصفية عن الصين وأنه يكثر من المصطلحات العامة في وصف تلك البلاد ومدنها كالقول بأنها مدينة (بالغة النبل) و (أهلها وثنيون) وأن الصين (خاضعة لحكم القاآن الاعظم)[4] وتستشف وود من ذلك بأن المعلومات التي أوردها ماركو أنما نقلها عن مصدر أخر ربما يكون أحد المصادر الفارسية من دون ترجح ماهية ذلك المصدر ولا تاريخه، وفي حقيقة الأمر أننا نختلف مع ما ذكرته وود في هذه المسألة تماماً، ولا بد أن نقول في البداية أن الرد على تساؤل وود هذا ينقسم على قسمين أولهما أن ورود بعض المصطلحات الوصفية التي أستخدمها ماركو لتقديم مادته لا يعني أن ماركو بولو لم يصل الصين لكون معظم الرحالة الذين سبقوه أستخدموا حالة

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص ٢٢-٢٤؛
Robert Albion, Marco Polo, IN EI, Vol ١٤,P. ٤٩٧.

(٢) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٢٠.

(٣) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، صص ٢٢٩-٢٣٣؛ بيير جوردا، رحلة إلى الشرق، ترجمة مي عبد الكريم (دمشق: الاهالي للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م)، ص ١٠.

(٤) ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٢.

الوصف في تدوين مشاهد تدعم أقوالهم، ومن هنا لا يعد مثل هذا القول حجة للأدعاء أن ماركو لم يصل إلى أصقاع الصين ومدنها، وثانيهما أن ماركو بولو وصف جميع البلدان التي زارها بطريقة تكاد تكون متشابهة ومثل هذا يعني أن ماركو لم يزر بقية البلدان فلماذا أثارت أقوالها جزئية الوصف عن الصين دون غيرها من البلدان التي زارها(١)؟

وفي الواقع أننا نختلف في الاساس مع أدعاءات وود بأن نقل ماركو بولو للأحداث أقتصر على جانب الوصف وحده، بل أن مروياته كانت مصدراً أساسياً للكثير من التفاصيل والجزئيات المتعلقة بتلك الحقبة وأخبارها، ولاسيما وصفه الدقيق من داخل جدران قصر القآن والعاصمة خان باليق ونظام البريد وعمل الوزراء حتى يكاد أن يكون ماركو بمنزلة المصدر الوحيد الاكثر دقة وتفصيلاً عن تلك الحقبة المغولية_ الصينية وأخبارها(٢).

ومن بين الأدلة الأخرى التي أستدل بها المؤرخون للزعم أن ماركو لم يصل إلى الصين أدعاء ماركو أنه كان مسؤولاً مع والده نيقولا وعمه ماتيو عن بناء المراجم التي ساعدت المغول في حصار مدينة هسيانغ ينغ(٣)بين عامي (٦٦٧-٦٧٢هـ/ ١٢٦٨-١٢٧٣م) إذ اقترح الاخوين نيقولا وماتيو على القآن أن يسمح لهم بأنشاء الآت المنجنيق التي ترمي أحجار زنتها ثلاثمائة رطل التي كانت تستخدم في أوربا، وبعد أستماع القآن لتلك الخطة وافق عليها بحماس، وأصدر أوامره بأن يعمل تحت أمرتهم أكفا المهندسين ، وعند أستعمال المناجيق في المعركة بلغ الرعب بين صفوف الاهالي مما أجبرهم على الاستسلام وهو ما حقق نصراً كبيراً وتقديم

---

(١) ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٢؛ فهيم ، أدب الرحلات، ص ٢٠.

(٢) ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٢؛ محمد خميس الزوكة، آسيا دراسة في الجغرافيا الاقليمية (الاسكندرية: دار المعرفة، ١٩٨٦م)، صص ٤٣-٤٥؛ ولز، معالم تاريخ الانسانية، ج٣، ص ٩٤٠.

(٣)هسيانغ ينغ: وهي مدينة تقع جنوبي الصين، ويطلق عليها رشيد الدين أسم ننكياس، كانت قد صمدت لأكثر من خمس سنوات بوجه حصار قاس فرضه عليها المغول، وبعد أنهيار حصونها عدت نقطة تحول في تاريخ المغول والصين معاً حيث توجت بإعلان قوبيلاي قآن نفسه قآناً على الصين والمغول معاً. للمزيد انظر: رشيد الذين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان ، صص ٢٤٤-٢٤٧.

فروض الطاعة للقاآن، [١]، الامر الذي عزز مكانة اسرة بولو عند المغول [٢]، وفي الواقع أننا نشاطر وود صدق القول في بأن أدعاء ماركو بولو واسرته بمسؤوليتهم عن بناء المراجم هو كذب محض، ففضلاً عن أن تاريخ هذا الحادثة لا يتفق مع تاريخ وصولهم إلى بلاط المغول في سنة٦٧٤هـ/١٢٧٥م أي أنهم وصولهم كان بعد عامين من أنتهاء ذلك الحصار ونجاح المغول في أجتياح المدينة، فأننا نضيف سبباً آخر للتشكيك بمزاعم بولو في هذه الحادثة إذ لم يعرف عن أسرة ماركو بمهارات في القتال وبناء المراجم حتى تسند له تلك المهمة الصعبة في أخضاع تلك المدينة والتي صمدت لأكثر من خمس سنوات بوجه كبار القادة المغول قبل أن تنهار حصونها أثر نفاذ مؤنتهم، لذا يمكن القول أن أدعاء ماركو وأسرته بكونهم مسؤولين عن بناء المراجم، وأنهم لعبوا دوراً محورياً في أنتصار المغول على تلك المدينة هو كذب محض، هدفه على ما يبدو من ذلك تضخيم دورهم طمعاً بمجد شخصي مبرقع [٣].

ومن بين المزاعم التي أستند إليها بعض المؤرخين للأدعاء أن ماركو لم يصل الصين هو أنه لم يذكر شيء عن الشاي الصيني الشهير، ومع أهمية الشاي بالنسبة للصينيين فإن هذه الأهمية لا تبدو نفسها للمغول أو حتى للأوربيين فقد عرف عن المغول ولعهم بشراب الخمر (القميز) وشراب الارز الصيني، ومع ذلك فإن عدم ذكر ماركو بولو للشاي الصيني مع أهميته بالنسبة للصينيين لايعد حجة للقول أنه لم يصل الصين أبداً، وفي الحقيقة لا يوجد رحالة سبق ماركو أو بعده كان عمله متكامل بحيث غطى جميع مفاصل الحياة والبلدان التي زارها لذا من غير المعقول أن ينتقد ماركو على أشياء لم يذكر عنها شيئاً لاسيما البسيطة منها ، وإلا من الممكن عندئذ أن نشكك في جميع عمل الرحالة [٤]، بيد أن أهم الأدلة الواقعية التي أوردها

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٥٩.
(٢) ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٢.
(٣) Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, pp. ٢٦٠-٢٦٢.
(٤) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ١٨٩؛

المؤرخون هي عدم أشارة ماركو بولو لسور الصين العظيم، والحقيقة أن هذا التساؤل يعد منطقياً والاكثر واقعية من قبل منتقديه فكيف غفل ماركو بولو حينئذ عن ذكر أحد أهم معالم الصين وأكثرها شهرة .

وفي هذا الصدد يرى بعض الباحثين المحدثين بأن سور الصين الحالي بالجدار المتكامل أخذ شكله النهائي بعد ما يقرب قرنين ونصف بعد وفاة ماركو بولو(١) أثر التحصينات الدفاعية والتغيرات الجوهرية التي طرأت على السور خلال حكم أسرة مينغ(٢) وهي رواية لها ما يؤديها فالباحث ستيفن هاو يعلق على عدم إشارة ماركو لسور الصين بكونه لم يكن سوى حائط صغير في تلك الفترة، وما يجعل الأمر يبدو أكثر واقعياً أن أهم الرحالة المعاصرين أمثال جون بلان كاربيني ووليم الروبريك اللذان زارا الصين ايضاً وأحلا في بلاط القاآن لكنهم لم يشيروا إلى سور الصين مما يجعل هذا رأي واقعياً ويعزز فرضية أن السور لم يكن بذات العظمة عند دخول ماركو للصين وهو ما يرجح عدم مشاهدته (٣)، والحقيقة أن هذا التحليل يحمل قدر كبير من البراجماتية الواقعية لكن هذا لم يمنع من القول أن ماركو جانبه الصواب والسهو عند عدم أشارته لسور الصين، والادعاء أن هذا السور لم يكن بارز المعالم في بعض جوانبه لا يعفي ماركو من ذلك السهو ولاسيما أن هذا السور كما هو معلوم يفترض أن أوضح معالمه من جهة منغوليا، لكون سبب أنشاءه

=Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, pp. ٢٢٥-٢٢٦.

(١) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٧؛
Lesley.A. Dutemple, The Greet Wall Of China (New York: ٢٠٠٣), P. ٧٤.

(٢) اسرة مينغ: وهي سلالة حكمت الصين خلال المدة (٧٧٠-١٠٥٤هـ/ ١٣٦٨-١٦٤٤م) بعد القضاء على أسرة اليوان المغولية، وتمكنت بسط نفوذها على جميع أراضي الصين وعملت على تخليص البلاد من اثار النفوذ الاجنبي، وفي طليعتهم المغول، كما أتخذوا من الكونفوشيوسية دين رسمي بدل البوذية، وقد أضمحل خلالها دور المغول والمسلمين وغيرهم رافقه أزدهار الادب والثقافة الصينية . للمزيد من المعلومات انظر:
John Herron, The Arts Of Ming Dynasty (Detroit: Institute Of Arts, ١٩٥٢), pp. ١-٣.

(٣) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٧؛ وانظر
Stephen Haw, Marco Polo's China, p. ٥٢.

في الاساس هو لصد الهجمات وعمليات السلب والنهب التي كانت تقوم بها القبائل المغولية والتركية على الصين، وهي الجهة التي دخل ماركو بولو من خلالها إلى الصين لذا يفترض تلك الجهة من السور بارزة المعالم، ومع ذلك فأننا لا نميل إلى أنتقاد ماركو لعدم اشارته لسور الصين فمن غير المعقول أن ينتقد الرحالة وحتى المؤرخين على قضايا لم يوردوا عنها شيء بل تقويم وتحليل ما ورد عنهم (١).

وبعد أستعراض هذه الشكوك التي زعمت أن ماركو بولو لم يزر الصين يمكن القول أن هذه الأدلة والبراهين في أغلبها تجافي الحقيقة فلو كان ماركو أستقى معلوماته عن الصين من مصدر أخر تناوله لكان وقع بأخطاء كبيرة ومفارقات تاريخية، وهو مالم يحدث حقيقة فروايات ماركو بولو كانت دقيقة جداً في وصفه للأحداث التاريخية، وتدوينه والوقائع اليومية التي تخص الشعوب الصينية والمغولية وسواها، وأن الطعون التي وجهت إلى عدد محدود من المرويات لاتنفي صحة الآف الروايات التي تجمع عليها المصادر الصينية والمغولية والفارسية سوية، مع عدم أستبعاد أن يكون ماركو بولو كان يبالغ في بعض الاحيان طمعاً بمجد شخصي له ولاسرته، ومع هذا اياً كانت الحقيقة أمامنا عمل شاخص لهذا الرحالة البندقي سنعمل على مقارنته مع المصادر المغولية، وهو الهدف الذي يتجلى من هذه الاطروحة مع مراعاة توخي الحذر الشديد عند عرض هذه الروايات ونقدها (٢).

أسباب ودوافع قيام ماركو بولو برحلته إلى الصين

أختلف الباحثون في تقويمهم لطبيعة عمل الاخوين نيقولا وماتيو، ومن ثم ماركو نفسه في مسألة الرحلة، وماهية الأسباب الحقيقية التي دفعتهم للتوجه صوب بلاد المغول، فقد ذهب الأخوين كتاجرين أول الامر، ولكنهما عادا كسفيرين من قبل

---

(١) فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٧؛
Stephen Haw, Marco polo's China, pp. ٥٢-٥٥.
(٢) جورج لاين، عصر المغول، صص ٢٧١-٢٧٥؛
Stephen Haw, Marco Polo's China, P. ١٧٥.

أمبراطور المغول قوبيلاي قاآن إلى البابا كليمنت الرابع فما هي دلالات تلك الرحلة، وهل كانت لأسباب تجارية بحتة تقوم على منطلق تجاري يدر منافع مالية؟ أم كانت لأسباب دينية تبشيرية، تقوم على محاولة تنصير المغول (١)، وتحويل وثنيتهم الشامانية إلى الديانة المسيحية؟ أم أن تداخل عملهم بين التجارة والدين معاً أسهم في غموض مهمتهم تلك حتى بات من الصعب التفريق فيما اذا كان المقصود من رحلاتهم إلى تلك البلاد المجهولة هو لغرض التجارة أم التبشير بالديانة المسيحية ولاسيما أن هناك آراء تؤكد أنهم ذهبوا إلى هناك بقصد التجارة من دون أخفاء نواياهم ودوافعهم الدينية المتمثلة بنشر المسيحية في كل ارض تطئ فيها أقدامهم ، ومتى ما سمحت لهم الظروف في ذلك؟ أم أن الرحلة كانت لأسباب أخرى تتعلق بشخص ماركو واسرته كحبهم للسفر والترحال وروح المغامرة العامل الحاسم في توجههم إلى تلك البلاد المجهولة (٢).

وقبل الخوض في تلك تفاصيل يجب التنويه إلى أن طرح هذه التساؤلات لها علاقة عن أسباب وصول هؤلاء البنادقة إلى أرض المغول، فمن الثابت أولاً أن رحلات اسرة بولو قبل ذلك كانت تتم بقصد التجارة، ويمكن الاستدلال عن ذلك من النجاح الكبير التي حققته العائلة في هذا المجال، والشيء الاخر الذي يجب الاشارة إليه أن ماركو لم يكن صاحب فكرة التوجه للصين بل تعود إلى والده نيقولا وعمه ماتيو إذ أن ماركو رافق الاخوين في الرحلة الثانية، وكان صبي يافع، وقد أصطحبا الأخوين في تلك الرحلة عندما بلغ عامه السابع عشر، كما يجب التنويه ايضاً بعيداً عن هذه الافتراضات إلى أن هناك رواية هي المعلنة عن سبب ذهابهم الى تلك البلاد المجهولة آنذاك ومثل هذه الرواية تتعارض مع هذا التقديم حول حقيقة وأسباب ذهاب الاخوين إلى البلاط المغولي في الصين فيما إذ كانت لأسباب تجارية أم بواعث دينية ترمي الى نشر المسيحية، وهي أن الاخوين نيقولا وماتيو ما كانا

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛
John Murray, The Book Of Marco Polo (London:١٩٠٣), vol. ٢. P. ٣.
(٢) Ibid, Vol٢ , P.٣.

ليصلا إلى بلاط المغول ، إلا نتيجة لأضطراب الامن في مدينة القسطنطينية في أثناء تواجدهم فيها، فتعذر عودتهم إلى بلدهم نتيجة أنتشار القرصنة، وقطاع الطرق في الساحل البحري لبلاد الأناضول، ولذلك اتجهوا شرقاً حتى وصولوا إلى بلاط المغول (١).

وفي هذا السياق أن صحت هذا الرواية نتسائل ألم يكن المخاطرة في أرض مجهولة، وقطع مساحات شاسعة أخطر بكثير من أضطراب الامن وأنتشار القراصنة عند سواحل القسطنطينية، ثم لماذا لم يتوجهوا إلى المراكز التجارية الاخرى الاكثر قرباً منها كبلاد الشام والعراق وبلاد فارس ومصر وغيرها؟ فلماذا التوجه إلى أقصى الشرق؟ الحقيقة أن الباحث يستشف حتى وأن صحت هذه الرواية، أنهم اتجهوا شرقاً نتيجة لأنقطاع السبل معهم في القسطنطينية ما كان ليكون ذلك إلا أن هناك دافع جعلهم يستبدلوا خطر محدق بمخاطر قد تكون أخطر بكثير من تلك التي واجهتهم ، كأن يكون دافعاً تجارياً فيه ربح وفير أو أن يكون هناك دافعاً دينياً يتمثل بتنصير المغول إلى ديانتهم، وهو ماجعلهم يقدما على تلك المغامرة (٢).

أننا حين نستعرض تلك الاحتمالات نرى أن الدافع الاساسي لتوجههم صوب الشرق كان بقصد مزاولة التجارة وهو أقرب إلى الصواب، واكثر رجحاناً، وأمتداد للدور الذي اضطلعت فيه اسرة بولو بعملها التجاري والاهتمام المتزايد بالسلع بين الشرق والغرب كالذهب والفضة والاحجار الكريمة والقطن والكتان والفلفل والسمسم وخشب الصندل وغيرها من السلع والمواد التي ذاع صيتها آنذاك(٣)، وفي

---

(١)Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P.٢٨; Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, p. ٣٦.

(٢) توماس ارنولد ، تراث السلام، ترجمة جرجيس فتح الله ، ط٢ (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٢م) صص ١٢١-١٢٢؛ ولز، معالم تاريخ الانسانية ، ج ٣، ص ٩٣٣؛

Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P.٢٨.

(٣) ريشاد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٢؛ عيسى علي ابراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية (الاسكندرية: دار المعرفة الجغرافية، ٢٠٠٠م) ، ص٥٤؛

هذا الشأن يرى الباحث تيم مكنيس أن أحد أهم الاسباب التي دعت الاخوين بولو للذهاب إلى أرض المغول هو جلب تلك السلع الثمينة من دون الحاجة إلى وسيط تجاري يشتريان منه بقوله " فكّر الاخوين نيقولا وماتيو بولو بالذهاب مباشرة إلى أقصى الشرق ، لأعتقادهم أنهم سيكسبون المزيد من المال وشراء البضائع دون الحاجة إلى وسيط تجاري" (١)، وهي رواية تحظى بالقبول ولاسيما اذا علمنا أن اسعار تلك السلع في أوربا كانت تتضاعف عدة مرات عن سعرها الحقيقي في المنشأ وهو ما يوفر مكاسب مالية كبيرة للتجار، ناهيك عن ندرة تلك السلع في كثير من الاحيان بفعل النزاعات القائمة بين الدول المجاورة وأضطراب الامن وأنتشار قطاع الطرق على سواحل البحار حتى أن بعض المواد كالفلفل والتوابل والملح والسمسم وغيرها من المواد القادمة من الشرق يرتفع ثمنها بما يعادل معدني الذهب والفضة نفسها(٢)، وفي المقابل لعبت سياسة المغول الاقتصادية دوراً مهماً في تنشيط هذا التبادل التجاري، حيث شجعت العمليات التجارية من خلال فتح ابواب التجارة وتأمين الطرق التجارية فضلاً عن حماية العاملين لديهم ، ولاسيما ما يوفره هذا النشاط التجاري من مورد كبير للمغول نتيجة مرور تلك السلع في الأراضي الخاضعة لهم، فضلاً عن حاجتهم الماسة للسلع القادمة من الغرب، لذا ليس من المستغرب أن يرجح معظم المؤرخين أن السبب الحقيقي لقيام البنادقة بتلك الرحلة هو بقصد التجارة، وما تدره عليهم من أموال طائلة(٣).

وفي المقابل نجد أن بعض المؤرخين يرجح أن سبب توجه أسرة بولو نحو بلاد المغول كان لأسباب دينية بهدف نشر الديانة المسيحية بين صفوف المغول وأن

=Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, pp. ٢٢-٢٣.

(١)Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P.٢٨.

(٢) بدر الدين الصيني، العلاقات بين العرب والصين(القاهرة:مكتبة النهضة المصرية،١٩٥٠م)، صص ١٣٠-١٣١؛ عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الاسلامي، ص ٢٢٧؛
Stephen. Haw, Marco Polo's China,pp. ١٣٨-١٣٩.

(٣)عباس اقبال، تاريخ المغول، صص ٥٥٢-٥٥٣؛ هلال ، العلاقات بين أوربا وأثرها على العالم الاسلامي، ص ٢١٩.

دخولهم كتجار لا يضعف الرغبة الدينية التبشيرية التي طالما حملوها بصدورهم، وهي محاولة نشر الديانة المسيحية في كل أرض تطئ فيها أقدامهم، وفي الواقع أن هذا الاحتمال يظل قائما لاسيما أن التجارة أستخدمت في الكثير من الاحيان في تمويل الكثير من الحملات التبشيرية المسيحية فلا غرابة أن مزجت تلك الرحلات بين غرضي التجارة والتبشير بالديانة المسيحية(١).

وفي هذا الشأن تنقل الباحثة وود نصاً" في قراقورم(٢)حيث قابل التاجران البندقيان القاآن الاعظم قوبيلاي، وناقشا معه الدين المسيحي بدلاً من الكلام على التجارة حتى أمر قوبيلاي بكتابة رسائل موجهة إلى البابا بيد الاخوين، من أجل أن يرسل البابا ما لا يقل عن مائة رجل متبحر في الدين المسيحي، ليجادلوا عبدة الأوثان، لكي يبرهنوا أن معتقدهم خاطئ كلياً، وأن آلهة المغول التي يعبدونها ما هي إلا أرواح شريرة"(٣)، ومن خلال أستقراء هذا النص أعلاه يبدو جلياً أن مهمة الاخوين نيقولا وماتيو أصبحت دينية أكثر منها تجارية وهو ما يطرح تساؤل فيما اذا كانت التجارة مجرد غاية للوصول إلى الهدف الأسمى المتمثل بمحاولة نشر الديانة المسيحية في أرجاء العالم كغيرهم من رجال الدين الذين كانوا على مقربة من الكنيسة.

---

(١)ولز،معالم تاريخ الانسانية، ج٣، صص٩٣٣-٩٣٥؛ توماس ارنولد، تراث الاسلام، ص١٢١.

(٢) في الحقيقة أن اللقاء تم في أحد مناطق الصين، وليس في العاصمة قراقورم كما تذكر وود، وكما هو معلوم في تلك الفترة التي أعقبت وفاة منكوقاآن سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م المفاجئة أعلن اريق بوقا الشقيق الاصغر لقوبيلاي نفسه قاآناً على المغول دون أخذ الشرعية من مجلس امراء المغول (القوريلتاي) بينما رد قوبيلاي على تلك الخطوة بأعلان نفسه هو الاخر قاآناً من الصين، وقد حرم على الأخير دخول العاصمة قراقورم ، إلا بعد أعترافه بشرعية اريق بوقا وهو مالم يحصل لذا من غير المعقول أن يكون اللقاء قد تم في قراقورم، وانما في مكان ما في الصين حيث كان يقيم قوبيلاي ، وهذه واحدة من جملة أخطاء وقعت فيها الباحثة وود إذ أنها تصدت لدراسة رحلة ماركو بولو من دون أن يكون لديها أي تخصص بالدراسات المغولية، وتجهل الكثير من حوادثه المفصلية في حين أن تاريخ المغول يمتاز بالغموض في الكثير من القضايا حتى على المتخصصين فيه. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٧٥؛ رشيد الدين بن فضل الله، جامع التواريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٢٥ ومابعدها.

(٣) ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٢.

على أية حال فالذي نعرفه أن التاريخ البشري سجل نجاح بولو وأسرته في ابواب التجارة والسياسة، وفشلهم في المهمة الدينية التي تخص تنصير المغول وتحويلهم إلى العقيدة المسيحية، وتشير عدد من المصادر إلى أن تحديد العقيدة المسيحية الزواج بأمراة واحدة فقط من أهم اسباب فشل المبشرين المسيحيين في بلاد المغول وغيرها من الممالك التي ترى في تعدد الزوجات أمراً مباحاً الامر الذي يتعارض مع العقيدة الكاثوليكية ، ومع هذا يمكن القول أن الأسباب التجارية والدينية فضلاً عن حب السفر والترحال وروح المغامرة مجتمعة شكلت السمة البارزة والمميزة لشخصية ماركو وأسرته مع ترجيح العامل التجاري في سبب ذهابهم إلى بلاد المغول التي أسهمت بشكل كبير في وضعهم على طريق الشهرة [١].

رحلات اسرة بولو إلى بلاط المغول

تجمع المصادر إلى أن اسرة ماركو بولو قامت برحلتين صوب بلاط المغول إذ قام الشقيقان نيقولا وماتيو بولو بالرحلة الأولى، وهي زيارة غير متوقعة، حصلت بسبب أضطراب الأمن في القسطنطينية، حيث اتجها شرقاً حتى حطت بهما الاقدار في الصين ولم يكن يرافقهم ماركو في تلك الزيارة إذ كان طفلاً لم يتجاوز السادسة من عمره وقد دامت هذه الرحلة تسع سنوات تخللتها الاقامة في العديد من البلدان وللفترة الممتدة بين السنوات (٦٥٩ – ٦٦٨هـ/ ١٢٦٠-١٢٦٩م)، وكانوا قد التقوا خلالها قوبيلاي، ثم عادوا بعدها إلى البندقية كسفيرين مبعوثين من قبل الامبراطور إلى البابا كليمنت الرابع [٢] مع وعود في نشر المسيحية في تلك الربوع [٣].

---

(١) توماس ارنولد ، تراث الاسلام، ص١٢٢؛
John Masefield, Marco Polo's Silk Road, pp. ٩-١١.

(٢) كليمنت الرابع: وهو كبير الكنيسة الكاثولوكية الذي تولى منصب البابوية لمدة ثلاثة سنوات، وعاش بين (٥٩٧-٦٦٧هـ/ ١٢٠٠-١٢٦٨م) ، وكان له دوراً بارزاً في الحروب الصليبية. للمزيد من المعلومات انظر:
John Masefield, Marco Polo's Silk Road (London: ٢٠١١),P. ٢٧.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص١٥-١٦؛

أما الرحلة الثانية فقد أمتدت بين السنوات (٦٧٠-٦٩٥هـ/ ١٢٧١-١٢٩٥م)، وقد أصطحب الاخوين نيقولا وماتيو معهم في هذه الرحلة الابن ماركو الذي عاش خلاله هذا الرحالة سبعة عشر عاماً في بلاط المغول بين السنوات(٦٧٤-٦٩٢هـ/١٢٧٥-١٢٩٢م) ثم عاد ماركو في رحلة العودة الشاقة وشابها الكثير من الاخطار والمغامرات أستقر خلالها في العديد من المدن والبلدان التي أستغرقت ثلاث سنوات حيث وطئت إقدامه مدينة البندقية مجدداً في أواخر سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م [١].

وفي تفاصيل الرحلة الأولى التي قادت الاخوين نيقولا وماتيو إلى مقر أقامة قوبيلاي في أحد مناطق الصين [٢] وليس في عاصمة الامبراطورية المغولية قراقورم[٣]سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، توجد عدد من التكهنات والروايات حول الأسباب الحقيقية لتوجه الاخوين صوب بلاد المغول، إلا أن هناك رواية أسلفنا ذكرها تكاد تكون رسمية ومفادها أنه في أحدى الرحلات التجارية المعتادة التي قام بها الاخوين بين البندقية والقسطنطينية، وخلال أقامتهم في الأخيرة وقعت ازمة مالية فيها وغرقت في الديون، وأضطرب الامن نتيجة لتلك الازمة وغدت حياة التجار في

=Marco Polo, The travels of Marco Polo , pp.٧-٨؛ Robert Albion, Marco Polo, IN EI, Vol ١٤,P. ٤٩٧.

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص١٦؛ الصياد ، المغول في التاريخ، ص ٢٢٥.

(٢) التقى قوبيلاي الاخوين نيقولا وماتيو في الصين، وليس في العاصمة قراقورم التي كانت تحت قبضة الامير اريق بوقا الشقيق الاصغر لقوبيلاي، فبعد وفاة منكو قاآن سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) أستغل اريق بوقا أنشغال قوبيلاي بالفتوحات في الصين، وأعلن نفسه قاآناً على المغول، ومن جهة فإن قوبيلاي لم يعترف بسلطة شقيقه الاصغر لكونه لم يحصل على تأييد وأجماع مجلس القوريلتاي، وأعلن قوبيلاي نفسه هو الاخر قاآناً، وبقي الحال على ما هو عليه لمدة اربع سنوات قبل أن يتمكن قوبيلاي من الزحف بقواته نحو قراقورم، وهزيمة شقيقه الاصغر ووضعه في السجن حتى مات فيه. للمزيد من المعلومات انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، صص ٢٥٢-٢٥٣.

(٣) قراقورم: وهي العاصمة التاريخية للمغول، وقد أمر ببنائها جنكيزخان (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) وتعني باللغة التركية الرمل الاسود، إلا أنها فقدت أهميتها التاريخية بعد أن أقدم قوبيلاي قاآن على نقل العاصمة إلى خان باليق سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، وهي خطوة عدت تحولاً كبيراً على سمات الامبراطورية المغولية. للمزيد من المعلومات انظر: القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، ج٤، ص ٤٧٨؛ احمد فرطوس حيدر، الامبراطورية المغولية في عهد قوبيلاي قاآن، رسالة ماجستير غير منشورة(جامعة بغداد: كلية الاداب،٢٠١٣م)، ص ٩٨.

خطر بعد أنتشار اللصوص مما أضطر الاخوين نيقولا وماتيو إلى الفرار من المدينة [١] والاتجاه صوب مدينة سوداك [٢] عند شبه جزيرة القرم التي كانت تعد من أشهر المحطات التجارية في بلاد مغول القبجاق[٣]، وقد حاول الشقيقان العودة منها إلى مدينة البندقية لكن من دون جدوى لان الطريق البحري أصبح غير أمن وغدت الممرات المائية تعج باللصوص والقراصنة، وأصبح من المتعذر عليهم العودة إلى بلادهم في تلك الفترة، في حين كانت ظروف السفر نحو الشرق متاحة وأفضل بكثير من سابقتيها، فقد بسط المغول نفوذهم على معظم أجزاء آسيا فضلاً عن جزء كبير من أوربا[٤]، وعلى الرغم من أن المغول فرضوا سيطرتهم هذه بالحديد والنار، إلا أنهم في ذات الوقت نظموا التجارة في الأراضي التي خضعت لسلطتهم، ووفروا أجواء أمنة للقوافل التجارية مما شجع الأخوين الذهاب نحو الشرق، وقد وصلا إلى بلاد القبجاق والتقوا زعيمها بركة خان[٥] الذي أكرم وفادتهم ووفر لهم الحماية في الأراضي التابعة له حتى أن بركة أشترى منهم بعض الاحجار الكريمة بضعف ثمنها، وقد مكثوا في تلك البلاد ما يقرب من عام لكن مالبث أن اضطرب

(١)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, p.٣٦.

(٢) سوداك: وهي مدينة تقع على الساحل الشرقي لشبه جزيرة القرم، وكانت خاضعة لسلطة مغول القبجاق، وتقع حالياً في أوكرانيا. للمزيد انظر: القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشأ، ج٤، ص ٤٦٠؛ عبد الله ابراهيم، عالم القرون الوسطى (ابو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١م)، ص ٥٤١.

(٣) القبجاق: وهي أحد الخانيات الكبرى التي أقامها المغول عندما أقدم جنكيزخان على تقسيم أملاكه بين أبنائه سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، وتعرف ايضاً بأسم القبيلة الذهبية، وضمت مناطق واسعة الارجاء في آسيا وأوربا إذ أمتدت من نهر ارتش شرقاً إلى أرض البغار شرقاً ومن روسيا وبلاد الصقالبة شمالاً إلى حدود الدورة الايلخانية جنوباً. وللمزيد من المعلومات انظر: ابن الاثير الكامل في التاريخ ، ج١، صص، ٤١٦-٤١٨؛ محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبلية الذهبية والهند، ص ٥؛
Howorth, History of the Mongols, vol ٢, p.١٠٧.

(٤) Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, p.٣

(٥) بركة خان: وهو بركة بن جوجي بن جنكيزخان أول من اعتنق الاسلام من أفراد الاسرة الجنكيزخانية وتولى حكم بلاد القبجاق للفترة بين (٦٥٣-٦٦٥هـ/ ١٢٥٥-١٢٦٦م). للتفصيل أكثر عن سيرته انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، صص ١١٠-١١٢؛ بارتولد، بركة خان، دائرة المعارف الاسلامية، تحرير هوتسما واخرون، ترجمة، احمد الشنتاوي، ج٢، صص ٥٦٤-٥٦٨.

الامن ايضاً في هذه الخانية بسبب الصراع مع الدولة الايلخانية(١) وهجوم قوات تابعة لهولاكو عليها إذ أصبحت حياة الاجانب معرضة للخطر لاسيما التجار منهم، فقرر الاخوين نيقولا وماتيو المغادرة بأتجاه مدينة بخارى(٢)، وبعد فترة من الاستقرار فيها تشير المصادر إلى أنهم التقوا بمبعوث هولاكو في هذه المدينة الذي كان في طريقه للقاء قوبيلاي الذي شجعهم بدوره للذهاب إلى الصين ولقاء القآن، وبناءاً على ذلك قرروا الذهاب إلى الصين(٣)، وبعد رحلة شاقة شابها الكثير من الاخطار عبروا صحراء غوبي(٤)حتى وجدوا أنفسهم بمعسكر الاردو الخاص بقوبيلاي وعدوا من أوائل اللاتين الذين وطئوا بلاط المغول، حيث أستقبلهم قوبيلاي، وبعد أن ساد الود بين الاخوين مع قوبيلاي(٥)، لاسيما بعد أجادتهم اللغة المغولية في أثناء أقامتهم في بلاد القبجاق، ومما دار الحديث فيه مع قوبيلاي عن الجزء الاخر من العالم ، وعن الديانة المسيحية أنتهز الاخوين الفرصة وعرضا على قوبيلاي أعتناق المسيحية، ويمكن القول أن الفكرة أستهوت قوبيلاي ، وبعد أستشارة المقربين منه قرر أستخدام الاخوين كسفيرين إلى البابا، وامر أن يكتب بأسمه إلى بابا روما آنذاك كليمنت الرابع مع بعض الهدايا، كما جرت العادة التي

---

(١) وقعت الحرب بين الدولة الايلخانية وخانية القبجاق بعد وفاة منكوقاان سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م وحصول فراغ في منصب القاآنية، فبينما وقفت الدولة الايلخانية بزعامة هولاكو إلى جانب قوبيلاي، وقف بركة خان زعيم القبجاق إلى جانب اريق بوقا الشقيق الاصغر لقوبيلاي ومنافسه، أضافة للعداء السابق نتيجة الخطوة التي أقدم عليها بركة خان بأعتناقه الاسلام. للمزيد انظر: الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص ٢١؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ١٧٩؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص ٤٥٠.

(٢) بخارى: وهي من أعظم مدن ماوراء النهر، وعلى مسافة يومين من نهر جيحون. للمزيد انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٣٥٣.

(٣) Marco Polo, The travels of Marco Polo , p. ٤.

(٤) صحراء غوبي: وهي أحد اكبر الصحاري في العالم، وتقع في الجزء الجنوبي من منغوليا. للمزيد انظر: القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص٤٤؛ وانظر ارمينوس فامبري، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة احمد محمود الساداتي، ط٢ (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٧م) ، ص ١٦١؛
Marco Polo ,Il Milione, P. ٣٦.

(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٠.

يتم أرسالها مع السفراء مع بعض الحرس لحماية القافلة [١]، من جانبهم عد الاخوين أن تكليفهما بهذه المهمة شرف قد حظيا به لاسيما أن الأمر يتعلق بخدمة الرب يسوع من خلال محاولة تنصير المغول، واكتساب قوة لا يستهان بها آنذاك إلى جانب المسيحية [٢] ثم أنطلقت القافلة التي أقلتهما صوب الأراضي الايطالية ، وبعد صعوبات جمة وصلوا إلى مدينة عكا [٣]، وقد قصدوا ممثل البابا في تلك المدينة لأطلاعه على مهمتهم الدينية التي جاءوا من أجلها الذي رحب بهم، ووعدهم ببذل ما يستطيع من أجل انجاز هذه المهمة الدينية، ولكن في هذه الاثناء ورد لهم خبر وفاة البابا كليمنت الرابع، فنصحهم ممثل البابا بالانتظار ريثما يتم أنتخاب بابا جديد، عادوا بعدها إلى مدينتهم البندقية، وكان ذلك في عام ٦٨٨هـ/ ١٢٦٩م وبذلك أنتهت الرحلة الأولى التي قامت بها اسرة بولو مع وعد بالعودة إلى الصين عند أختيار الكرادلة البابا الجديد ليتسنى تنفيذ مهمتهم الدينية [٤].

أما الرحلة الثانية التي تمت بعد أنتخاب البابا الجديد غريغوري العاشر عزم الاخوين نيقولا وماتيو تنفيذ المهمة الدينية وعملهم كسفيرين من قبل قوبيلاي إلى البابا الجديد، وكان برفقة الاخوين هذه المرة الصبي ماركو ابن نيقولا الذي أشتهر بأسم ماركو بولو، وبعد لقاء البابا الجديد غريغوري العاشر وأطلاعه على مهمتهم الدينية التي كلفهم بها قوبيلاي[٥] غادر أفراد اسرة بولو البندقية أواخر سنة ٦٧٠هـ/

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛ ولز، معالم تاريخ الانسانية، ج٣، صص ٩٣٤- ٩٣٥.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛
Henri Cordier, Marco Polo,INEB, vol. ١٨, pp. ١٧٤-١٧٥.

(٣)عكا : وهي مدينة قديمة أسسها الكنعانيون في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد دخلها المسلمون سنة ١٥ هـ/ ٦٣٦م بقيادة شربيل بن حسنة ، وهي مدينة حصينة وتشتهر بزراعة الزيتون. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، صص ١٤٣-١٤٤.

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٣٨ ؛ أودوريك دوبوردنون، مشاهدات أودوريك دوبوردنون الفرنسيكاني في الصين، ص ٩.

(٥)غريغوري العاشر: وهو كبير الكنيسة الكاثوليكية في العالم المسيحي الذي تولى منصب البابوية بين السنوات (٦٧٠-٦٧٥هـ/ ١٢٧١-١٢٧٦م) بعد أن بقي المنصب شاغراً لمدة ثلاث سنوات عقب وفاة الباب كليمنت الرابع ، وهي أطول فترة بقي فيها المنصب شاغراً في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية بسبب مطالبة كل من الايطاليين والفرنسيين بأن يكون البابا الجديد من أبناء جلدتهم. للمزيد من المعلومات انظر:

١٢٧١م وامضوا رحلة شاقة دامت لأكثر من ثلاث سنوات ونصف تخللتها مصاعب عديدة واستقروا فيها بعض الوقت في مدينة عكا وتزودوا بالزيت المقدس من كنيسة المهد الذي كان قد طلبه منهم قوبيلاي، ثم حط بهم الرحال في الصين سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م[١]، وعند وصولهم أستقبلهم قوبيلاي قاآن الذي لاحظ وجود صبي معهم فأستفسر عمن يكون فأجابه نيقولا " أنه ماركو خادمك وأبني" فرحب به القاآن وضمه إلى قائمة الشرف السلطانية ، بوصول ماركو بولو إلى بلاط المغول حيث بدأ فصل جديد في علاقة اسرة بولو مع المغول نظراً للمكانة التي كان قد حصل عليها والتي فاقت المكانة التي حصل عليها والده وعمه معاً فقد توسم القاآن بماركو النبوغ والعبقرية ولمس فيه الوفاء والإخلاص، حتى أتخذه مستشاراً لمدة سبعة عشر عاماً بين السنوات (٦٧٤-٦٩٢هـ/ ١٢٧٥-١٢٩٢م) وقد عاد ماركو الى مدينة البندقية في سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م بعد رحلة أستمرت ثلاث سنوات في طريق عودته ، وبذلك أنتهت الرحلة الثانية للعائلة توفي بعدها قوبيلاي وأستقر ماركو في مدينة البندقية، لكن الفترة التي قضاها ماركو في الصين كانت كافية لينقل لنا الوجه الاخر للمغول وعاداتهم بحكم تجاربه ومشاهداته الشخصية في بلاط المغول [٢].

تعيين ماركو بولو حاكما على أقليم هانزو (Hangzhou)

بعد أن وصل ماركو بولو إلى بلاط قوبيلاي قاآن في الصين سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، فتن القاآن به، بعد أن أخذ ماركو يقص عليه رحلاته ومشاهداته، وقد أزدادت تلك المكانة بمرور الوقت ولاسيما بعد تعلم ماركو أوليات اللغة الصينية بعد أن كان قد تعلم اللغة المغولية في أثناء أقامته في بلاد القبجاق، وأخذ ماركو يتدرج

=Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice toXanadu, p٥٢.

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٦.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٧؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٢٥. وللمزيد عن الطرق التي سلكها ماركو بولو في رحلة الذهاب والعودة انظر ملحق رقم (١).

في مراتب الدولة شيئاً فشيئاً حتى أرتقى إلى أحد افراد حاشية السلطان الخاصة، وأصبح أنيساً ومستشاراً ومخمناً للضرائب في مدينة كين ساي ومبعوثاً خاصاً لأمبراطورية المغول إلى العديد من الاقاليم داخل وخارج الامبراطورية (١).

وفي سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م أدعى ماركو بولو ان القآن أصدر قرار بتعينه حاكماً على أقليم هانزو(٢) الواقع على الساحل الشرقي للصين حيث تولى الحكم فيه لثلاث سنوات ما بين (٦٨١ – ٦٨٤هـ/ ١٢٨٢-١٢٨٥م) ومع أن بعض المؤرخين أختلفوا في صحة تعينه حاكماًعلى هذا الاقليم ، وفرقوا بين تعينه حاكماً هناك وبين أقامته في هذا الاقليم ، وتعتبر الباحثة فرنسس وود أن الزج بأسم ماركو بولو لا يعد كونه ناتج سوى عن قراءة خاطئة لأحد النصوص في المخطوطة الاصلية ، وأن ماركو بولو قصد أنه مكث في الاقليم لمدة ثلاث سنوات ولم يكن حاكماً لها ، ونتيجة لهذا الخطا في النسخة الاصلية جرى نسخ هذه الكلمة على أنه حكم هذا الاقليم وليس أقام به ، وفي الواقع أن هذه الرواية تحظى بالقبول لاسيما أن المتتبع لنصوص ماركو بولو يلاحظ أنه يسهب في وصف الاقليم من دون أي رواية أو معلومة عن عمله كحاكم لهذا الاقليم ، وهو مايرجح فرضية أنه مكث في هذا الاقليم من دون حكمه(٣)، كما أن الباحثة وود شككت على ماركو ايضاً عدم وجود أسم صريح له في السجلات الصينية التابعة لهذا الاقليم غير أن عدد من المختصين بتاريخ أسرة اليوان(٤) يرون أن تولي ماركو بولو هذا المنصب يعد امراً طبيعيا ولاسيما أن

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ١٦؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٢؛ الصياد، المغول في التاريخ ، ص ٢٢٥ .

(٢) هانزو: وهو أقليم يقع على الساحل الشرقي للصين، ويضم أربع وعشرين مدينة تتبع ادارياً له ، وفيها مركز تجاري كبير. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٥٦؛ أودوريك دوبوردنون ، مشاهدات أودوريك دوبردنون الفرينسكاني في الصين، ص ١٠؛ بدر الدين الصيني، العلاقات بين العرب والصين، ، ص ١٣٧.

(٣) فرنسس وود ، ماركو بولو هل وصل الصين ، ص ١٨٤ ؛
Tim Mcneese , Marco polo and the Realm of Kublai Khan,p. ١٢٦ ؛
Morris Russabi,kubilai khan, (California, ١٩٨٨), p. ٦٩.

(٤)اسرة اليوان : وهي الاسرة الحاكمة في الصين والتي أنشائها قوبيلاي قآن ابتداءاً من سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م بعد أن أحكم سيطرته على معظم أراضي البلاد ، واعلن نفسه قآناً على الصين والمغول وماجاورهما ، كما أتخذ من خان باليق عاصمة له بدل قراقورم ، وعدت

الكثير من الاجانب كالفرس والاتراك وغيرهم خدموا في تلك الحقبة كأفراد في بلاط تلك الاسرة، وأن عدم الأشارة لأسم صريح لماركو بولو ناتج عن كونه ليس فرداً صينياً كحال الوزراء الفرس والاتراك ممن تجاهلت السجلات الصينية الاشارة لهم، وقد دونت أسمائهم على شكل رموز من دون وجود ذكر صريح لتسمياتهم(١) .

عودة ماركو بولو إلى مدينة البندقية في سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م

بعد أن مكث ما يقرب من سبعة عشر عاماً في بلاط المغول وفروعها نال خلالها حظوة كبيرة لدى القاآن المغول قوبيلاي ، وحاشيته الخواص، وتوليه عدد من المناصب، شعر ماركو بالحنين إلى مدينته البندقية، وقرر العودة إليها، وقد أبلغ قوبيلاي برغبته تلك، إلا أن القاآن رفض ذلك بشدة في أول الأمر غير أن اصرار ماركو على العودة وعدم تراجعه عن السفر جعل القاآن يسمح له بالمغادرة في النهاية بعد أن أغدق عليه بالكثير من الهدايا (٢)، وفي الوقت نفسه وضع قوبيلاي قاآن تحت تصرفه عدد من الرجال لحماية السفن (٣)خلال مروره في الأراضي التابعة للأمبراطورية، وبعد أن ودع ماركو بولو القآن وعدد من الاصدقاء شرع

=هذه الخطوة نقطة تحول في النظام السياسي المغولي والاسرة الجنكيزخانية ككل ، حيث أصبحت ذات طابع صيني أكثر منه مغولي تميز بالحضارة والتمدن ، وشكل بداية لأندماج المغول في الحضارة الصينية العريقة والذوبان فيها بخلاف ماعرف عنهم بالقساوة والقتل والهمجية. للمزيد من المعلومات انظر: أحمد فرطوس حيدر ، الامبراطورية المغولية في عهد قوبيلاي قآن ، ص ٩٢.

(١) Hans Ulirch Vogol,Marco Polo was in China(Denvers:٢٠١٣),p.٣٦٢.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ٢٩؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١١٥؛ تشير بعض المصادر إلى أن قوبيلاي قآن رفض طلب ماركو بولو بالعودة إلى موطنه ليس لأنه محل ثقة عند القآن، وجعله يتبوأ أعلى المناصب فحسب بل لكونه أصبح صديقاً مقرباً وانيسا له مما جعله يرفض طلبه بالمغادرة في بادىء الأمر إلا أنه استكان لرغبته وحنينه إلى بلده في النهاية. للمزيد انظر: الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٢٥.

(٣) لم تشر المصادر إلى عدد تلك السفن، واكتفت بالقول بأنها عدد محدود من السفن الصغيرة نسبياً، كما أرسل معه أميرة مغولية شابة كهدية إلى ارغون خان (٦٨٣-٦٩٠ه/١٢٨٤-١٢٩١م) ليسلمها له عند وصوله إلى الدولة الايلخانية. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١،ص٤٥؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١١٦-١١٧.

بالعودة إلى البنــدقية وكــان ذلــك في عام فـــي عــام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م ، وتشير المصادر إلى أن السفن أقلعت من ميناء الزيتون(١)، شرقي الصين ، وأتجهوا منها إلى كمبوديا (٢)، حتى وصلت إلى سومطرة قبل أن تتوقف فيها لمدة ما يقرب خمسة أشهر بسبب هبوب الرياح الموسمية فضلاً عن معلومات بأنتشار قطاع الطرق واللصوص فيها قبل عبورهم هذه الجزيرة ، وبعد أن توقفت الرياح توجه ماركو بولو نحو جزيرة سيلان (٣)، والاقامة فيها عدة أيام ثم توجهوا إلى سواحل الهند الشرقية حتى وصلوا إلى مدينة عدن(٤)، ثم حط بها الترحال بعد ذلك في بلاد فارس حيث عبروا مضيق هرمز حتى وصلوا إلى أراضي الدولة الايلخانية(٥)،وبعد الاقامة في أراضيها عدد من الايام الذين وجدوا فيها كثير من الترحاب بوصفهم سفراء من القآنية في الصين، رحلوا بعدها صوب أرمينية حتى وصلوا إلى مدينة طرابزون (٦)، على شاطي البحر الاسود ثم ساروا إلى القسطنطينية فسلكوا البحر إلى مدينتهم البندقية، وكان ذلك أواخر سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م في رحلة أثارت الكثير

(١) الزيتون: وهي مدينة تقع شرق الصين، وفيها ميناء كبير لرسو السفن، ويطلق عليها صينيين تسمية (شي تون) وقال عنها الرحالة ابن بطوطة لا يوجد فيها زيتون ولكن هو أسم وضع لها، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ج٢، ص ٤٧٧.

(٢) كمبوديا: وهي دولة تقع في جنوب شرق آسيا، وتمتاز بأرضها السهلية، وفيها عدة أنهار كما لها علاقات تجارية واسعة مع الصين. للمزيد انظر: محمد ناصر العبودي، المسلمون في لاوس وكمبوديا (مكة: رابطة العالم الاسلامي، ١٤١٦هـ)، ص ٩٩.

(٣) سيلان: وهي جزيرة تقع في شمال المحيط الهندي، ويحدها من الجنوب الهند، وتعرف حالياً بـ (سريلانكا). للمزيد انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٢٩٨؛ Tim Mcneese , Marco polo and the Realm of Kublai Khan , p. ١٣١ .

(٤) عدن: وهي أحد أقدم المدن اليمنية، وتشتهر منذ القدم في التجارة، وفيها ميناء كبير لرسو السفن . للمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٤، ص ٨٩.

(٥) الدولة الايلخانية: وهي الدولة التي أسسها هولاكو على انقاض الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وضمت ولايات واسعة الارجاء، وأتخذ من مراغة عاصمة لها، ودامت نحو ثمانون سنة. للمزيد انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان ، ص ١٣٤.

(٦) طرابزون: وهي أحد مدن بلاد الاناضول المطلة على البحر الاسود، وتقع شمال شرق تركيا، وفيها ميناء تجاري كبير، وأشتهرت بتجارتها مع بلاد فارس. للمزيد انظر: Phical Topogra, The Modern traveler, (London: ١٩٢٤), vol ٢, p. ٩٢.

من الجدل والتشكيك والاعجاب حول مروياته ومغامراته التي لم تنقطع اخبارها إلى يومنا هذا (١).

وقوع ماركو بولو في الاسر

بعد أن عاد ماركو بولو إلى مدينة البندقية سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م، وجد أبناء المدينة في صراع دام مع غرمائهم من أهل جنوة(٢)، وكغيره من أبناء جلدته سرعان ما أنخرط في هذا الصراع (٣)، وفي سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م سار ماركو بولو ضمن قافلة بحرية تجارية تضم العديد من تجار البندقية وهم في طريقهم إلى القسطنطينية، لكن الجنويين أعترضهم بأسطول كبير عند مدينة كرزولا، ودارت بينهم معركة دامية عرفت بأسم معركة كرزولا(٤)، وقع فيها ماركو مع عدد كبير من البنادقة في الاسر، وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها أسرته للأفراج عنه مقابل فدية تقدم للقادة الجنويين ، إلا أن محاولتهم هذه بأت بالفشل (٥)، وتذكر المصادر أن ماركو عانى كثيراً من ضنك العيش في السجن من جراء رداءة الطعام وسوء المعاملة من قبل الجنويين بعد أن عاش حياة الترف والرفاهية كتاجر بندقي، ومن ثم

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ٣٠؛ شوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب، ١٩٩٠م)، صص ٣٠-٣١.

(٢) جنوة: وهي مدينة تقع شمال ايطاليا، أشتهرت بقصورها الفخمة، ومبانيها الأثرية، وفيها ميناء تجاري كبير. للمزيد انظر:
John Martin and Dennis Romano, Venice, (London: ٢٠٠٠), p. ١.

(٣) وهي واحدة من سلسلة حروب أندلعت بين سكان البندقية وجنوة للسيطرة على التجارة في البحر المتوسط لاسيما البضائع القادمة من الشرق كالتوابل والحرير، حيث وقعت الحروب بين السنوات (٦٩٤-٦٩٩هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٩م) ، وأنتهت بموجب معاهدة سلام بين الطرفين، وتم أطلاق سراح الاسرى كان من بينهم ماركو بولو نفسه. للمزيد انظر: ريشارد ، ماركو بولو، مغامراته واستكشافاته، ص ١٢١؛
Stephen. Haw, Marco Polo's China, p. ٤٠.

(٤) معركة كرزولا : وهي معركة بحرية وقعت في ٩ ايلول من سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م بين الاسطولين البندقي والجنوي، وقد حقق فيها الجنويين انتصاراً ساحقاً على البنادقة وقتل واسر فيهاعدد كبير من الطرفين غالبيتهم من البنادقة ، فضلاً عن تدمير أكثر من ثمانين سفينة من أسطول البندقية . للمزيد انظر:
Stephen Haw, Marco Polo's China, p. ٤١.

(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ١٨؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٢١.

المكانة المرموقة التي وصلها عند قاآن المغول [1]، غير أن المؤرخون أختلفوا حول المدة التي بقي فيها ماركو بولو في الاسر التي تقدر بين سنة واحدة وثلاث سنوات ، مع أننا نرجح أنه لم يبق في الاسر سوى سنة واحدة لما تجمع عليه المصادر من أن معركة كرزولا وقعت سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م وأنتهت سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م أي اطلق سراحه بعد سنة واحدة من أسره بموجب معاهدة سلام بين البندقية وجنوة في السنة أنفة الذكر حيث تبادل الطرفين على أثرها اطلاق سراح الاسرى ، مما يعني أن ماركو بقي سنة واحدة في الاسر[2]، لكن من حسن حظ هذا الرحالة البندقي أنها كانت الفرصة الافضل في حياته لاذاعة صيته وشهرته بين المؤرخين إذ خلده التاريخ في تلك السنة حيث التقى في الاسر الشاعر البندقي روستيشلو[3]، الذي قام بتدوين رحلات ماركو بعد أن رددها له ماركو شفاها وهو يقبع في السجن وقام روستيشلو بتدوينها.[4]

وفاة ماركو بولو

بعد أن اطلق سراح ماركو بولو من الاسر في سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م بموجب معاهدة السلام التي عقدت بين البندقية وأهل جنوة تزوج ماركو بولو من دوناتا باودر سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، وأستقراره في مدينة البندقية، لم تشر المصادر إلى

(١)Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm Of Kublai Khan, P.٨.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ١٨؛ ريشارد،ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٢٢.

(٣) روستيشلو: وهو شاعر الرومانسيات الايطالي الذي عاش بين السنين (٦٧١-٧٠٠هـ/ ١٢٧٢- ١٣٠٠م)، وهو من البنادقة الذين رافقوا ماركو بولو في الاسر، وقام بكتابة رحلات ماركو بعد أن أملى عليه ماركو رحلاته ومغامراته، ويعتقد أن روستيشلو أضفى على الرحلة الطابع الرومانسي، ولروستيشلو رواية مشهورة عن الملك الاسطوري أرثر، كما عرف عنه بموهبة في الكتابة والسرعة في النسخ. للمزيد انظر:
Stephen. Haw, Marco Polo's China, p. ٤١;Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P.١٣٤.

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ٢٥؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٢٢.

قيامه بأي دور كبير بعد عودته سوى إدارته لثروته الكبيرة في البندقية، والقيام بالاعمال التجارية انطلاقاً من أروقة مدينته البندقية (١).

وفي سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م مرض ماركو بولو مرضاً شديداً، وأصبح طريح الفراش، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الاطباء لعلاجه إلا أن ماركو توفي سنة ٧٢٥هـ/ وهو ما يصادف ٨ كانون الثاني ١٣٢٤م (٢) بعد أن عاش ٧٠ عاماً (٣)، ولم تشر المصادر صراحة إلى طبيعة مرضه الذي كان سبب وفاته، إلا أنها كانت وفاة طبيعية على ما يبدو نتيجة التقدم في السن نسبياً واعتلال صحته أثر الرحلات الطويلة التي قام بها (٤).

ويلاحظ أن ماركو بولو ترك في وصيته نقل جزءاً من أملاكه إلى الكنيسة الكاثوليكية التي ينتمي اليها، في حين ذهب الجزء الاكبر من ثروته إلى أسرته، كما أوصى أن يدفن في كنيسة سان لورنزو في البندقية، وبموجب هذه الوصية كذلك حرر عبداً مغولياً كان يرافقه في رحلته من الصين على أن يقوم الكاهن جيوفاني جويستينياني من كنيسة سان لورنزو بتنفيذ الوصية لتأخذ طريقها القانوني (٥).

---

(١) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ١٢٢؛
Stephen. Haw, Marco Polo's China, p. ٤١.

(٢) بعض المصادر تشير إلى أن الوفاة حدثت يوم ٩ وليس ٨ يناير وذلك لان الوفاة حدثت بعد غروب الشمس، وطبقاً لقوانين البندقية فإن اليوم الجديد يبدأ بعد غروب الشمس. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ١٩؛
Kathleen Mcfarren, Marco Polo, p. ٢٤.

(٣) لين سابل ، ١٠٠٠ حدث عظيم، ص ١٠٧؛
Henri Cordier, Marco Polo,IN EB, p. ١٧٤.

(٤) Hildegard Blunck, Marco Polo the Great and Adventurer (London: ١٩٦٧), p. ٢١٤؛ khathleen Mcfarren, Marco polo, p. ٢٤.

(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ١٩؛
Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, pp. ١٣٦-١٣٧.

أراء المؤرخين حول سيرة وشخصية ماركو بولو

أختلفت آراء المؤرخين والباحثين في تقويمهم لشخصية الرحالة البندقي ماركو بولو ما بين من تبنى آراءه وأصر على مصداقيته، وما بين من شكك في رحلاته ودلالاتها إلا أن مرويات ماركو بولو حظيت ونالت الثقة من أهل التخصص بمرور الوقت تدريجياً بعدما تأكد مصداقيتها ولاسيما بين أوساط البلدانيين، وأجماع جل المصادر المغولية والفارسية لمعظم ماورد في هذه الرحلة من معلومات، فقد حظيت بثقة مؤرخي المغول، ومالوا إلى تصديقها، وأعتمدوا عليها بشكل رئيس في وقائعهم، وفي هذا السياق يمكن القول أن مرويات ماركو بولو تبدو سليمة ذات مصداقية لأغلب المؤرخين والباحثين وأن شابها بعض المبالغات في النقل والاقتباس، وهي ميزة ربما يشترك في طبيعتها أغلب الرحالة الذين طالما عمدوا إلى تضخم روايتهم وتمجيد اعمالهم بالأخبار المنقولة ، وسنحاول أن نسرد أهم الاراء التي طالت عمل هذا الرحالة .

وأول هؤلاء المؤرخين هو فؤاد عبد المعطي الصياد المتخصص في تاريخ المغول الذي وصف ماركو بولو بالشاب البندقي الذي أعجب به امبراطور المغول قوبيلاي قآن، وتوطدت بينهما علاقة صداقة ومحبة لا تبارى ، وقد توسم قوبيلاي فيه العبقرية والنبوغ ولمس فيه الاخلاص والوفاء حتى أتخذه مستشاراً وانيساً له[١]، ثم يطري الصياد على كتابه الرحلات بقوله " وفيه مادة خصبة، ومصدراً هاماً من مصادر الدراسة للعصر المغولي، إذ نجد فيها وصفاً لكل البلاد التي زارها، ورأها رأي العين تفاصيل قيمة عن تلك البلدان وثرواتها، ونحصل فيها على معلومات وافية تتعلق بعادات المغول وتقاليدهم ونظمهم [٢].

ويختم الصياد حديثه عن ماركو قوله أن كتابه أرتقى بمرور الايام وتغير الزمان وارتقت معلوماته الجغرافية، وكثر أعتماد الناس عليها وزاد الاطمئنان إليها، حيث أن ماركو خرج من حيز التفكير إلى حيز التنفيذ حيث رسم رحلاته على شكل

(١) المغول في التاريخ ، ص ٢٢٥
(٢) المرجع نفسه،ص ٢٢٦.

خريطة، وكانت دافعاً ومحرك لكريستوفر كولمبس لكي يجوب عباب البحر والمحيطات التي أثمرت في النهاية عن أكتشاف العالم الجديد أو مايعرف بامريكا(١).

في حين يصف ريشارد (Richard) الرحالة البندقي بقوله " أن لما ذكره ماركو بولو أثر في أكتشاف امريكا إذ أن كريستوفر كولمبس قد أطلع على كتابه وتزود بخرائطه وأهتم بها لتنفيذ اكتشافاته المستقبلية " (٢) فيما يرى الباحث لورنس بيركرين (Laurence Bergreen) كاتب سيرته الذاتية " أن ماركو بولو تعرض إلى الاحتقار والتجاهل من قبل معاصريه بسبب الغيرة أو المفخرة التي نالها ولكن في النهاية هو من صنع التاريخ" (٣)

ويصف الاستاذ عباس العزاوي أن ماركو بولو صاحب الفضل في نقل صورة عن حياة الامة المغولية في ربوعها ، ووصف تياراتهم السياسية وسائر أحوالهم الاجتماعية في الوقت الذي لم تكن امةً المغول منصرفة إلى الرغبة في التدوين عن حياة الأمة المغولية ، وأحوالهم العامة ، وهي رحلة لا تنكر بل تدعو إلى الالتفاف الكبير حول معلوماتها"(٤)، بينما يصف المستشرق كي لسترنج (Guy Lestrange) كتاب ماركو بولو بقوله" يعد هذا المصنف من أثمن المصادر في القرن الثالث عشر الميلادي"(٥) فيما يعد الباحث ويلز(Wells) مصنف ماركو بولو بقوله" من أعظم كتب التاريخ البلداني، فهو يفتح امام خيالنا نتاج عالم القرن الثالث عشر ، وينقلها بصورة لايبلغها أي تدوين تاريخي سطره مؤرخ في تلك الحقبة"(٦)في حين يطري الباحث بيير جوردا(Pierre Jorda) على رحلات ماركو بولو بقوله " أن رحلات ماركو بولو في القرن الثالث عشر الميلادي كانت نوعاً من كشف المجاهل التي أحاطت أوربا في ذلك الزمان، وساهمت في ازالة بعض عوائق

(١) المغول في التاريخ،ص٢٢٧.
(٢)ماركو بولو مغامراته واستكشافاته،ص١١.
(٣)Marco Polo from venice to xanadu,p٤٣٩
(٤)التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان،ص١٧٢
(٥)بلدان الخلافة الشرقية،ترجمة بشير فرنسس وكوركيس عواد(بغداد:مطبعة الرابطة،١٩٥٤م)،ص ٢١.
(٦) معالم تاريخ الانسانية،صص٩٣٥-٩٣٦

الفهم والتفسير الخاطى للثقافات التي أنكرتها أوربا والتي وسمتها بالبربرية ، ولم تجد فيها سوى شعوب تحمل الذعر أينما حلت"(١).

ويذكر أحد كتاب السيرة الذاتية لماركو بولو وهو تيم مكنيس (Tim Mcneese) الرحالة البندقي بقوله " يعد ماركو بولو واحد من أعظم الرحالة في العصور الوسطى فقد خرج عن المالوف ونقل صورة غريبة جداً للأوربيين ، كما أنه شجع مغامرين اخرين أمثال كريستوفر كولمبس للقيام بمثله"(٢).

ويعلق الباحث حسين محمد فهيم عن رحلات ماركو بولو فيقول "لقد أكتشف بولو عالماً جديداً يختلف تمام الاختلاف عن العالم الذي عاش فيه في أوربا، ورأى أشياء لم يكن يحلم برؤيتها، حيث رأى كحضارة الأوربيين، بل ربما تزيد عليهم ، ورأى في الصين شعباً يستعمل الورق النقدي ، ويبني المباني الرائعة"(٣).

وفي المقابل كانت هناك عدد من الأراء التي تفند روايات ماركو بولو، وتنفي أن يكون هذا المغامر قد وصل للصين ، ولعل أهم تلك الأراء ماكتبته الباحثة الانكليزية فرنسس وود التي تتهم الرحالة البندقي بالكذب وأنه لم يصل حقيقة ارض الصين(٤)، بينما يتهم المؤرخين العراقيين على نحو مصطفى جواد، واحمد سوسة ماركو بولو بالتعصب والانحياز للمسيحية على حساب المسلمين(٥)

---

(١) رحلة الى الشرق،ص١٠
(٢)Marco Polo and the Realm of Kublai Khan,pp.١٣-١٥.
(٣) ادب الرحلات،ص٢١.
(٤) ماركو بولو هل وصل الصين ، ص ٢٢٩ ومابعدها.
(٥) دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً ، ط٢(بغداد: مطبعة الكتاب، ٢٠١٠م) ، ص ٢٠٥

الفصل الثانــي

مرويات ماركو بولو عن ألاحوال الاجتماعية عند المغول (وصف تحليلي بين عادات المغول الاجتماعية الاصيلة والشعوب المغلوبة)

الفصل الثاني

أثر قوانين الياسا الجنكيزخانية في الحياة الاجتماعية عند المغول

لم يعرف عن المغول وضعهم لأي قوانين واضحة المعالم تنظم حياتهم وأحوالهم الاجتماعية قبل بزوغ شخصية جنكيزخان على زعامة المغول سوى بعض العادات المتوارثة التي كان يتحكم فيها رئيس القبيلة المغولية في الغالب طبقاً للتقاليد البدوية السائدة في مدنهم الرعوية، والمغول كغيرهم من المجتمعات الرعوية التي كانت تعيش في مناطق السهوب، فقد كانت قضايا مثل السرقة والقتل وما إلى ذلك تحل داخل أطر القبائل فيما بينها، وفي الكثير من الاحيان تلجأ بعض القبائل الصغيرة إلى الاتحاد مع القبائل الكبيرة طلباً للحماية في حال أن عجز رئيسها عن توفير الحماية اللازمة لإفرادها [١]، على الرغم من المحاولات التي قامت بها عدد من القبائل المغولية المتنافسة في تحقيق تلك المهمة مثل قبيلة قيات [٢] ،كبرى القبائل المغولية لفرض سطوتها على أراضي منغوليا، إلا إن جهودها تلك لم تفلح في بسط نفوذها على عموم القبائل الأخرى إلا عندما تولى جنكيزخان زعامة تلك القبيلة غير واقع الحال في البلاد ولو بعد حين، فقد أظهر جنكيزخان حقيقة مقدرة فائقة في التعامل مع تلك الظروف، وبدأ بخطوات جادة في سبيل تحقيق زعامته ففي البداية قام بتصفية خصومه ومعارضيه داخل قبيلة قيات نفسها أولاً، وبعد نجاحه في هذا المسعى قام باخضاع بقية القبائل المغولية الواحدة تلو الأخرى بعنف وأقتدار شديدين، وقد وفرت تلك الانتصارات المتلاحقة والفريدة من نوعها الفرصة لرجل

---

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، صص ٦١-٦٢؛ وانظر ايضاً اسماعيل عبد العزيز الخالدي، العالم الاسلامي والغزو المغولي، ط١ (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٤م)، صص ٢٩-٣٠؛
The secret History of the Mongols,translated Urgunge Onon , pp ١-٤ .

(٢) قيات: وهي من أكبر القبائل المغولية، وأكثرها أصالة في المجتمع المغولي، وكانت مقدمة على جميع القبائل المغولية، وقد برز دور أسرة جنكيزخان في تلك القبلية بعد أن تزعم والد جنكيزخان يسوكاي هذه القبيلة. للمزيد من المعلومات عن القبائل المغولية. انظر: الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٦٩.

الحديد جنكيزخان أن يكون زعيماً لكل المغول عوضاً عن كونه زعيماً محلياً لقبيلة قيات ذاتها، فغدت منغوليا بأسرها لأول مرة تحت قبضة رجل واحد هو جنكيزخان الذي اظهر حنكة سياسية ودهاء كبير في التعامل مع الواقع الجديد للبلاد فأنتهز تلك الانتصارات العسكرية بأقرار قوانين سياسية لمجتمعه المغولي وتثبيت شؤون حكمه(١)،

وقد دعا جنكيزخان في سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م إلى عقد مجلس القوريلتاي(٢)، الذي أقر بدوره قوانين الياسا الجنكيزخانية ، وهي قوانين صارمة خاصة بالمجتمع لأدارة البلاد، فقد توعدت بأنزال أشد العقوبات على المخالفين لهذه القوانين ، ويلاحظ أن معظم بنود الياسا نصت بصراحة ووضوح على قتل كل شخص لا يلتزم بها مهما كانت مكانته في المجتمع المغولي سواء كان ذلك الشخص أميراً في الأسرة الجنكيزخانية أو قائداً عسكرياً أو أي فرد من عامة المجتمع المغولي ككل ، فكان على الجميع تنفيذها بحذافيرها مهما كلف الحال (٣)، وقد أظهرت القبائل المغولية ورؤسائها مقدرة فائقة في مسايرة الوضع الجديد الذي جاء به جنكيزخان فقد تخلت القبائل عن جميع عصبياتها، ووجهت كل ما تملك من قسوة وشدة في دفع عمليات

---

(١) ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ٤٨؛
The secret History of the Mongols, pp. ٤-٦

(٢) القوريلتاي: وهو مجلس كبار الأمراء المغول الذي يعقد جلساته في العاصمة قراقورم، وتقام فيه مراسم تنصيب القآن الاعظم، كما تناقش فيه عدد من القضايا المهمة التي لا يستطيع القآن أن يفصل فيها لوحده، مثل تعبئة الجيوش والاستعداد للحرب، للمزيد من المعلومات انظر:
J.J.Saunders,The History of the Mongol Conquest (London, ١٩٧١),P.٢.

(٣) ابو عمرو منهاج الدين بن سراج الدين الجوزجاني (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)، طبقات ناصري، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣م)، ج٢، ص ١٦٦؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، صص٦٣-٦٥.

الغزو فقد أستلهمت هذه القبائل تلك القوانين متخذه من ثنائية الياسا ورمزية شخص جنكيزخان في محاولة أخضاع أكبر قدر ممكن من تلك البلدان[١].

أما فيما يخص الجوانب الاجتماعية فقد عملت عدد من بنود الياسا على تنظيم الحياة الاجتماعية بين القبائل تنظيماً محكماً يسير بموجبها الفرد المغولي بشكل واضح لا لبس فيه ، فمثلاً أوقعت الياسا عقوبة الموت على كل من أرتكب جريمة القتل أو السرقة والزنا واللواط وغيرها[٢]، ومن بين تلك البنود نورد نصاً يوضح تلك العقوبات القاسية التي تضمنتها "أن من زنا قتل، ومن لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن تجسس قتل، ومن وجد أسيراً هارباً ولم يرده قتل، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله بل اشترط شق صدره وأستخراج قلبه من جوفه أولاً"[٣]، وقد وضعت قوانين الياسا المغول والشعوب التي خضعت لهم ولاسيما في بدايات تأسيس الإمبراطورية المغولية في محنة كبيرة فقد أجبروا على تنفيذ بنود الياسا خوفاً من سياسة القتل والتنكيل التي تضمنتها بنود تلك القوانين [٤].

وفي المقابل نجد أن الكثير من النظم في الفترة التي عاصرها ماركو بولو وشاهد تفاصيلها تكاد تختلف أختلافاً كلياً عما تعود عليه المغول في مسايرتهم لقوانين الياسا ، فقد أثمرت توسعات المغول العسكرية عن ضم بلدان ذات حضارات عريقة كالصين الذين برعوا في أستخدام القوانين، والمهارة في النظم الادارية من خلال تعاقب السلالات الحاكمة منذ فجر التاريخ ، لذا ظل من العسير تطبيق تلك القوانين الصارمة بحذافيرها على الناس فقد تبنى المغول سياسة التمازج بين

---

(١) عباس اقبال ، تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية،ترجمة عبد الوهاب علوب(ابو ظبي: المجمع الثقافي،٢٠٠٠م) ص ١١٤؛
J.J. Saunders, The History of the Mongol Conquest , PP. ٢-٥.
(٢) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، صص ٦١-٦٥؛ فهمي، تاريخ الدورلة المغولية في ايران، ص ٣٤.
(٣) الخالدي، العالم الاسلامي والغزو المغولي، ص ٣٢.
(٤) هارولد لامب، جنكيزخان، ص ٥١؛ سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والايلخانيين، صص ٣٧-٣٨؛
The secret History of the Mongols, p.٥.

القوانين المغولية والقوانين الصينية وما شابهها، والحقيقة أن المغول كانوا مجبرين أحياناً على أستخدام القوانين المحلية لتلك الشعوب(١)، متبعين سياسة واقعيةواخذين بنظر الاعتبار أنهم مجرد أقلية مغولية في وسط محيط بشري هائل ولاسيما مع النموذج الصيني الذي عاصره ماركو بولو ايام قوبيلاي قآن ، وفي هذا المحتوى لم يعد من المقبول تنفيذ عقوبة القتل لمن يرتكب الزنا في مجتمع متحضر كالمجتمع الصيني بل ان كثير من الصينيين لا يجدون فيها جنحة أصلاً ولا تستوجب ذلك العقاب القاسي (٢).

وفيما يخص العدالة الاجتماعية فقد أحدث أنتقال المغول من منغوليا إلى الصين نقلة نوعية في السياسة المغولية، وتطوراً مهماً عما كانت عليه أحوالهم العرقية والاجتماعية في منغوليا فقد طبق المغول عدد من الأنظمة القضائية والقوانين الصينية التي لم يكن يسمح الحال بتنفيذها في الصين ، ويقول ماركو بولو في مروياته أنه بعد أن كان تنفيذ العقوبات على مرتكبي الجرائم يتم بشكل همجي بقطع الرأس وأطراف الجسم الأخرى ترك أداء تلك العقوبات إلى القضاء ليفصل فيها، وفي الوقت نفسه أستبدلت بعض جرائم القتل بتعويض مالي طالما يتم التوافق على ذلك بين ذوي الجاني والمجني عليه (٣)، ولم تعد كل الجرائم تستوجب القتل وفق القضاء الصيني مثلما طبقت عقوبات الجلد في حالات السرقة البسيطة ، إلا أنه بالرغم من هذا التطور الحاصل في مجال القضاء فقد حافظ المغول على بعض القوانين المغولية حيث أبقوا عقوبة القتل قائمة لكل من يسرق فرساً بشطر جسمه بالسيف شطرين (٤)، وبهذا يمكن القول أن أثر قوانين الياسا فيما يخص الحياة الاجتماعية قد مرت بمراحل عديدة، وتم الالتزام بتنفيذ بنودها بشكل صارم ولاسيما

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص١٤٦-١٤٧؛ لاين، عصر المغول، ص ٢٨٥.

(٢) Morris Russabi, Khubiali khan, P. ٧١.

(٣) لاين، عصر المغول، صص ٢٨٤-٢٨٩؛
Morris Russabi, Khubiali khan, P. ٧٧.

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص١٤٦.

في المراحل الأولى لأقرارها، ومن ثم شهدت مرحلة التمازج مع قوانين الشعوب المغلوبة أقتضتها ضرورات المرحلة إلا أنه مالبث أن أضمحلت هذه القوانين تدريجياً حتى غلبت عليها العادات والقيم الاجتماعية للمغلوبين (١)، على الرغم من معارضة كثير من الأمراء المغول الذين عارضوا سياسة الانفتاح تلك الذين أرادوا من خلالها الاحتفاظ بجذورهم البدوية والقومية، ورأوا من الحرج أستيعاب حضارات تلك الشعوب المغلوبة (٢)، وهو ما سنحاول تسليط الضوء عليها في ضوء العادات الاجتماعية السائدة لدى المغول المحلية وأمتزاجها بالعادات الاجتماعية المتداولة لدى الشعوب المغلوبة القائمة من خلال مقارنة العادات الاجتماعية المغولية الاصلية مع عادات المغلوبين ، وهو الغاية من دراستنا لهذا الفصل.

بيوت المغول ومساكنهم الاسرية

لعبت ظروف المناخ القاسية في منغوليا وأطرافها أثراً كبيراً على نمط الحياة الاسرية عند المغول فقد كان للصيف الحار القصير والشتاء البارد الطويل الأثر البالغ في تحديد منازل تلك الاسر وتوزيع مناطق سكناهم فكان معظم سكان المغول يتجهون جنوباً بحثاً عن الدفء في وقت الشتاء، في حين كانوا يتجهون شمالاً وقت الصيف بسبب الرياح الرملية (٣)، يضاف إلى ذلك أن المغول كغيرهم من الشعوب البدوية الصحراوية دائمة التنقل بحثاً عن مصادر الرزق حتى أن الكثير من خيمهم ومساكنهم كان يراعى عند تشيدها لتكون سهلة التنقل ويمكن جرها بالحيوانات عند تصميمها (٤)، وفي هذا المحتوى يذكر الراهب وليم الروبريك عن أن المغول " لا

---

(١) لاين، عصر المغول، ص ٢٨٥؛
Morris Russabi, Khubiali khan, P. ٧١-٧٢.
(٢) Stephen Haw, Marco Polo's China, P. ٣٢.
(٣) القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص ٣؛ الخالدي ، العالم الاسلامي والغزو المغولي، ص ٢٠؛ ثروت عكاشة، اعصار من الشرق، ط٥ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٢م)، ص ١٧.
(٤) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣؛ مصطفى طه بدر، محنة الاسلام الكبرى، ط٢ (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٩) ، صص ٧٩-٨٠.

يسكن المغول في مكان واحد قط"(١)، والواقع أن تلك الخيم أمتازت بكثير من البساطة إذ كانت تغطى أعمدتها في الغالب بالصوف وعلى شكل نصف أستدارة حتى لا تجرفها الرياح، ولا تنقلب بسهولة عندما تشتد العواصف، ويلاحظ أن لكل خيمة بابان فكان مدخل الباب الغربي يقتصر على الرجال، فيما يختص الباب الشرقي الأخر منه للنساء (٢)، ويصف هاورث تلك المساكن بقوله " أن تلك المساكن كانت تشبه اناءاً مقلوباً على جدران دائرية من الصوف مثبت على هياكلها الالواح الخشبية المربوطة ببعضها البعض بقطع من جلود الحيوانات"(٣)، مع أننا يمكن أن نجزم أن حال تلك المساكن لم يعد كما كان عليه الأمر بعد قيام الامبراطورية المغولية ايام جنكيزخان، وظهور أولى مظاهر الترف والرخاء في ربوعها، فقد شرع جنكيزخان وأفراد أسرته وحاشيته والكثير من الأمراء بتشييد خيم كبيرة تتناسب مع وضعهم السياسي الجديد، فنعرف أن المغول أطلقوا على مقر الحكم تسمية اليورت الذي يضم مساكن القآن، وأفراد أسرته وحاشيته ، وهي عبارة عن خيم كبيرة أشبه ما تكون قصوراً وقتذاك (٤).

في حين نلاحظ أن ما أورده ماركو بولو من روايات عن سكن المغول أن بيوتها كانت في الحقيقة تمثل بدايات لحالة أنتقال من البداوة إلى التحضر في المعنى البدائي لها، فبعد أن سكن المغول في خيم بدائية الصنع شاع ايام قوبيلاي قآن بناء المساكن الحديثة على الطراز الصيني الرفيع ، وأستخدام فن العمارة الصيني على نطاق واسع، فقد عرف هؤلاء المغول الحياة الحضرية والمدن المستقرة عوضاً عن الخيم المتنقلة حتى أن أفرادهم كما يقول ماركو بولو تفوقوا بشكل لافت على المصممين الصينيين أنفسهم في بناء القصور الفخمة للقآن وأفراد الاسرة الحاكمة

---

(١) The Mission Of William Rebruk, (London, ١٩٩٠), pp.٤٣-٤٧.

(٢) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣؛ فهمي، تاريخ الدولة المغولية في ايران (القاهرة:دار المعارف، ١٩٨١م)، ص ٢٣.

(٣) History of the Mongols, Vol ٢, P.٥٠.

(٤) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ص ٦٠؛
Paul. D.Buell, History Dictionary of the Mongol World Empier, P. ٢٧٩.

على نحو قصر الزنادو الذي يعد في العمل المعماري تحفة معمارية رفيعة الذي أستغرق بناءه ما يزيد عن ثلاث سنوات [١]، والزنادو قصر في غاية الابهة والفخامة، ويعني البهجة، ويذكر في المصادر الأوربية بأسم (xanadu)، وقد شيده قوبيلاي قاآن خامس أباطرة المغول في مدينة خان باليق الصينية. ولا نبالغ أن نقول بأن ماركو بولو يعد أفضل من قدم وصفاً متكاملاً لتلك المرحلة بحكم مشاهداته الحية لها، فقد وصف الرحالة هذا القصر من داخل جدرانه فذكر أنه كان قصراً واسعاً وجميلاً يحتوي على عدد من الزخارف والرسوم الجميلة، ومدخله فيه ثمان بوابات كبرى شيدت جدرانها من الرخام ، ويتوسط ذلك غرف القآن التي زينت بزخارف زاهية من الذهب والفضة ، وأقيمت فيها عدد من الممرات المائية التي كانت قد زرعت حولها الاشجار، وفي الوقت نفسه زودت بعدد كبير من الحيوانات والطيور النادرة [٢]، ومن أجل هذا يمكن القول أن شكل وهيئة تلك المساكن المغولية القديمة أخذت بالتناقص والاختفاء تدريجياً مع أنصهارها التدريجي في الحضارة الصينية السائدة إلا ما كان يظهر منها بشكل نادر في بعض الاحتفالات الخاصة بالمغول ، وأقامة الخيم المغولية بما يحافظ على هويتهم التقليدية في مجتمع هم مجرد اقلية فيه[٣].

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، صص ٢٧-٣١؛ أودوريك دوبوردنون، مشاهدات أودوريك دوبوردنون الفرنسيكاني في الصين، صص ٥٢-٥٤.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، صص ٢٧- ٣١ ؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ١٨٣.

(٣) ريشاد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٦٠؛
Marco Polo, Il Milione, pp. ٤-٥.

طعام المغول – التتار في المأكل والمشرب

يعد الطعام والشراب أحد أركان الحياة الاجتماعية عند كل الشعوب بما فيها أقوام المغول التتار وقبائلهم الذي تميز بالبساطة عند السواد الاعظم منهم [١]، وقد عرف عن هؤلاء المغول الصبر وتحمل الجوع في حالة أنعدام الطعام حتى أن المؤرخ الارمني كيراكوس (Kirakus) ذكر عن هذا الأمر " أنه كلما سنحت لهم الفرصة أكلوا واذا لم تسنح أكتفوا وصبروا على الجوع"[٢]، وهو ما يعني بحسب رواية الارمني أنه لا وجود لوقت محدد لعدد الوجبات في اليوم في تناول طعامهم على شكل وجبات أو ماشابه، وكان المغول يتخذون من لحوم الحيوانات والدواب على أختلاف أنواعها غذاءاً لهم فكانوا لا يميزون عادة بين وجبة من حيوان نظيف أو ما دون ذلك ، حتى أن بعض المصادر الاسلامية تشير إلى ذلك في أنهم اذا ما وجدوا أحشاء من حيوان ميت، أخذوها وطبخوها كغذاء لهم بلا تمييز عن الطعام الطازج ، كما أنهم يأكلون جثث الاموات من البشر والذئاب والكلاب والثعالب والفئران[٣]، وقد زاد المؤرخ الانكليزي كوينتون (Quentin) عن ذلك بقوله " كان المغول من أكثر الناس قذارة ولا مبالاة بالنظافة في عاداتهم الغذائية"[٤]، وهي رواية يعززها جورج لاين(Lane)" أن المغول لا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام أو بعده، ولا يشطفون أطباقهم أو قدورهم بعد أستخدامها في اكلهم"[٥].

ومع أن الكثير من تلك المرويات تحمل جزءاً كبيراً من المصداقية لكنها في ذات الوقت تحمل بين طياتها بعض المبالغات ، وأن ذلك مرده ناتج بسبب أعمال

---

(١) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣٠؛ لاين ، عصر المغول، ص ٢٣٧.
(٢) Armenian History (London, ١٩٠٠), P. ٣١٥.
(٣) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م) ، السلوك المعرفة دول الملوك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م)، ج١، ق ٢، ص ٦٤٧؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣١.
(٤) J.A. Boyle, The Empire of the Mongolian world, (London, ١٩٧٧) , p. ١٥٨.
(٥)لاين ، عصر المغول، ص ٢٤٠.

المغول الوحشية وقساوتهم في الحروب والغزوات فإنعكس هذا الوصف السيء على كل ما يتعلق بطباعهم الاجتماعية ومنها بطبيعة الحال عاداتهم في الطعام [١]ففي رواية لهاورث (Howorth) تصب في هذا الاتجاه فذكر كان من عادات المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم وأحياناً أصدقائهم على نحو قوله "ففي أحد غزوات المغول للصين ، وعندما حوصرت قواتهم ، ونفاذ مؤنتهم ضحى عساكر المغول بواحد من كل عشرة جنود ليكون طعاماً للأخرين"[٢]، وعلى الرغم من أن هذه الرواية تظهر الجانب البشع عند هؤلاء المغول، وتؤكد الصورة السيئة والقاتمة في عاداتهم في الاكل والمشرب، إلا أنه يصح القول في الوقت ذاته أن هذه الرواية تمثل حالة استثناء في المطعم إقتضتها ضرورات الحرب ولا تشكل السياق العام لعاداتهم المتبعة في الماكل ، مع أنه يصح القول ايضاً أنه في ذات الوقت أنهم لا يتورعوا من فعل أي شيء يرونه مناسباً عند اقتضاء الضرورة مما جعل الكثير من المؤرخين يركزون على الجانب السلبي لهذه العادات التي تركتها عمليات القتل في أذهان المؤرخين [٣].

ومن الوجبات الأخرى الاعتيادية غير اللحوم لديهم وجبة مرق تركب عادة من مادة الذرة، وفي بعض الاحيان يتناول هؤلاء المغول وجبة حساء بخلط الزنجيل مع الفلفل لأستخدامها عادة في فصل الشتاء عند ندرة الصيد في هذا الوقت من الموسم ، ويلاحظ أن معظم المغول في فصل الشتاء من السنة يقدمون على خزن الطعام، وتتلخص طريقتهم في الخزن في أنه اذا ما مات ثور أو حصان قطعوا لحمه

---

(١) لاين، عصر المغول، صص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) History of the Mongols, Vol ٢ , P.٥٣.

(٣) لاين، عصر المغول ، صص ٢٢٧-٢٣٠ ؛
Tim Mcneese, Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P. ١٠٢.

إلى شرائح رقيقة ليعلقوها عند سقوف منازلهم حتى يعتريها الشمس والهوء كي لا تتعفن من أجل خزنها(١).

وينقل الرحالة ماركو بولو صورة متتباينة عن عادات وتقاليد هؤلاء المغول في الطعام والشراب التي تتفق تارة مع وصف غيره من المؤرخين وتختلف تارة أخرى ففي حديثه عن الطعام يذكر ماركو بولو " أنه جرت عادة الناس بتناول لحم الطيور والاغنام والثيران والجاموس غير مطهي يقطعونها إلى أجزاء صغيرة جداً ، ثم يضعونها في خليط من الماء والملح ، مع أضافة كثير من التوابل عليها ، وبعدها يفرم مع قطع الثوم ثم يتناول كغذاء كأنما هو مطبوخ"(٢) . ويبدو من دون أدنى شك أن رواية ماركو بولو هذه عن معالجة اللحوم للأكل تصف ما حدث لاحقاً من تطور لدى المغول عند أختلاطهم بأهل الصين وغيرهم من أبناء البلاد المجاورة، وهو تطور ظهر واضحاً في مرويات ماركو بولو عن موائد الطعام والولائم التي أقامها السلطان قوبيلاي قاآن(٣) لضيوفه،على نحو وصف الرحالة لأحد الولائم التي حضرها ماركو شخصياً بقوله " توضع المائدة امام عرش السلطان المرتفع ، ويتخذ مجلسه في الجانب الشمالي من المائدة ووجهة نحو الجنوب ، يليه على اليسار موائد زوجاته، وعلى اليمين مقاعد منخفضة قليلاً يجلس عليها أبناءه وأحفاده، ثم يشرع رجاله في العزف على الآت الموسيقية، ولا يبرح عن العزف حتى يتوقف جلالته عن الأكل، وفي بعض الأحيان يقدم المهرجين عروض مسرحية يستعرضوا فيها مهاراتهم الروحية لكي يستأنس القاآن أثناء تناول طعامه(٤).

---

(١) المفضل ابن ابي الفضائل(ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس: بلوشية للنشر، ١٩١٢م) ، صص ٢٧٣-٢٧٥؛ الصياد ، المغول في التاريخ، ص ٣٣١؛ بدر، محنة الاسلام الكبرى ، ص ٧٨.

(٢) رحلات ماركو بولو، ج٢، صص ٤٣-٤٤.

(٣) Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, pp. ١٠٢-١٠٣.

(٤) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٤٦.

ويسهب ماركو في الحديث عن تلك الولائم والعاملين فيها بقوله " ويتحتم على الإفراد الكثيرين الذين يتولون الخدمة على موائد جلالته، وكذلك الذين يقدمون الطعام والشراب إليه أن يغطوا أنوفهم وأفواههم بأقنعة جميلة من الحرير، حتى لا تتأثر أطعمة القآن أو نبيذه بأنفاسهم" [١].

ويعد الشراب جزءاً مهماً من حياة المغول اليومية، وهو ما كان يستهوي ملذات ماركو بولو الذي أجاد كثيراً في وصفه ، وكما هو معروف أن المغول عرفوا بولعهم الشديد بالشراب المسمى القميز، وهو شراب يصنع عادة من لبن الافراس ليحول إلى خمر صالح للشرب وطريقة صنعه سهلة وغير معقدة تتلخص بوضع لبن الافراس في قراب خاصة مهيئة لهذا الغرض، تخض بشدة قبل أن تترك حتى تتخمر، وتصبح صالحة للشرب، ويكون مذاقه أشبه بطعم الخمر الصهباء الشديدة البياض [٢]، وعلى الرغم من أن جنكيزخان كان يحذر المغول من الافراط في تناول مشروب القميز، إلا أنه يستدرك ويقول من هذا الذي يقدر الاحجام عنه، إذ تنقل المصادر عن جنكيزخان قوله " أن الرجل الثمل كالرجل المضروب على رأسه ، يفقد عقله وكفاءته ، ولا تشربوا سوى ثلاث مرات في الشهر الواحد لا اكثر، والافضل أن لا تشربوا ابداً، لكن من الذي يحجم عن ذلك بالمرة "[٣] إلا أن المغول على عادتهم لم يلتزموا بذلك بما فيهم جنكيزخان نفسه ، ومثلما نعلم فقد أفرط المغول في الشراب كثيراً، وهو السبب الذي يعزا إليه موت الكثير من شخصياتهم من جراء الافراط بتناوله فقد توفي أوكتاي قاآن بسبب الافراط في الشراب كما كان خلفه منكوقاآن مدمناً ولا يكاد يفارقه [٤]، وعن ذلك يقول الرحالة كاربيني" كان

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٤٦.
(٢) محمد التونجي، التيارات الادبية ابان الغزو المغولي، ط١ (دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر والترجمة، ١٩٨٧م)، ص٦٨٢ ؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ١٥١.
(٣) هارولد لامب، جنكيزخان، ص٥٢.
(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٦٢.

المغول يشربون القميز كلما توفر لهم" (١)، ولم تكن النساء أقل ولعاً من الرجال بتناوله ، وفي هذا الشأن يذكر وليم الروبريك " أن النساء ينغمسن في الشرب بكثرة مثل الرجال، إذ لم يكن الأمر معيباً في نظرهن"(٢)، وقد أعطى الرحالة ماركو بولو وصفاً عن القميز وعن ولع المغول به لايكاد يختلف عما وصفته المصادر الأخرى حتى أن حضوره يعد من المقدسات في الاحتفالات واعياد المغولية الاجتماعية ، وهو أمر يعد طبيعي في تشخيص لرحالة أوربي مثل ماركو بولو(٣).

ومن جهة أخرى يذكر بولو أن المغول أفرطوا إلى جانب القميز شراب أخر وهو شراب الخمر الصيني وهو مشروب يتكون من خلط كمية من الارز مع توابل خاصة تمزج معه حيث وصف ماركو هذا الشراب بالقول " كان فيه من الجودة وطيب النكهة بحيث لا يرغب أحد في شراب شيء أفضل منه ، فهو بقوله شراب رائق النكهة ، ومشرق اللون لذيد الطعم، يدخل إلى الأوصال أكثر من أي شراب اخر"(٤)، ويبدو أن ولع المغول الشديد بالقميز، وشراب الارز الصيني على نحو ما يورده ماركو بولو نفسه الذي لايخفي إعجابه، وحرصه الشديد على تناوله هو الأخر أدى إلى تجاهل ذكر الحديث عن الشاي الصيني ، وهو تسائل طالما طرحه بعض المؤرخين للزعم أن ماركو بولو لم يصل إلى الصين واقعاً لإغفاله الحديث عن ذكر الشاي الصيني الشهير في مروياته التي أشرنا لها في الفصل الأول، وهو ما نعتقد هذا جواباً للتسائل الذي طرحته الباحثة وود التي لم تعرف عن المغول بأدعائها عدم تناولهم للشاي ومن ثم لم يشر إليه الرحالة ماركو بولو في مروياته (٥).

(١)The History Of The Mongol that We Called Them Tattar, P. ٥١.
(٢)The Mission Of William Rebruk, P. ١٩١.
(٣) Marco polo , The travels of Marco Polo,p. ١٥٩.
(٤) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٧٨.
(٥) ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٠.

الزي المغولي

عرف عن المغول كغيرهم من الشعوب البدائية أرتدائهم ملابس تمتاز بالبساطة التي تناسب مكانتهم المعيشية والاجتماعية، وكانت مثل تلك الملابس تصنع في الغالب من الصوف والقطن، فيما يصنع البعض الأخر منها من الجلودوكان ملبس المظهر الخارجي الذي يميز المغول عادة يتكون من قطعة قماش واحدة تمتد من أعلى الكتف إلى القدم وتحته سروالاً مع ربط حزام حول الخصر ولحمايتهم من البرد فإن معظم المغول يرتدي عادة في فصل الشتاء غطاء على الرأس(١).

ويكاد يجمع المؤرخون على أنه لا يوجد فرق كبير يميز ملابس الرجل المغولي عن المرأة المغولية سوى ما ترتديه النسوة المتزوجات من رداء طويل ومفتوح من الإمام ليميزهن عن غير المتزوجات، وكان المغول قد أعتادوا على عدم أستبدال ملابسهم طوال شهور فصل الشتاء(٢)، في حين كانوا يستبدلونها مرة واحدة في الغالب كل شهر في فصل الصيف ،ومن أجل ذلك فقد أتصف المغول بالقذارة والنتانة (٣)، وهي حقيقة يؤكدها القلقشندي بقوله " كان المغول لا يغسلون ثيابهم البتة ، ولا يميزون بين الطاهر والنجس"(٤)، غير أن من المؤكد أن جنكيزخان أحدث بعض التغيير في ملابس المغول وأن كان ذلك تغيراً تدريجياً بفعل عمليات السلب والغزو التي كانوا يقومون فيها أثناء الغزوات والحروب من خلال فرضهم الاتاوات وأستقدام العمالة الماهرة ، وفي هذا السياق يروي أن جنكيزخان كان يوزع على كل فرد من إفراد حرسه الخاص ثلاثة عشر ثوباً يختلف الواحد منهم عن

---

(١) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣٢؛ جورج لاين، عصر المغول ، ص ٨٧؛ فهمي ، الدولة المغولية في ايران، ص ٢١.

(٢) فهمي: الدولة المغولية في ايران، ص ٢١؛
Howorth, History of the Mongols,Vol. ٢. P. ٥٩.

(٣) فهمي، الدولة المغولية في ايران، ص ٢١؛
Howorth, History of the Mongols,Vol. ٢. P. ٥٩.

(٤) صبح الاعشي، ج٤، ص ٣١٢.

الأخر في اللون[١]، ومما لا شك فيه أن إخضاع المغول لبلدان ذات عمق حضاري كالصين وماجاورها أدى إلى تأثر هؤلاء المغول بعادات وملابس تلك الشعوب حتى أنهم أخذوا يلبسون الحرير والفراء والملابس المكسوة بالذهب والفضة وغيرها من وسائل التحضر وفي هذا الشأن يروي ماركو بولو " أنه في عيد ميلاد قوبيلاي قاآن كان جلالته يرتدي ثوب فاخر من القماش المطلي بالذهب، وفي تلك المناسبة يكسو ما يقارب من عشرين الف من النبلاء وقادة العسكر وأفراد الحاشية فضلاً عن أعداد كبيرة من رعيته ثوباً مماثلاً في كساءه من حيث اللون والشكل، وأن لم تكن المواد المصنوعة لتلك الملابس منها تعادل ما يلبسه القاآن من فخامة الملبس ومع هذا فإن مثل تلك الملابس كانت تصنع من خالص الحرير المصبغ بالابريز "[٢]، ويذكر الرحالة البندقي أن ملابس تلك الحاشية لا تبدل كل عام بل تبقى في الاستخدام لأكثر من ذلك إلا أنه يعطينا صورة عن حجم التغيير الهائل الذي كان قد طرأ على المغول التتار عند اتصالهم بالمجتمع الصيني من أهل التحضر، في حين كان الاحتفال برأس السنة المغولية الذي يصادف في الأول من شباط عندما يرتدي هؤلاء المغول من دون غيرهم ملابس بيضاء إذ كانوا يعتقدون بحسب ظنهم أنها تجلب الحظ السعيد، وبناءاً على ذلك يمكن القول ايضاً ان ماركو بولو قد تنبه إلى ان المظهر الخارجي وهيئة المغول وملابسهم قد تغيرت بفعل حركة التوسع والاختلاط بالشعوب المتحضرة [٣].

(١) جورج لاين، عصر المغول، ص ٩٣.
(٢) رحلات ماركو بولو ج٢، ص ٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٧-٤٩.

الزواج لدى المغول

حظي الزواج لدى المغول بأهمية كبيرة في معالم حياتهم المجتمعية ، ومع أنه زواجهم لا يكاد يختلف اختلافاً كبيراً عن باقي الأمم الأخرى، إلا أن تقاليد الزواج عند المغول أمتازت بالبساطة والسهولة وفي الكثير من الأحيان لا يعد الزواج من قبيل توافق أجتماعي بل كونه يعد عقد لعمليات تجارية بحتة (١)، وفي هذا الشأن يعبر عن ذلك المستشرق هاورث بقوله " لا يوجد رجل عند المغول له أمراة إلا وكان قد أشتراها من أسرتها"(٢)، وفي رواية أخرى تصب في هذا الأتجاه أنه لا يعد الرجل المغولي المرأة المصاحبة تمثل زوجة حقيقية له حتى تنجب له طفلاً يتوارثه الاجيال واذا كانت عاقراً فبإمكانه طردها (٣).

ولم يحدد العرف المغولي عدد الزوجات لكل رجل فكان للرجل أن يتخذ مايشاء من الزوجات حسب مقدرته وإمكانياته المالية إذ تنقل المصادر أنه كان لجنكيزخان مايزيد عن خمسمائة زوجة ومحظية خاصة به ، وقد حذا حذو جنكيزخان بقية القاآنات بأتخاذ أعداد كبيرة من الزوجات والمحظيات، أما عامة الناس فكان في الغالب لديهم زوجة واحدة لا غير ، وكان للأبن من الذكور الحق أن يرث زوجات أبيه بأستثناء والدته ، فيتزوج ما يشاء منهن ، وكذلك كان له الحق أن يمنحهن إلى رجال آخرين أو أن يطلق سراحهن (٤)، وكان للقاآنات في الغالب زوجة واحدة يأثرونها، وقد يصل إلى ثلاث أو أربع نسوة ليكنْ مسؤولات عن النسوة الأخريات لدى الرجل، وهن بطبيعة الحال مغوليات الأصل ، ويطلق على أبنائهن

---

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمي، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، صص٢٣-٢٤؛ محمد الصاوي، هولاكو الامير السفاح، ط١ (الجيزة: دار طيبة للطباعة ، ٢٠١٢م)، صص ٨٣-٨٤.

(٢)Howorth, History of the Mongols, Vol.٣, p. ٥٣.

(٣) فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران، ص ٢٣.

(٤) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج،ص٧٢؛ ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ج١، ص ١٤٠.

تسمية الأبناء المتعمدين[١]، ومع ما عرف عن المغول بتشجيعهم على تعدد الزيجات من أجل ازدياد عدد افراد القبيلة، إلا أنهم لا يشجعون حالات الزواج داخل القبيلة الواحدة منها لان ذلك يتنافى مع تقاليد الرعاة في المجتمع ، وقد ترد روايات عن ذهاب المقاتلين للبحث عن زوجات لهم بين القبائل الأخرى على نحو ما حصل مع جنكيزخان شخصيا[٢].

وفي هذا المحتوى أن مرويات ماركو بولو تقول أنه كان لقوبيلاي قآن اربع زوجات يحتلن مكانه شرعية لديه، وتحت أمرة كل واحدة منهن لا يقل عن ثلاثمائة أمراة شابة ذات جمال باهر ما بين زوجة ومحظية[٣]، وينقل الباحث تيم مكنيس نصاً عن ماركو بولو في حديثه عن المرأة المغولية فيقول " أن المرأة المغولية تستحق الثناء وتؤدي دور كبير في الحياة، إلا أنه شخصياً يشعر بالخجل لتعدد الزوجات عند المغول"[٤]، ولم يفصح عن سبب شعوره بهذا الخجل لكن من المؤكد أن ذلك نابع من كونه يتعارض مع العقيدة المسيحية الكاثوليكية التي ترفض تعدد الزيجات، في حين ينقل ماركو بولو أخبار عن أقوام أخرى خضعت لحكم المغول فمثلاً في مدينة التبت[٥]، هناك بعض العادات المخزية بحسب وصفه ، لا يمكن أن تصدر إلا من أناس وثنيون ولم تحظ فتياتهم بفرصة الزواج ما دمن من العذاري لان الرجال هناك يكرهون الزواج من الفتيات العذروات ويشترطون أن تكون لهن علاقات سابقة مع أفراد عديدون في المجتمع لان ذلك بحسب أعتقادهم يسر ألهتهم

---

(١) يطلق تسمية الابناء المعتمدين على أبناء الزوجات التي يأثرهن القآنات، وينحدر أصل تلك الزوجات من أسر مغولية عريقة، وهؤلاء الابناء فقط يحق لهم وراثة العرش عند وفاة القآن. للمزيد انظر: رشيد الدين، جامع التواريخ، ج١ ، ص ٥٢٥.

(٢) فلاديمير بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان، ط١ (الكويت: المجلس الوطني الثقافة والفنون والاداب، ١٩٨١م)، ص ٦٥١.

(٣) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٢٣.

(٤)Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P. ٧٥.

(٥) التبت: وهي بلاد متأخمة للصين، ومحاذية من أحد جهاتها للهند، ويطلق عليها أسم أرض الالهة لأحتوائها على عدد كبير من المعابد البوذية، للمزيد انظر: انيس محمود، بلاد التبت بين الماضي والحاضر (بيروت: دار الحرية للطباعة والنشر١٩٥٩م)، ص ٩ ؛ Paul. D.Buell, Historical Dictionary Of The Mongal World Empire (London ,٢٠٠٣), P. ٢٦٧.

وأن المرأة التي لا تحظى بصحبة الرجال أمراة عديمة القيمة حسب أعتقادهم. ومع أنه لا توجد لدينا نصوص عن تأثر المغول كمجتمع بتلك العادات التي ذكرها بولو لكن من المحتمل أن تأثر عدد منهم بهذه الدعوى لاسيما المقاتلين منهم الذين تطبعوا بطباع البلاد التي خرجوا لقتالها وذابوا في مجتمعاتها بمرور الزمن حتى غلبت عادات تلك الشعوب على عاداتهم ولاسيما أن أعدادهم هؤلاء المغول فئة قليلة قياساً بأعداد الشعوب التي أخضعوها بالسيف قد حتم عليهم الانصهار في تلك المجتمعات الجديدة، والاخذ بالكثير من عاداتها وقيمها [١].

الديانة والمعتقد عند المغول

تكاد تجمع المصادر الاسلامية على أن المغول كانوا وثنيو المعتقد إذ يعتنق غالبيتهم الديانة الشامانية ، وهي ديانة ترتكز بحسب رؤية هذه المصادر على عبادة مظاهر الطبيعة، كالشمس والقمر والرعد والبرق والنهر والجبل وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة، ويذكر مصنف العراق عز الدين بن الاثير عن الديانة الشامانية القول " أن المغول يسجدون إلى الشمس إذ طلعت"[٢]، في حين يذكر تاج الدين السبكي في معرض حديثه عن ديانة جنكيزخان " كان كافراً يعبد الشمس"[٣]، ولا يختلف الحال في وصف هذه الديانة عند عدد من الباحثين المحدثين في معرض بياناتهم عن الديانة الشامانية فيذكر مصطفى طه بدر أن الشامانية تقوم على عبادة مظاهر الطبيعة ولاسيما الشمس[٤]، في حين يذكر الصياد بأن المغول اعتقدوا بآله الشمس وآله القمر والبرق والرعد [٥].

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٠٥ .
(٢) الكامل في التاريخ ، ج١٠، ص ٤٠٠.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى، ط٢(الاسكندرية : دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٤م)، ج٦، ص ١٧٦.
(٤) محنة الاسلام الكبرى، ص ٨٢-٨٣.
(٥) الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٣٣٥

وفي حقيقة الأمر الواقع أن فلسفة العقيدة الشامانية تقوم على أن هناك آله واحداً خالقاً للكون أطلقوا عليه أسم (الآله تنغري) أي الاب السماوي، حتى أنه يوجد في كل بيت مغولي صنم صغير يحمل أسمه ، وما تضرعهم إلى مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والرعد والبرق إلا لانها كانت تثير الخوف في نفوس الانسان، ومن أجل دفع شرها وجلب رضاها يلتمس هؤلاء المغول الحماية منها (١)، والحقيقة أن مثل هؤلاء المؤرخين وقعوا في وهم لأنهم كانوا في وضع لا يسمح لهم بالاطلاع على مبادئ العقيدة الشامانية، ولاسيما أن الغزاة المغول لم يكونوا مهتمين بنشر عقيدتهم لدى بني الانسان أو حتى ممارستها في البلدان التي خضعت لهم، ناهيك عن عدم وجود معابد واضحة لهذه الديانة تسهم في شرح غموض عقائدها، مما جعل المصادر الاسلامية تنسب لهم عبادة مظاهر الطبيعة ، وتتجاهل أي ذكر للآله الأكبر تنغري الذي يعبده المغول (٢)، وهو آله في حقيقة الأمر مشابه إلى حد بعيد من حيث الفكرة والعقيدة الذات الالهيه عند أهل الاديان السماوية، وهذا بطبيعة الحال يخالف الرأي حول تلك العقيدة مع معظم الباحثين الذين نقلوا تلك الروايات من مصادرها الاصلية من دون تمحيص نصوصها مما جعلهم يقعون في ذلك الوهم ايضاً، ومما يؤكد هذا الادعاء أن الرحالة وليم الربرويك الذي كان قد التقى منكوقاآن ونقل عنه قوله " أننا نحن المغول نعتقد أن هناك آلهاً واحداً له نحيا وله نموت، وعندنا قلب يخفق له ، لكن الله هو الذي أعطى اليد أصابع مختلفة، وكذلك أعطى طرقاً مختلفة في العبادة"(٣)، وهذا النص يشير صراحة إلى إن هناك الهاً واحداً يعتقد به المغول حتى وأن قدسوا إلى جانبه بعض الظواهر المختلفة، في حين نجد ابن فضل الله العمري يقترب من وصف حقيقة تلك العقيدة الشامانية إلى حد ما بقوله " أن الظاهر من عموم دين المغول الايمان بوحدانية الله ، وأنه خالق السموات والارض، وأنه

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٤١؛ لاين ، عصر المغول، ص ٢٧٣.
(٢) لاين، عصر المغول، صص٢٧٣-٢٧٥؛ طقوش، تاريخ المغول العظام والايلخانيين، ص٤٠.
(٣) The Mission Of William Rebruk, P. ٢٠١.

يحيى ويميت"[١]، وفي هذا المحتوى لم يكن رأي ماركو بولو بعيداً عن رأي العمري إذ يروي الرحالة البندقي عن طبيعة ديانة المغول بقوله " ويؤمن المغول بآله له طبيعة سماوية ، وهم يحرقون له البخور في المباخر ، ويرفعون إليه الصلوات، ويحتفظ أفراد القبيلة منهم بصنم واحد في غرفة البيت وهو مغطى بقطعة من القماش، يطلقون عليه أسم ناتيجاي[٢]، ويعدونه رباً الذي يتولى حصانة شؤونهم الدنيوية، ويحمي اطفالهم ويحرس ماشيتهم"[٣]، ومن خلال أستعراض هذه النصوص يتضح من دون أدنى شك أن تضرع المغول لمظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والبرق ونحوها، أنما هو أشبه بالتقديس والتضرع من المغول لها خوفاً من غضبها السماوي، ولاسيما أن خطر تلك الظواهر يبدو على شكل مادي أو ملموس في مجتمع يسود فيه الجهل والخرافات مع تقلبات المناخ الكثيرة، وغضب الطبيعة في تلك الرقعة الجغرافية من البسيطة، وهو بتقديرنا ما يخالف معظم الروايات والمصادر الاسلامية التي تدعي بأن المغول في عقيدتهم يعبدون مظاهر الطبيعة ليس إلا [٤].

أما المسألة الثانية التي يشوبها الغموض لدى المغول فهي تلك النظرة المقدسة التي حظي بها جنكيزخان وعلاقته بالديانة الشامانية التي تبناها المغول كعقيدة ، ولاسيما بعد وضعه قوانين الياسا للمجتمع المغولي حتى أن بعض المغول كان يؤمن حقيقة أن جنكيزخان كان على علاقة مباشرة بالآله تنغري، بل أن بعضهم يذهب إلى أكثر من ذلك ويرى أن الآله تنغري أخذ من جانبه السماء ، وأعطى الأرض لجنكيزخان[٥]، ويروي المؤرخ الأرمني كيراكوس رواية تصب في هذا

---

(١) مسالك الابصار في ممالك الأمصار، ج٢، ق٢، ص ٢١٩.
(٢) يطلق المغول اسم ناتيجاي على الصنم الذي يحتفظون به في كل بيت، ويرمز هذا الصنم إلى الآله الأكبر تنغري كنوع من التعبير المادي الملموس لعبادة الآله تنغري. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٤١.
(٣) المصدر نفسه: ج١، ص ١٤١.
(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٤١؛ هارولد لامب، جنكيزخان، ص ٥٣.
(٥) لاين، عصر المغول، ص ٢٧٤.

الأتجاه ومفادها " أن بعض المغول زعم أن جنكيزخان كان قريب من الآله ، فقد أخذ تنغري السماء، وأعطى الارض لجنكيزخان، فهو لم يولد من صلب الانسان وانما تسرب كضوء من رقع السماء إلى بطن أمه قائلاً احملي مني لتلدي ولداً يحكم العالم"(١)، ومن خلال أستقراء هذا النص يبدو أن جنكيزخان لعب دوراً اشبه ما يكون بدور النبي المرسل إلى أمة المغول لاسيما بعد وضعه قوانين الياسا التي أستلهمها المغول ككتاب مقدس لشرائعهم في المجتمع ، إلا أن جهل المغول على ما يبدو بمفهوم النبوة لم يضعوا جنكيزخان بمصاف الأنبياء، ومن أجل هذا قدس المغول كل ما يسمو فوق مداركهم ووضعوه بمرتبة مقاربة لمرتبة الآله، وفي ضوء هذا المحتوى ظهرت حالة تعدد الالهة بين جماعات المغول (٢).

وفي المقابل تجمع المصادر عامة على أن المغول أظهروا تسامح منقطع النظير مع أصحاب الديانات والمعتقدات في البلدان التي أخضعوها على الرغم من قدراتهم العسكرية والحربية الضخمة التي كانوا يمتلكونها، حتى أنهم أعفوا رجال الدين كافة من مختلف الخلفيات الدينية والاثنية من الضرائب المستحقة عليهم فضلاً عن منح ممثليهم الحرية التامة في ممارسة الشعائر الدينية المقدسة.

وكانت العاصمة خان باليق بالصين تعج بجميع ممثلي الأديان من مختلف الاثنيات كالبوذيين واليهود والمسيحيين والمسلمين من أصحاب الكفاءات، والوزراء الذين خدموا في البلاط المغولي (٣)، بيد أن جورج لاين يعزو هذه الظاهرة إلى أن المغول أظهروا قيم التسامح مع مختلف الاثنيات لكونهم عرفوا أجادة اللعب تجاه جميع معتقدات الناس ليضمنوا بذلك الولاء السياسي والقبلي من الجميع لسيدهم القاآن، وبدون أدنى شك أن هذا التحليل يحمل جزءاً كبيراً من المصداقية والبراجماتية، لكن الاكيد ايضاً أن المغول عرفوا بعدم أهتمامهم بدينهم، فما بالك

---

(١) Armenian history, p. ٢٢٧.

(٢) شيرين بياني، المغول التركيبة الدينية والسياسية، صص ٢٧-٢٨.

(٣) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣٥؛ طقوش، تاريخ المغول العظام والايلخانيين، ص ٤١.

بالاكتراث بأديان وعقائد غيرهم! فلم تشر المصادر إلى أن المغول أجبروا أحداً قط على اعتناق ديانتهم في جميع الاصقاع التي قاموا بغزوها في الشرق أو الغرب، مع أن هذا لا يعني أنهم لم يرتكبوا سلوكاً شائناً بدافع الانتقام تجاه بعض المقدسات الدينية على نحو ما حصل عند أجتياحهم عاصمة الخلافة العباسية بغداد مع المسلمين، إذ إن سلوكهم الحربي هذا يظل دوماً مرتبط بطبيعة منظومتهم العسكرية التي تسمح لهم بأستخدام القوة والدمار مع غرمائهم في حدها الاقصى سواء كان هؤلاء البشر من بني جنسهم أو غيرهم من البلاد التي أجتاحوها (١).

وبهذا يمكن القول أن ديانة المغول الشامانية كغيرها من الديانات أستمدت أكثر عاداتها وفلسفتها من قيم المجتمع المغولي نفسه التي أضحت مقدسة بمرور الزمن لكنها مالبثت أن أضمحلت وتلاشت بعد أعتناق قوبيلاي قاآن الديانة البوذية كمعتقد ، وعلى خطى هذا القاآن أعتنق أغلب المغول تلك الديانة ومارسوها في طقوسهم ولاسيما في منغوليا والصين (٢).

الأعياد والاحتفالات لدى المغول

لم يعرف عن المغول أكتراثهم للاحتفال بالاعياد والمناسبات ، ومع أنهم حددوا رأس السنة المغولية الذي يصادف في الأول من شباط من كل سنة ميلادية كأحد أهم أوقات أعيادهم، ولكنهم كمجتمع بدوي يعيش في مناطق السهوب أنصب جل تفكيرهم حول كيفية الحصول على مصادر الرزق والعيش في حياتهم الرعوية وقد خلقت تلك الظروف من الفرد المغولي انساناً جاداً لا يميل إلى مظاهر الاحتفال في الاعياد والمناسبات على ندرتها، وأستمر هذا الحال حقيقة حتى مع بداية تأسيس الإمبراطورية المغولية بزعامة جنكيزخان فلم يكن يشغل بال هؤلاء المغول سوى

---

(١) عصر المغول ، ص ٢٥١.
(٢) انيس محمود، بلاد التبت بين الماضي والحاضر، ص ٢٨؛ صالح انجي، تاريخ الأديان (اسطنبول، ٢٠٠٤م)، ص ١٥.

كيفية توسيع حال الإمبراطورية، ومحاولة أخضاع أكبر قدر ممكن من البلدان لسطوتها ولم تشر المصادر إلى قيام هؤلاء المغول بأي احتفال من هذا القبيل، لكن من المؤكد أن هذا الوضع المجتمع سرعان ما تغير نتيجة أختلاطهم بشعوب عريقة عرفت بتمدنها وتحضرها وكانت تقيم وزناً مهماً لتلك الاحتفالات وأعيادها وتحرص كل الحرص على تنظيمها والاحتفال بها، ولاسيما أن كثير من تلك الأعياد كانت مستمدة من الموروث الثقافي والاجتماعي والديني لتلك الشعوب المغلوبة وهو ما جعل المغول يغيرون تلك النظرة البسيطة للحياة ويواكبون ممارسة الطقوس الخاصة بهم كأي شعب أخر (١).

إما مرويات ماركو بولو عن الأعياد التي رافقها إحكام المغول السيطرة على الصين، وإعلان قوبيلاي نفسه قاآناً على المغول والصين فيذكر الرحالة البندقي في مروياته أن المغول بدأوا بتنظيم احتفال كبير في الأول من شباط بمناسبة بداية السنة المغولية، ويسميه ماركو العيد الأبيض، وهو احتفال كبير يقام في كل إنحاء البلاد وعلى رأس المحتفلين في العادة القاآن وإفراد حاشيته ففي مثل هذه المناسبة يلبس القاآن ملابس بيضاء بصحبة جميع الرعايا المرافقين له لأعتقادهم أن هذا اللون يمثل الحظ السعيد للسلطان ورعاياه، على امل أن لا يحدث لهم ما يعرقل مباهج حياتهم طوال السنة إلا ما هو جيد وسعيد، وان يحظوا بالمسرة والافراح دائماً (٢)، وقد جرت العادة أن تقدم في هذه المناسبة هدايا من الرعايا إلى القاآن مكونة من تسعة في تسع من المادة التي تتألف منها المناسبة ، ويرمز مثل هذا الرقم عند المغول كما يقول ماركو بولو إلى الفأل الحسن وأعمام الخير، فلو فرضنا مثلاً أن ولاية مغولية أرسلت هدية من الخيول فينبغي أن يكون مجموعها تسعاً في تسع أي واحد وثمانين رأساً ومثل هذا ايضاً شأن الذهب والفضة أو القماش تسعاً في تسع وعن ذلك يروي ماركو بولو بقوله " أن بهذه الوسيلة يتلقى جلالة القاآن في المناسبة ما لا يقل عن

---

(١) رجب محمد عبد الحليم، انتشار الاسلام بين المغول،صص ١٥٠-١٥١؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٢٩٠.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٤٩.

مائة إلف حصان من إرجاء الإمبراطورية، وفي هذا اليوم ايضاً تستعرض الفيلة التي يبلغ عددها مايقرب خمسة الآف في موكب طويل جداً من الفيلة وعليها أغطية من القماش، معمولة بشكل بديع بالذهب والحرير، وعليها صور الطيور والوحوش وما إلى ذلك، ويحمل كل فيل منها على كتفيه خزانتين مملوئتين بأواني من الذهب والفضة، وتسير خلفها مجموعة من الإبل محمله بمختلف قطع الأثاث، تم تنظيمها تنظيماً حسناً، وتمر في موكب يستعرض إمام جلالته، تشكل منظراً يسر الناظرين"(١).

ويعطي ماركو بولو وصفاً تفصيلياً ليوم الاحتفال بالقول " وفي صباح الاحتفال يدخل إمام القاآن جميع الأمراء والقادة على أختلاف مراتبهم، والفرسان وكذلك المنجمين والأطباء، ومدربو الصقور مع أفراد كثيرين ممن يتولون الوظائف العامة وفي العادة ينظم الاحتفال بالطريقة الاتية فالمراتب الأولى تخصص لأبناء جلالته وأحفاده، وجميع إفراد الأسرة الحاكمة، يتلوهم رؤساء الأقاليم من الأمراء وفي هذا السياق ينهض الجميع من المكان المخصص لهم، إذ ينهض كذلك شخص ذو مكانة عالية ويقول بصوت عال أنحنوا وقدموا التبجيل للقاآن، فينحني الجميع الحاضرين حتى تلمس جباههم الأرض، وفيما بعد تعرض الهدايا على القاآن ويلقي جلالته نظرة عليها، وفيما بعد تهيأ الموائد لوليمة المناسبة وحينئذ تعزف الموسيقى وتعرض العروض المسلية، وفي الختام ينصرف الحاضرين كل إلى وطنه "(٢).

إما العيد الثاني الذي يحتفل فيه المغول مع القاآن فيصادف في الثامن والعشرين من أيلول من السنة الذي يعد من أعظم الأعياد بعد العيد الأبيض ويتمثل بعيد ميلاد قوبيلاي قاآن امبراطور المغول نفسه ، وقد أعطى ماركو بولو وصفاً دقيقاً ومفصلاً لهذا العيد فيقول " وفي هذا العيد السنوي يبرز القاآن الأعظم إمام الناس في ثوب فاخر من القماش المذهب، ويرسل إليه جميع رعاياه من التتار في

---

(١) رحلات ماركو بولو ، ج٢، ص ٥٠.
(٢) المصدر نفسه ،ج٢، ص ٥١.

كل أنحاء الامبراطورية والولايات التابعة لمملكته هدايا نفيسة ، وكذلك يرفع في هذا اليوم جميع رعاياه من البوذيين والمسيحيين والمسلمين وغيرهم الصلوات الحارة والصادقة للقآن كلاً إلى ربه أو وثنه من أجل أن يبارك خطوات القآن ويهبه بطول العمر والعافية والرفاهية "(١).

ومن جانب أخر كانت المجتمعات التي تخضع لحكم المغول كالصينيين والمسيحيين والبوذيين والمسلمين وغيرهم تقيم الاحتفالات والأعياد الخاصة بهم وكان لتسامح المغول، وعدم التدخل في تفاصيل الحياة الاجتماعية للشعوب المغلوبة أثر كبير في إقامة وأزدهار تلك الأعياد ، على الرغم من أن تلك الاحتفالات كانت تأخذ أحياناً شكل من إشكال المقاومة للغزو المغولي وذلك من خلال التعبير من هويتهم الثقافية والتمسك بعاداتها وتقاليدها(٢)، وكان لتقارب الاحتفال بين رأس السنة المغولية مع نظيرتها الصينية يعطي رونقاً خاصاً لكلا المناسبتين ، حيث كان الاحتفال برأس السنة الصينية يستمر لمدة شهر وللفترة بين الخامس عشر من كانون الثاني حتى الخامس عشرمن شباط ووقوع الاحتفال برأس السنة المغولية في الأول من شباط مما يعطي طابعاً مميزاً لتلك الاحتفالات وعادة ما تكون الاحتفالات ذا طابع رسمي وشعبي على حد سواء حيث يتبادل الصينيون حينها تقديم الزهور لبعضهم البعض مع تناول مشروب الأرز الصيني مع ظهور لافتات تمثل التراث والفلكلور الصيني، وفي تلك المناسبة تقام الصلوات بحماس بشكل منقطع النظير (٣)

وكذلك الحال فيما يخص المسيحيين واحتفالاتهم بعيدي الفصح والقيامة (٤)فيما يحرص المسلمون من جهتهم على إقامة شعائرهم الدينية والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة الذي حضر أحد هذه الأعياد

(١) Marco Polo, The travels of Marco Polo,p. ١٣٣.
(٢)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP.٢٩٠- ٢٩١.
(٣)Ibid, PP.٢٩٠- ٢٩١.
(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص ١٨.

مشاعر المسلمين بالمناسبة واصفاً حرصهم على إقامتها للتأكيد على هويتهم الإسلامية[١] .

وبهذا يمكن القول أن أختلاط المغول بشعوب وثقافات من البلدان المغلوبة والمتعددة الاعراق ، فضلاً عن تسامح سلاطينهم وعدم التدخل في تفاصيل الحياة الاجتماعية لتلك الشعوب الأثر البالغ في ديمومة تلك الأعياد وأزدهارها وإظهارها بالمظهر والحسن والبديع [٢].

في نواحي الصيد وعاداته

تعد عمليات صيد الوحوش والحيوانات والقنص من أهم الممارسات الاجتماعية التي عني بها المغول في حياتهم الاجتماعية حتى عدت تلك الممارسات من الضروريات المهمة لسكان تلك القبائل الرعوية لأنها أرتبطت بممارساتهم الاجتماعية والمعيشية معاً، ويرجع هذا الاهتمام إلى ما قبل قيام الإمبراطورية المغولية عندما أطلقت تلك القبائل المغولية على عمليات الصيد هذه أسم (النيرج)[٣] والمتخصص جزء في عملية الصيد ذاتها ، ومن أجل الحصول على موارد الرزق في تلك البيئة القاسية نظراً لطول فصل الشتاء، وبرودة المناخ ، مما يصعب مهام عمليات الصيد وممارسته لاسيما مع وجود نقص حاد في مصادر الرزق التي تعتاش عليها القبائل المغولية [٤].

وعند قيام الإمبراطورية المغولية في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أبتداءاً من سنة(٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) نظمت عمليات الصيد بشكل كبير، كما

---

(١) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ،ج ٢ ، صص٢٢٦-٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، صص ٢٢٦-٢٢٨.
(٣) النيرج: وهي كلمة مغولية تعني الصيد أو التكتيك عند محاصرة الفرائس في أثناء عملية الصيد، كما تعد ايضاً تمارين مباشرة للتدريب على فنون القتال أستعداداً للحرب. للمزيد من المعلومات انظر: جورج لاين، عصر المغول، ص ١٦٨.
(٤) عباس اقبال، تاريخ المغول، ص ١١٨؛ شيرين بياتي، المغول التركيبة الدينية والسياسية، ص ١٩.

أقبل إفراد الأسرة الجنكيزخانية على ممارسة الصيد[1]، إذ كانت تجري في العادة لكل إفراد الأسرة لاسيما الأطفال منهم كما هو عادة متبع في تقاليد المغول عند أصطيادهم الفريسة الأولى حيث كانت تقضي الطقوس بسحب قطرات من دم الإصبع الأوسط للأطفال الملكيين وخلطها بدم الفريسة الأولى ليكونوا بحسب تقاليد المغول صيادين ماهرين من الدرجة الأولى[2]، وعادة ما كان يرسل هؤلاء الأمراء مجموعة من الصيادين للتعرف على وجود كثرة من الفرائس أو ندرتها قبل بدأ موسم الصيد السنوي الذي يبدأ في الغالب مطلع فصل الشتاء، وبعد التعرف على المكان المنشود يقوم المسؤول عن الصيادين بتوجيه ما يقرب من الف شخص يختصون بإعمال الصيد والمطاردة حيث يعلن القآن رسمياً بدء الموسم لممارسة الصيد إذ يختبئ فيها هؤلاء الصيادين على شكل جماعات في الغابات بشكل دائري حتى ينصبوا أدوات القنص للحيوانات والطيور، غير أن إتساع الإمبراطورية المغولية، وأنضمام اقوام عدة لها من الإطراف جعلت من هؤلاء الصيادين أشبه بشبكة من العساكر المتكاملة الهيئة للصيد [3]، وكان الهدف من عمليات الصيد هذه فضلاً عن كونها مصدر رزق يعتاش عليها المغول في حياتهم الاعتيادية، كما تعد وسيلة من وسائل إعداد وتدريب العساكر المغولية لكي يكتسب إفرادها الصيادون البراعة في القتال أثناء خوض المعارك وعمليات الغزو، ويشبه الباحث جورج لاين عمليات الصيد تلك بقوله " لو نظرنا إلى الحرب بكل قتلاها، وكثرة ضحاياها، وقلة الناجين منها لوجدناها تشبه عمليات الصيد التي يمارسها المغول"[4]، ومثل هذا الوصف مع ما فيه من مبالغة والكثير من المغالاة والتهويل إلا أنه يعطي حقيقة

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، صص ٦٩-٧١؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، صص ٤٠-٤٤.

(٢)Howorth, History of the Mongols,Vol. ٢. P. ٢١٣.

(٣) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ص٦٤؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP.٢٠٧.

(٤) عصر المغول ، ص١٦٦.

ودلالة واضحة عن حجم التطور الهائل الذي كان قد طرأ على ممارسة عمليات الصيد عند المغول.

وعلى الرغم من النقلة النوعية التي أحدثها جنكيزخان وخلفاءه الذين جاؤوا من بعده في حياة المغول ومن ضمنها عاداتهم في الصيد، إلا أن ماركو بولو نقل لنا صورة مغايرة عن المغول عند ممارستهم عمليات الصيد التي فيها الكثير من الأبهة التي شاهدها ماركو بنفسه ودون إحداثها أبتداءاً من خامس أباطرة المغول قوبيلاي قاآن(١)، فيذكر أن عمليات الصيد تبدأ في مطلع فصل الشتاء من السنة وتستغرق زهاء ثلاثين يوماً حين يشرع القاآن عن بدأ عمليات الصيد فيبدأ أولاً قارعو الطبول بالأنتشار في محيط غابة الحيوانات ، وعند وصول القاآن الأعظم مع حاشيته المكان المحدد تطلق كلاب الصيد والصقور والأسود المدربة، يبدأ الزحف تدريجياً نحو مركز الغابة ، ويرافق قوبيلاي قاآن ما يقرب من عشرة الاف رجل على معرفة تامة بالصيد، وعدد لا يحصى من الصقور ولاسيما تلك الصقور التي تلاحق الطيور عند اصطيادها (٢).

ويلاحظ أن القاآن لم يكن يسمح بتجمع العساكر المرافقين له في مكان واحد بل يعمد على تقسيمهم إلى فرق عديدة تتكون الواحدة منها من مائة أو مائتين أو أكثر ويسيرون بأتجاهات مختلفة وراء الطرائد وأصطيادها، بعد تطويقها وأسرها يعودون بها إلى القاآن(٣).

وفي المساء ينزل القاآن في مخيم كبير تقام حولها خيام أبنائه الذين رافقوه وكانت خيم القاآن واسعة جداً بحيث تستوعب وجود عشرة الاف جندي على حد

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج ٢، صص ٥٢-٦٢؛ ريشارد، ماركو بولو مغامرته واستكشافاته، صص ٥٨-٦٣.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، صص ٥٢-٥٤؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص٥٨.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص٦١؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص٥٩.

قول ماركو بولو تضم في ثناياها فضلاً عن ذلك أعداد من الحرس والاطباء والمنجمين والمرافقين له ، وفي مؤخرة المخيم نجد غرفة واسعة وجميلة مخصصة لنوم القآن، فيما تنصب خيمة أخرى مجاورة لنساء القآن الذي كان يرسل لهن بعض الصقور لكي يتاح لهن مشاركة التمتع بتلك الممارسات والهوايات [(١)].

ويذكر ريشارد" أن قوبيلاي قآن كان يستمتع برحلات الصيد هذه لدرجة لا يمكن لشاهد عيان أن يتصورها، وكان الصيد فخماً بصورة لا يمكن وصفها حتى أن القآن لا يتخلى عن ممارسة الصيد طيلة طريق عودته إلى عاصمته خان باليق "[(٢)]، "[(٢)]، ويذكر أنه كان يحظر على التجار والمزارعين في جميع أنحاء الامبراطورية المغولية أقتناء النسور أو الصقور أو اي طير اخر، وكذلك حيازة كلاب الصيد التي تصاحبها حتى لا يسمح لأي شخص مهما كانت خبرته في الاصطياد ومطاردة الطيور من مساحة كبيرة من القصر الملكي ما لم يكن أسمه مسجلاً في قائمة كبير حافظي الطيور، ويحدثنا ماركو بولو أنه من أجل الحفاظ على تلك الحيوانات وبقائها وتكاثرها كان قوبيلاي قآن قد أصدر أمراً منع فيه من أصطياد تلك الحيوانات والطيور الكبيرة في الفترة التي تمتد بين شهري اذار وتشرين الأول من كل عام[(٣)]، وهي الفترة التي تعقب عمليات أنتهاء موسم الصيد، ويشمل ذلك الحظر جميع الناس بما فيهم المقربين من القآن بما في ذلك طبقة الأمراء والنبلاء والافراد الكبار من اسرته ، وفي الوقت نفسه كان على حكام الولايات من الأمراء المغول أن يبعثوا إلى البلاط ما يتم أصطياده من الحيوانات الكبيرة كالخنازير البرية والغزلان والدببة والطيور النادرة، ويشير ماركو بولو أن قوبيلاي قآن كان يسند مهمة الصيد هذه لأخوين هما كل من (بيان) و (منجان) اللذين كانا يعرفان بمهاراتهم وخبراتهم في

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص٦١؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص٦٠.

(٢) ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٦١.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص ٥٧-٦١؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ٦١.

طرق ممارسة الصيد، وكان الاخوين مسؤولان عن توفير كلاب الصيد، وتحت أمرتهما حسبما يقال عشرة الآف صياد لتسلم الأوامر ، وكانت الفرقة التي يترأسها بيان تتخذ باللون الاحمر في حين كانت تزدان فرقة منجان باللون الازرق للتميز بين الفرقتين، وكان يتحتم على هذين الاخوين أن يزودا البلاط يومياً بالف فريسة خلال موسم الصيد، فضلاً عن عدد كبير من الأسماك [١]. ويبدو أن ولع قوبيلاي قاآن بالصيد كان كبيراً ومفرطاً في تناول اللحوم حييث أدى إلى اصابته بمرض النقرس الذي توفي فيه فيما بعد [٢].

في الطب والممارسات الطبية لدى المغول

لم يعرف عن المغول أجادتهم لمهنة الطب لاسيما قبل قيام أمبراطوريتهم وكان ممارستهم لها شأنهم في ذلك شان غيرهم من الشعوب الرعوية حيث يلجأ المرضى من الناس إلى الكهنة ورجال الدين للتطبب الذين عرفوا باسم بـ (الشامان) في الديانة المغولية لينالوا الشفاء منهم ، فعند مرض أي شخص من أفراد القبيلة فإن اللجوء إلى هؤلاء الكهنة والشفاء عن طريقهم أمر مسَلم به ، وكان هؤلاء الكهنة يقومون باعمال من السحر والشعوذة على المريض لشفائه ، وكان يحصل ذلك حتى بعد اقرار قوانين الياسا التي قضت بموجب أوامر جنكيزخان بمعاقبة كل من يقوم بأعمال السحر، إلا إن المغول لم يعدوا ما يقوم به هؤلاء الكهنة سحراً بل كانوا يعدونه جزءاً لا يتجزأ من فلسفة العقيدة الشامانية وأصولها لكونهم وسطاء ما بين الآله تنغري وإفراد المجتمع المغولي على نحو ما يعتقد عامة الناس[٣].

---

(١) ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ج ٢، ص٥٤؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، صص ٦٢-٦٣.

(٢)Morris Russabi, Khubiali khan, P. ٢٢٧.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص ٢٨٣؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP.٢٢٠.

وبعد قيام الإمبراطورية المغولية من لدن جنكيزخان بدأ أهتمام قاآنات المغول في أستخدام الطب بشكل ملفت للنظر ولاسيما بعد توسع الإمبراطورية وقيام الحروب ، واحتكاكهم بمجتمعات لها باع طويل في تطور مهنة الطب وخصوصياته، والحقيقة أن هذا الاهتمام المتزايد في الطب نابع من كونه قد أصبح حاجة فطرية يحتاج إليه الفرد المغولي لمعالجة أمراضه الوبائية السائدة لديهم منذ وقت طويل . ويلاحظ أن رؤساء المغول من السلاطين والأمراء نظروا إلى الأطباء عند المجتمعات التي أخضعوها نظرة أحترام وتقدير فكانوا يصاحبونهم أثناء عمليات الغزو ولمعالجة إمراضهم وتضميد جرحاهم، وفي بعض الأحيان كانوا يضعوهم في أعلى المراتب، فقد جعل أرغون خان من طبيبه الخاص سعد الدولة اليهودي بمنصب صاحب ديوان الممالك تثميناً لجهوده [(١)]، فيما نال الطبيب والمؤرخ رشيد الدين الهمذاني حظوة كبيرة عند المغول ، وتقلد منصب الوزارة لثلاثة من سلاطين الايلخانيين[(٢)]. في حين أن رويات ماركو بولو تشهد على أن تحول جذري قد حدث في ممارسة الطب لدى هؤلاء المغول، ولاسيما في العاصمة خان باليق، فقد انشأ المسؤولين المغول من الأمراء عدد من المستشفيات، وأستعانوا بعدد من الاطباء ولاسيما الصينيين منهم لمعالجة المصابين[(٣)]، وفي هذا الشأن يذكر ماركو بولو " أنه يوجد عدد من الاطباء أصحاب المهارة الفائقة ممن يستطيعون التحقق تماماً من طبيعة أي علة تصيب الانسان ويعرفون كيف يصفون العلاج الناجح لشفاء للمرضى"[(٤)] وهذا النص الوارد عند الرحالة البندقي كفيل بأعطاء فكرة عن حجم التغيير الحاصل في ممارسة مهنة الطب لدى المغول بعد تحولهم من مجتمع رعوي إلى دولة قائمة، وأستبدال الاساليب الروحانية المستخدمة بأساليب

---

(١) خواندمير، دستور الوزراء، ص ٣٥٩؛ عبد الرحمن فرطوس حيدر، سعد الدولة ودوره في اعلاء شأن اليهود اثناء الحكم الايلخاني(مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد،ع ٧٩، ٢٠٠٧م)،ص٩٣.

(٢) الصياد، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين بن فضل الله الهمذاني، صص ٩٠-٩٢.

(٣)Herbart Franke, The Cambridge History of China, (Cambridge ٢٠٠٨), Vol, P٤٥١.

(٤) رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص ١٦٦.

علمية بحتة ، وهو ما أدى إلى أن يدخلوا عدداً من الطرق والاساليب الطبية المعروفة عند ممارسة المهنة وديموميتها، فمثلاً شاع لدى الاطباء أستخدام العلاج بالوخز بالابر والتدليك والتداوي بالاعشاب والكي بالنار فضلاً عن تجبير العظام وغيرها من أساليب العلاج الانساني التي أختص بها الصينيون، ولم يقتصر الأمر على أستفادة المغول من الأساليب الصينية فحسب بل أن بعض المغول في بلادهم أشتهر بممارسة الطب ايضاً ، ونالوا شهرة كبيرة بين إقرانهم الصينيين كالطبيب المسمى هوشي هوي الذي ألف مصنف عن الحمية والتوازن الغذائي، والطبيب كيجو الذي أشتهر بمعالجة امراض السل [1]، وعلى الرغم من هذا التطور الهائل في ممارسة الطب ألا أن بعض المغول حافظوا على عاداتهم التقليدية بالعلاج فيما يتصل بعقيدتهم الشامانية، ولاسيما أولئك الذين أنساحوا في المدن الاقل تمدناً بعيداً عن العاصمة خان باليق[2]، ويذكر ماركو بولو في هذا الشأن " أن في بعض المناطق في الصين كانوا لا يعرفون الطب فمتى ما اصيب شخص بمرض ما ترسله عائلته إلى الكهنة الشامان لشفائه ، الذين يقيموا الذبائح، ويضربوا على الآت، وينشدوا الترانيم إلى الآله لشفائه، وعندئذ يسئلون الشخص المريض عن سبب علته فتجيب الروح الشريرة وقتئذ على فم المريض بأن سبب المرض هو جريرة أرتكبت منه في حق الآله[3]، وحينها يقوم الكهنة الشامانيين الصلوات عليه متضرعين من الآله العفو عنه"[4]، وهذه الرواية التي أوردها ماركو بولو تؤكد مرة أخرى على سياسة التمازج الناجعة التي أتبعها المغول ما بين المحافظة على عاداتهم التقليدية وأنفتاحهم على المجتمعات والثقافات الأخرى التي أسهمت بشكل كبير في جعل

---

(١) لاين، عصر المغول، ص ١٩٩ وما بعدها .
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص ١٢٢.
(٣) يشير ماركو بولو إلى أن هؤلاء سحرة من أهل التبت، وهم سحرة مكرة يجيدون أستحضار الارواح ، ويقوموا بأفعال شيطانية. للمزيد عن هؤلاء السحرة انظر:
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP.١٤٢.
(٤) رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص ١٢٢.

الإمبراطورية المغولية ، واحدة من أكبر إمبراطوريات التي عرفها البشر في التاريخ [١].

علم الفلك والتنجيم عند المغول

كان للمغول عادات محلية ووسائل بسيطة للغاية في معرفة أحوال علم الفلك والتنجيم، كما كانت لهم محاولات بدائية لربط هذا المجال بحياتهم المجتمعية العامة، وجاء تقسيم المغول للتقويم الزمني على شكل دورة مؤلفة من أثنا عشر عاماً تتكرر الواحدة تلو الأخرى بعد انقضائها، وتبدأ السنة المغولية عادة في الأول من شهر شباط ، وفي هذا السياق أطلق المغول على كل عام أسماً لأحد الحيوانات حيث تبدأ بعام الفار وتنتهي بالخنزير، وهي حسب التسلسل (الفار، والثور، والاسد، والارنب، والتنين، والثعبان، والحصان، والشاة، والقرد، والديك، والكلب، والخنزير)[٢].

وفضلاً عن أستخدام علم الفلك كان المغول يستعينون بعدد من المنجمين الذين يقومون بالتنبؤ بالظواهر الطبيعية كالرعد والمطر والعواصف وغيرها التي تؤثر في حياة المغول العامة ، فضلاً عن التنبؤ بأحوال الطبيعة وما ورائها وكان المغول يستشيرون بدورهم هؤلاء المنجمين عند نيتهم القيام بعمل كبير يتطلب معرفة حسن الطالع كالتنبؤ بما ستئول إليه أمور الحياة والحرب ومعرفة مدى النجاح الذي سيتحقق فيها، ولاسيما عند القيام بالغزوات الكبرى التي يضطلع بها عساكرهم . وتشير المصادر إلى عدد من المرويات التي أستعان فيها رجال المغول بهؤلاء المنجمين لكشف حسن الطالع كانت كثيرة لعل أشهرها على ما يبدو هو ما أقدم عليه هولاكو حفيد جنكيزخان عند قراره غزو بغداد عاصمة الخلافة العباسية إذ عمد إلى أستشارة أحد هؤلاء المنجمين قبيل غزو المغول لبغداد ويدعى حسام الدين

---

(١)Morris Russabi, Khubiali khan, PP. ٣٩-٤٠.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج ٢، ص ٢٥٤؛
Herbart Franke , The Cambridge History of China,Vol ٦, P. ٤٥١.

المنجم [١] الذي يبدو أنه أنتهز الفرصة مع المغول ورسم صورة قاتمة لهولاكو في حال إقدامه على غزو حاضرة دار الخلافة العباسية محذراً أياه أنه في حال غزوه لعاصمة بلاد الخليفة العباسي فإن العالم سيشهد نهاية الدنيا، وتحدث عن كوارث كبرى ستقع، كموت العساكر والخيول، وغياب الشمس، وأنقطاع الامطار، وسيموت القآن الأعظم في هذه السنة[٢]. غير أن تصميم هولاكو على أنجاز تلك المهمة العسكرية جعله يقدم على استشارة فلكي اخر وهو نصير الدين الطوسي[٣]، الذي طرح عليه ذات السؤال بالقول ماذا سيحصل لو غزا المغول بغداد؟ فأجابه الطوسي لن تقع أية واقعة من تلك الاحداث التي ذكرها حسام الدين المنجم، فرد عليه هولاكو أذن ماذا سيكون، فأجابه الطوسي أن هولاكو سيحل محل الخليفة حاكماً للبلاد، وقد عزز الطوسي رأيه بأدلة مثل قتل الخلفاء العباسيين بعضهم لبعض من دون أن يحدث أي اختلال في شأن الكون ومكوناته وهذا النص يشير بصراحة إلى أستعانة المغول بهؤلاء المنجمين قبل قيامهم بالأعمال الكبيرة [٤].

غير أن اختلاط المغول بالامم المجاورة، وبعد جيلين من حكمهم أنزوت الكثير من عقائد الاجداد وتقاليدهم، وأمتزجت بعادات وتقاليد المغلوبين، ومن هنا

---

(١) تتضارب الروايات فيما اذا كان حسام الدين المنجم يمثل حالة عامة للتنجيم ضد هولاكو خان من مخاطر الغزو أو أنه كان يمثل الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) الذي أرسله بناء على طلبه ليكون عقبة بوجه الغزو، إلا أن معظم الاراء ترجح أن هولاكو خان أستعان به بعد استشارة هولاكو المقربين منه الذين أختلفوا فيما بينهم فكان كل يبدي برأيه فطلب هولاكو حضور حسام الدين المنجم للأستعانه برأيه. للمزيد انظر: عباس العزاوي، العراق بين احتلالين، ج١، صص ١٦٥-١٦٦.

(٢) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، صص ٢٧٩-٢٨٠.

(٣) نصير الدين الطوسي: وهو الفيلسوف والفلكي والطبيب، كان على المذهب الأسماعيلي، ويعتقد انه تحول إلى مذهب الشيعة الاثني عشرية ، وقد نال حظوة كبيرة عند هولاكو خان الذي قدم له الدعم في انشاء مرصد فلكي في مراغة، وهو المرصد الذي أصبح مناراً للعلم إذ أحتوى على ما يزيد عن اربعمائة الف كتاب في مختلف العلوم، وقد أثارت مشورته إلى هولاكو قبيل غزوه لبغداد إلى إتهامه بالخيانة العظمى. للمزيد انظر: م. م رمزي، تلفيق الاخبار وتلقيح الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م)، ج١، ص ٤٤١؛ عباس العزاوي، تاريخ علم الفلك (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨)، ٣٥.

(٤) رشيد الدين، جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٨٠.

ظهر أتجاه جديد في علم الفلك عند المغول عن طريق الأفادة من علماء الفلك الصينيين والمسلمين وغيرهم، والحقيقة أن ماركو بولو هو من أكثر الرحالة الذي أعطى وصفاً عن نتائج هذا التمازج عندما وصف ما وصل إليه هذا العلم في عهد قوبيلاي قاآن(١)، إذ ذكر أنه يوجد في العاصمة خان باليق عدد كبير من المنجمين يقدر أعدادهم ما يقرب من خمسة الاف منجم ، وعلى الرغم من أننا نشكك في وجود مثل هذا العدد الكبير من المنجمين الذي يبدو مبالغاً فيه على حد رواية ماركو بولو(٢)، إلا أن عدد هؤلاء يبقى كبيراً إذ كان المغول يوظفون في مؤسساتهم الفلكية كل من له خبرة في هذا الحقل من مختلف البلدان والخلفيات الاثنية ، وهم يمارسون عملهم على مدار اليوم، وكانت لديهم الإسطرلابات(٣) الفلكية ، ليراقبوا فيها الكواكب، ومسالك الاجرام السماوية، والتنبؤ بالظواهر الطبيعية كالمطر والرعد والعواصف وغيرها (٤).

وعن طريقة عمل هؤلاء المنجمين يورد ماركو بولو القول أن هؤلاء المنجمين كانوا يضعون جداول على مدار السنة يكشفون من خلالها ما سيكون عليه حال الطقس بناءاً على حركة الكواكب ودورانها ، ومن خلال ذلك كانوا يتنبئون بالإمطار والعواصف والزلازل ونحوها، وهؤلاء المنجمون يدونون تنبؤاتهم في أوراق تسمى (تكويني)، فمن تثبت منهم توقعاته وضعه القاآن الأعظم في موضع الاحترام والتقدير (٥).

---

(١)Herbart Franke, The Cambridge History Of China,Vol ٦, P. ٤٥٢.

(٢) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٨٢؛
Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, P. ٩٧.

(٣) الاسطرلاب: وهو آلة فلكية تستخدم لقياس الاجرام السماوية، وتحديد درجات الطول والعرض، وتحديد مواقع النجوم، وقد أطلق عليه العرب أسم ذات الصفائح، وللأسطولاب عدة أسماء في الغالب تشتق من شكلها كالاسطرلاب الهلالي والزورقي والصدفي وغيرها. للمزيد انظر: محمد بن احمد بن يوسف الخوارزمي(٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)، مفاتيح العلوم، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٩م)، صص ٢٥٣-٢٥٤؛ عباس العزاوي، تاريخ علم الفلك في العراق، ص ٣٥٣.

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٨٢.

(٥) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٨٢.

وعلى عادة المغول في أستشارة المنجمين في القضايا المهمة، فإن قوبيلاي قاآن عندما نقل العاصمة من قراقورم إلى الصين كان قد أستقى رأي المنجمين فأشاروا عليه أن يتخذ من خان باليق عاصمة دون غيرها من المدن، وأن هذه المدينة بحسب المنجمين مقدور عليها في حالة أن تمرد أهلها على سلطانه (١)، وفي حالى اخرى عندما أشار أحد المنجمين إلى أن من يزرع الأشجار يكافيء بطول العمر ومن أجل ذلك أمر قوبيلاي قاآن بزرع عدد كبير من الاشجار لاسيما في جوانب الطرق وتعميرها بموجب تلك النصيحة (٢).

ويتضح مما سبق أن ماركو بولو في مروياته يدرك مدى أستعانة المغول بالمنجمين نتيجة تأثرهم بمخاوف الامم المغلوبة لاسيما الصينيين منهم الذين أعتادوا أن يقرروا الكثير من أمورهم الاجتماعية اليومية كالزواج وحسن الفأل وغيرها بأستشارة هؤلاء المنجمين قبل أقدامهم على تقرير تلك الأمور وصيرورتها (٣).

في اعمال السحر والخرافات

كان المغول مثل غيرهم من الأمم الرعوية على أعتقاد راسخ بتأثير السحر والمشعوذين في التحكم بقوى الانسان العقلية، والأيمان المطلق بأثر القوى الغيبية على حياتهم، لأسباب عديدة أهمها عدم اختلاطهم في بيئتهم الاجتماعية بسكان أهل المدن فكانوا يرون أن تأثيراً كبيراً يقع على حياتهم من لدن هؤلاء السحرة والمشعوذين في مدنهم (٤).

ومن أجل ذلك خشي المغول وغيرهم أمر هؤلاء السحرة، ووضعوا عقوبات رادعة بحقهم لأغراض المعاقبة على نحو ما نصت عليها قوانين الياسا صراحة

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٧.
(٣)Herbart Franke, The Cambridge History of China,Vol ٦, P. ٤٥١.
(٤) عباس اقبال، تاريخ المغول، ص ١١٩؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ١٤٢.

التي تصل عقوبتها حتى الموت لكل من مارس السحر أو الشعوذة على نحو ما نصت عليه أحد فقرات الياسا " بأن من مارس السحر قتل"(١)، وكان المغول ينظرون إلى الكهنة الشامانيون (رجال الدين المغول) على أنهم البديل لهؤلاء السحرة ولهم المقدرة على أبطال مفعول أعمالهم وقدراتهم السحرية ، وترويض الارواح الشريرة لديهم ، وتخليص الناس من شرورهم، ولدينا عدد من المرويات التي تؤكد خشية المغول من الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق، وتحميل هؤلاء السحرة بأعمالهم المشينة تلك مسؤلية حدوث تلك الظواهر نتيجة أعمالهم التي تسبب في غضب الالهة (٢).

ويلاحظ أن ماركو بولو على ما يبدو قد تأثر بأعتقادات المغول بتلك القوة الخفية، وتلك الارواح الشريرة الناتجة عن قيام السحرة بأعمالهم حتى يروي أنه قد سمع قصصاً عن تلك الارواح الشريرة التي كانت تؤدي إلى وفاة أعداد من الناس في صحراء غوبي القاحلة (٣)، ويذكر ماركو بولو أنه تردد في بادئ الأمر على الاقتراب من مشارف تلك الصحاري، وعند دخوله مع القافلة بتلك الصحاري تأكدت له تلك المخاوف بقوله " أنه سمع تلك الارواح بنفسه تنادي بأسمائنا" ، ولا يساورنا أدنى شك في ان تلك الرواية الاخيرة قد وضعها ماركو بولو أما أنها مختلقة وهو مايحدث لدى الكثير من الرحالة ، أو أنه سمع أصوات الرياح العاتية القوية وهي في متاهات الرحلة فظن أنها تنادي بأسمائهم مع شيوع ما سمعه من أهوال هؤلاء السحرة ، وهو ما أدى إلى أعتقاده هذا حقيقة لا لبس فيه (٤).

ومن جهة أخرى ينقل ماركو بولو أنه شاهد بعض السحرة في أحد قصور قوبيلاي، وهو تناقض صريح لقوانين الياسا التي تنص على معاقبة هؤلاء السحرة

---

(١) عباس اقبال، تاريخ المغول، ص ١١٩؛الصياد، المغول في التاريخ، صص ٣٥٤-٣٥٥.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص ١١٥-١١٦.
(٣)Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, PP. ٧١-٧٢.
(٤) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشفاته، ص ٢٨.

أينما وجدوا، وهي واحدة من جملة قضايا أضطر المغول للقبول بها ومواكبتها ولاسيما بعد أنفتاحهم على الشعوب والأقوام الأخرى [1]، حينما ذكر " أنه شاهد بنفسه في القصر القاآني مخلوقين عجيبين هما أقرب إلى شكل الحيوان منهما إلى الانسان، وهم بشعور قذرة طويلة، وملامح وحشية، كانا يستطيعان أن يمدا القاآن في ولائمه باقداح من الخمر التي تنتقل إليه عبر الهواء، فاذا ما شربهما رجعت اليهما الاقداح عبر الهواء ايضاً دون أن يلمسها احد". وفي رأينا أن مثل تلك الرواية تخالف حقيقة، ولا نعلم فيما اذا كان ماركو بولو قد وضعها من تلقاء نفسه ، أو أن هذين المخلوقين كانا يمتلكان المهارة في فنون السحر لما يعرف بالوقت الحاضر بالخدع البصرية، ومهما يكن من أمر فإن مثل تلك الرواية مختلقة وتخالف الحقيقية بالمرة [2].

ويروي ماركو بولو أنه لاحظ وجود صنفين من السحرة وهما أولئك الذين يحملون النية الطيبة ، وهؤلاء لا هدف لهم سوى مساعدة الناس، واستعلام ما يخفيه المستقبل لهم بهدف أشاعة الخير بينهم ، والنوع الأخر هم صنف السحرة المكرة، وهم الذين يفعلون الافعال الشيطانية ويدعون السيطرة على تصرفاتها والأدعاء بأستحضار الارواح الشريرة ويخص هؤلاء أفراد من أهل التبت [3].

---

(١) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٦٥؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP. ١٤٢-١٤٣.

(٢) الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٣٦٥ ؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP. ١٤٢.
(٣)Ibid, P. ١٤٢.

ماركو بولو ووسائل الترفيه والتسلية لدى المغول

أشتهر المغول بصفات تقوم على الجد في العمل، وتكاد تختلف عن الشعوب الأخرى في مضامينها، وتحمل مواصفات العيش في البيئة القاسية، كما أن لشغف المغول الشديد في القتال أثر كبير في سلوكيات الفرد والمجتمع المغولي التي جعلت منه تلك الظروف أنساناً جاداً لا يميل إلى وسائل اللهو والترفيه، مع أن هذه المسائل تعد من ضروريات الحياة ومن الحاجات الفطرية التي يحتاجها بني الانسان عموماً وأحد اركان وجوانب الحياة الاجتماعية عند الشعوب، ولكن على الرغم من كل هذا القول يظل الفرد المغولي ليس أستثناء من المجتمعات الأخرى في الاقبال على وسائل الترفيه والنزهة رغم محدوديتها، إذ عرف عن المغول ممارستهم لبعض وسائل التسلية والترفيه [1]، ولعل من أهم وسائل التسلية، وأكثرها ممارسة عندهم هي رياضة الفروسية والصيد حتى يبقوا ذكور أشداء داخل المجتمع المغولي ، وهي وسائل فطرية ينشأ عليها عادة الفرد المغولي من أجل الحفاظ على شدته وصلابته والحقيقة أن هاتين الوسيلتين كانت من الضرورات الملحة لدى الفرد المغولي فكانت فضلاً عن كونها وسيلة من وسائل التسلية الاساسية تعد في الوقت نفسه تدريباً استعداداً ليوم القتال، لذا كان المغولي منذ نعومة أظفاره يتعلم الفروسية والرماية وهو على صهوة الجياد، ويسود مثل تلك التدريبات حالات من التنافس والتباري والتحفز بين فرد وأخر بشكل يتشابه إلى حد بعيد المسابقات في وقتنا الحاضر، ويصاحب ذلك استعمال الاقواس والسهام والرماح والرماية في أجواء مغولية تسعد الحاضرين .

أما مكونات الصيد ومطاردة الحيوانات والطيور فكانت بحد ذاتها تعد من أهم وسائل الترفيه عند المغول لأنها كانت ترتبط بشكل مباشر بحياتهم المعيشية في

---

(١) فهي، الدولة المغولية في ايران، ص١٢؛ الصاوي، هولاكو الامير السفاح ، صص ٧١-٧٢.

كونها من أهم مصادر الرزق لديهم، وفي هذا السياق برع بعض الهواة الذين كانوا يجيدون صيد النسور والصقور وبعض الطيور النادرة (١).

وعندما تولى المغول حكم الصين، واجه حكامهم مجتمع يكاد يختلف أختلافاً جذرياً عن بلدهم الام، ولا يمت بصلة للتقاليد البدوية البسيطة التي كانوا عليها، ولا يذخر جهداً في سبيل ممارسة أنواع مختلفة من التسلية ، فقد عرف عن الصينيين أهتمامهم الشديد بتنظيم الاحتفالات والمهرجانات، فضلاً عن وجود أعداد كبيرة من النساء البغايا اللاتي كن يقدمن خدماتهن الجنسية مقابل مقدار من المال في كل المدن الصينية وكان المغول قد وجدوا أنفسهم مجبرين على التعامل مع هذا الواقع الجديد (٢)، ولزاماً عليهم قبول تلك العادات ومسايرتها على الرغم من أعتراضهم على بعض تلك العادات ولاسيما في بداية أحتكاكهم بتلك الشعوب، وبهذا الخصوص يروي ماركو بولو أنه في زمن منكوقاآن عندما بدأ حملته على الصين، وعند غزو أحد المناطق رأى هذا القاآن بنفسه رجال منغمسين في الملذات والضرب على الآت الموسيقية والغناء والرقص، وعندما يحل الغرباء بينهم، فأنهم يوفرون لهم بلا أستحياء مساكن للأيواء والملذات مع نساء المدينة لأشباع رغباتهم مقابل المال (٣)، ويضيف الرحالة ماركو بولو أن منكوقاآن مقت تلك العادات الخاصة بالغرباء بقوله " لما يظهر عليكم بالغ اللهفة، والاستمرار في شناركم وخزيكم، عليكم الأمر كما تريدون، فاذهبوا وعيشوا حسب عاداتكم وأعرافكم الدنيئة، وأسمحوا لزوجاتكم تقبل تلك الاجور الحقيرة عن بغائهن"(٤)، وفي الواقع أننا نجد أن مقت منكوقاآن لتلك العادات كما وردت في رواية ماركو بولو كان لتعارضها مع قيم المغول وعاداتهم

---

(١) لاين، عصر المغول ، ص ١٦٦؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP. ٢٠٥-٢٠٨.

(٢)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, pp. ٢٩١-٢٩٢.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص ١٢٢-١٢٣.

(٤) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٢٣.

وما إقرته قوانين الياسا التي تقضي بقتل كل من يمارس الزنا ، لكنه في ذات الوقت وعلى الرغم من هذا الاكراه لتلك العادات فالرواية تشير بوضوح إلى تقبل المغول لهذه العادات مكرهين، وتعليقهم لعقاب مرتكبها وفقاً لتلك القوانين [(١)] وذلك طبقاً لما تقتضيه أوضاعهم الجديدة ، غير أن هذا الاكراه وعدم التقبل تغير بمرور الوقت إلى الانفتاح على تلك العادات وأستيعابها بل وحتى تشجيعها إذ نقل لنا ماركو بولو رواية أخرى في زمن قوبيلاي قاآن مفادها " يبلغ عدد العاهرات [(٢)] في خان باليق وحدها ما يزيد عن خمسة وعشرين الف منهن، حتى أن القاآن جعل عن كل مائة منهن مشرف يأتمرن بأوامره ، وعندما يصل سفراء مكلفون بأي عمل في الصين يتصل بمصالح القاآن كانت العادة تجري على هؤلاء العاهرات تقديم الخدمات لضيوفهن ، لكي يعاملوا بابلغ التكريم حيث يؤمر المشرف بتزويد كل فرد من أفراد السفارة كل ليلة بأحدى تلكم العاهرات التي يجري تغيرها بواحدة أخرى كل ليلة وهي خدمة مجانية لا يتقاضين عليها هؤلاء النسوة أي أجر لأنها تعد شبه أتاوة عليهن واجب تقديمها"[(٣)]. وفي ضوء أستقراء الروايتين الأولى في زمن منكوقاآن والثانية في زمن قوبيلاي قاآن يتبين حصول تحول جذري بين الحالتين فبعد رفض تلك العادات ايام منكو قاآن أصبحت الدولة راعية لتلك القيم الصينية بل وتنظيم عمل هؤلاء البغايا، التي أصبحت حالة مألوفة لدى أعلى السلطات ، وهو ما ينقض بشكل صريح قوانين الياسا التي تعد الزنا جرماً يستوجب عليه عقوبة القتل وحقيقة الأمر الواقع أن القاآن رضخ في النهاية لعادات تلك المجتمعات وتقاليدهم، ولاسيما أن عمل تلك النسوة كان يعد من أهم وسائل التسلية المتاحة دوماً، فضلاً عما يوفره

---

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، صص ٦١-٦٥؛ الخالدي، العالم الاسلامي والغزو المغولي، ص ٣٢.
(٢) المصطلح كما ورد في النص.
(٣) رحلات ماركو بولو، ج، صص ٣٤-٣٥.

عملهن من مبالغ طائلة توفرها للدولة بفعل الضرائب الباهظة المفروضة على عملهن [١].

ومن وسائل التسلية التي ذكرها ماركو بولو في مدينة كين ساي الصينية هي المراكب الذهبية التي يتراوح طولها ما بين خمسة عشر متراً إلى عشرين متراً وهذه سفن منبسطة خاصة تستخدم عادة في الاحتفالات ومراسيم الزواج وغيرها، وفيها عدد من المقاعد لأقامة المآدب، فضلا عن الغرف زاهية الالوان، وتسير حول المدينة ومحيطها يتخللها عروض الرقص والموسيقى والغناء [٢]

ومن وسائل التسلية الأخرى لدى هؤلاء المغول شيوع أستخدام الحمامات التي تنتشر في مناطق عدة من مدن الصين، كانت تقدم خدماتها لمرتاديها من الجنسين، وكان يؤمها أقبال كبير حيث يعتقد الصينيون أن ارتيادها فيه فائدة كبيرة لصحة أجسامهم ، وعلى أية حال مع وجود وسائل التسلية هذه حافظ المغول على وسائل التسلية التقليدية التي مارسوها في بلادهم كالفروسية والصيد جنباً إلى جنب مع وسائل التسلية الصينية التي أشرنا إليها[٣]

مراسيم دفن الموتى المغول

كان للمغول عادات وتقاليد عند أجراء مراسم الدفن تكاد تختلف أختلافاً جذرياً عما كان عند الشعوب والمجتمعات الأخرى، ومع أن تلك المجتمعات تكاد تتشابه في عملية أجراء مراسم دفن الموتى إلا أنه كانت توجد بعض السمات والمميزات ظلت مغولية الطابع بحيث أعطت لتلك المراسيم طابعاً مغولياً خاصاً بهم

---

(١) ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو،ج٢، ص ٣٤ ؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from venice to Xanadu, PP. ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ج٢ ، صص ١٧٦-١٧٧

(٣) لاين ،عصر المغول، صص ٢٥٥-٢٥٧؛ بياني ، المغول، ص ٣.

ولاسيما عند دفن موتاهم ، وكانت تلك المراسيم تختلف على أختلاف منزلة الشخص المتوفى فبينما تجري مراسيم الدفن للفرد المغولي المتوفي بالبساطة، وكانت تجري وقائعها تجري بشكل علني بحيث لا يدفن مع الميت سوى بعض الحاجات البسيطة ، في حين كانت مراسيم دفن الكبار من القاآن تجري على أعلى درجات الكتمان والسرية، وفي هذا السياق لا يعرف مكان دفن أي من القاآنات حتى الوقت الحاضر[١]، ولدينا عدد من الروايات تورد الاسباب التي تدعو المغول إلى أخفاء مكان قبور سلاطينهم أهمها النظرة المقدسة التي كان يحظى بها هؤلاء المتوفون والخشية من تدنيسها من قبل مجهولين بمرور الوقت [٢]، ويضيف المؤرخ وصاف الحضرة سبباً اخراً في أخفاء شواخص وقبور الاسرة الجنكيزخانية الحاكمة فيذكر " فضلاً عن النظرة المقدسة التي حظي بها هؤلاء القاآن فإن تلك القبور كانت تحتوي على عدد كبير من الكنوز والمجوهرات التي لا تقدر بثمن مدفونة بالقرب من لحد المتوفى، وهناك الخشية أن تتعرض مثل تلك المجوهرات إلى السرقة والاختفاء"[٣].

أما عن سبب عدم أعلان وفاة القاآن المتوفي حتى قيام مجلس أمراء المغول (القوريلتاي) الاعلان بذلك الذي يكون بعد أختيار قاآن جديد للمغول فيبدو أن ذلك يعود لأسباب سياسية وعسكرية واضحة، وهي الخشية من أرتفاع الروح المعنوية لأعداء الدولة في اكثر من منطقة في العالم، ولاسيما أن عملية اختيار القاآن الجديد كان يتطلب بعض الوقت لكي يحضر ممثلو الخانيات المغوليات المشاركة في أختيار تنصيب القاآن الجديد للبلاد [٤].

---

(١) لاين، عصر المغول ، ص ٢٥٧؛
Dohsson, Histore Des Mongols (Amesterdam, ١٨٥٢), Vol.١, P. ٣٨٤.

(٢) شيرين بياني، المغول التركيبة الدينية والسياسية، ص ٣٤ ؛ لاين، عصر المغول، صص ٢٥٥-٢٥٧.

(٣) تاريخ وصاف، ج٥، ص ١٢٣.

(٤) بياني، المغول التركيبة الدينية والسياسية، ص ٣٣؛

وعلى الرغم من تلك السرية التي تكتم على مكان قبور القاآنات ، إلا أن معظم المؤرخين يرجحون وجود تلك القبور في مكان ما في جبال ألتاي [١] الواقعة بين منغوليا والصين ، إذ كان المغول يفضلون دفن رموزهم في الاصقاع المرتفعة لكي يكونوا قرب الالهة بحسب معتقداتهم الشامانية، فمثلاً عندما تمرض جنكيزخان، وأحس بدنو أجله أوصى أبنائه وكبار قادته بكتمان خبر الوفاة حتى لا يؤثر ذلك على معنويات العساكر المغولية المنتشرة في أصقاع العالم ، ولجم فرص العدو في أستغلال حصول فراغ لمنصب القاآنية لمصلحته ، وعلى هذا الاساس سار المغول الذكور في أجراء مراسم دفن قاناآتهم[٢]، ويذكر المؤرخ رشيد الدين فضل الله أنه عندما توفي كيوك قاآن ثالث أباطرة المغول سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م " سدت الطرق جميعها، وصدرت الأومر بأن ينزل كل مسافر في الموقع الذي هو فيه خشية تسرب خبر وفاة كيوك قاآن قبل الاعلان الرسمي لوفاته من قبل مجلس أمراء القوريلتاي"[٣] إلا أن الأمر كان أكثر دموية عند وفاة منكوقاآن إذ قام الجند والحرس وقت أجراء مراسيم الدفن بقتل أعداد كبيرة من المارة ممن صادف وجودهم في أثناء سير الجنازة لأتمام مراسيم الدفن وقدر ماركو بولو وعدد اخر من المؤرخين بأن عدد من تم قتلهم تجاوز عشرين الفاً[٤]، بينما يقدر المستشرق دوسون (Dohsson) العدد بنحو الفين شخص فقط ، وعلى الرغم من هذا التفاوت الكبير بين الرقمين، وحتى لو أخذنا بصحة العدد الأدنى وهو الفين شخص ، إلا أن العدد

=Morris Russabi, Khubiali khan, P. ٥١.

(١) جبال ألتاي: وهي سلسلة جبال طويلة تقع بين منغوليا والصين، وتمتد حتى سيبيريا، وتشتهر بارتفاع قممها. للمزيد انظر: John Masefiled, Marco Polo's Silk Road, P. ٩٧.

(٢) شرين بياني، المغول، ص ٣٣.

(٣) تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ١٨٥.

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص ١٣٦-١٣٧.

بحد ذاته يبقى مهولاً ويظل شاهداً علي سياسة القتل العبثية عند هؤلاء المغول وأستهانتهم بالارواح البشرية، حتى وأن كان الضحايا ينتسبون إلى أبناء جلدتهم (١).

وكان من عادات المغول من الاسر الحاكمة أن يدفن مع القآن بعض المرافقات الجنائزية، مع أن تلك المرافقات تتحدد تبعاً لأختلاف مكانة المتوفى، إذ كان الهدف من وجود تلك الحاجيات هو مساعدة المتوفي في رحلته نحو العالم الأخر، ويذكر الرحالة الايطالي كاربيني (Carbini) أن من عادة المغول عند دفن موتاهم دفن عدد من الحاجيات مع المتوفي كالمجوهرات وبعض الحاجيات الضرورية مثل الخيول وما إلى ذلك ليكون مصدر للغذاء له (٢).

ومن جهة أخرى كانت تدفن مع القآنات وكبار الأمراء عدد من النسوة ذات الجمال الباهر ليكوّن انيساً له في الرحلة نحو العالم الأخر ، ويذكر مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله" أنه عندما توفي جنكيزخان دفن معه أربعين فتاة من الحسناوات من نسل الأمراء، اللاتي البسوهن أفضل الملابس الثمينة، وزينوا صدورهن بالمرصعات والجواهر"(٣)، وكذلك الحال عندما توفي هولاكو خان فقد دفنت معه عدد من الفتيات الجميلات حتى لا تصيبه الوحشة، فضلاً عن عدد المجوهرات والسبائك الذهبية (٤)،

في حين أن ماركو بولو ينقل لنا صورة مختلفة عن تلك العادات المغولية عند موتاهم ولاسيما في الصين، ومع ان ماركو بولو لم يشهد وفاة أي من القآنات خلال فترة تواجده في البلاط المغولي (٦٧٤-٦٩٢هـ/ ١٢٧٥-١٢٩٢م) التي أنتقلت فيها العاصمة من قراقورم إلى خان باليق، وما رافق ذلك من أعتناق قوبيلاي قآن

---

(١) Histore Des Mongols, Vol ١, P. ٣٨٤.
(٢) Juvani Dela Carbini, The History of the Mongol that we called them Tattar, P. ٥٩.
(٣) تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٣٠.
(٤) وصاف، تاريخ وصاف، ص ٢١٣؛ لاين ، عصر المغول، ص ٢٥٧.

للديانة البوذية [١]، وتطبع المغول بالقيم وتقاليد الصينية إذ أدى ذلك إلى وقوع تحول جذري في تلك العادات ، لذا كان من الطبيعي أن تكون الصورة مختلفة عما قد شهده المغول في العهود السابقة التي مزجت بين العادات المغولية والقيم الصينية السائدة[٢]، التي كانت طقوسها تقضي بحرق الموتى فيذكر ماركو بولو أنه " كان من عادات المغول في الصين عند وفاة اية شخصية كبيرة أو ميسورة يقام له بعض المراسيم الخاصة لأعلان وفاته حيث يرتدي أقارب المتوفى أناثاً وذكوراً ملابس صوفية خشنة لمرافقة الجثمان إلى المكان المعد لأحراق جسده ، ويصاحب ذلك إعمال في العزف على الآلات الموسيقية، وترتيل الصلوات بأعلى الاصوات حتى اذا ما وصلوا إلى الموقع المحدد وضعوا الجثمان، والقوا عليه قطع كبيرة من الورق القطني، وما أن تلتهم النيران الجثمان تتعالى أصوات الموسيقى محدثه ضجيجاً عالياً متواصلاً لساعات طويلة"[٣]، ومثل هذا النص من ماركو بولو يشير بوضوح إلى أنه كان شاهداً بنفسه على أن العادات البوذية التي تقضي بحرق الموتى التي أنتقلت من الصين وطغت على الكثير من المغول الذين أعتنقوا هذه الديانة تأثيراً بأهل الصين من بينهم قاآن المغول قوبيلاي نفسه [٤].

---

(١) الديانة البوذية: وهي ديانة تنتسب إلى غاوتاما بوذا، وقد ولد بوذا حوالي ٥٦٠ ق.م وتوفي في سنة ٤٨٠ق.م ، وكانت هذه الديانة قد نشأت في بدايتها الأولى في شمال الهند ثم انتشرت تدريجياً في بلاد التبت والصين ومنغوليا ومعظم مناطق شرق آسيا. للمزيد انظر: انيس محمود ، بلاد التبت بين الماضي والحاضر، ص ٢٨.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، صص ١٣٦-١٣٧؛
Morris Russabi, Khubiali khan, P. ٦٩.

(٣) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٧٩.

(٤) انيس محمود ، بلاد التبت بين الماضي والحاضر، ص ٢٨.

الفصل الثالث

مرويات ماركو بولو عن الدولة الايلخانية

الفصل الثالث
مرويات ماركو بولو عن الدولة الايلخانية

أمتازت مرويات وأخبار ماركو بولو عن حوادث الدولة الايلخانية وسلاطينها بين عهدي هولاكو وبايدو (٦٥٦-٦٩٥هـ/ ١٢٥٨-١٢٩٥م) بأهمية كبيرة من المعلومات لكونها تعد شهادة واقعية من رحالة أوربي معاصر لحملة المغول الكبرى على بلاد الخلافة وأطرافها لكون هذا البندقي يمثل أحد المقربين الأجانب الكبار الذين خدموا سلاطين المغول في عهد أسرة اليوان الحاكمة في الصين، مركز العالم الشرقي القديم وتكويناته الاثنوغرافية والبشرية، ومع أن هذه المرويات ينقصها الترتيب الزمني للوقائع ، إلا أنها روايات غاية في ألاهمية لأصالتها ومصداقيتها أولاً، ولأنها من حيث حقيقة الأمر الواقع مرويات شخصية مباشرة للرحالة البندقي ذاته، تكمل أقوال المصادر الأخرى في قضايا طالما كانت موضع للخلاف والجدل بين المؤرخين المحدثين أنفسهم ونظرائهم ايضاً من أوربيين ومشرقيين معاً.

أضف إلى ذلك فإن تغطية ماركو بولو لأخبار الدولة الايلخانية أمتازت بالسعة والشمولية لايفوقها في أدبياتها سوى تغطيته المهمة لمركز الامبراطورية الصينية نفسها التي كان يعيش في أحضانها، ذلك الاهتمام الذي تجاوز في سرد المعلومات عن وقائع الخانيات المغولية الأخرى على نحو من دولة القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق أو دولة مغول الجغتاي في بلاد ما وراء النهر اللتان لم تنالا حظاً وافراً من الاهتمام سوى بروايات محدودة من ماركو بولو عن أخبار سلاطينها وأمرائها.

وفي المقابل يورد ماركو بولو عن وقائع وغزوات الدولة الايلخانية تفاصيل في مسائل مفصلية من تاريخها مثل أسباب حملة هولاكو الشهيرة على المشرق الاسلامي، ووقائع قضاءه على الدولة الأسماعيلية في شمال ايران، وأجتياح الخلافة

العباسية التي دامت لأكثر من خمسة قرون، وقتل أخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م)، فضلاً عن تغطيته لحروب الدولة الايلخانية مع أبناء عمومتهم من المغول في كل من بلاد ما وراء النهر والقبجاق. وفي هذا المحتوى يعطى الرحالة البندقي أهتماماً متميزاً للأوضاع الداخلية في الدولة الايلخانية الجديدة القائمة في ايران والعراق، ومنها على سبيل المثال النزاع الذي كان قد نشب بين السلطان احمد تكودار المعتنق للاسلام وخصمه الايلخاني ارغون الذي كان يحظى بدعم مناوئى التوجه الاسلامي الجديد من الأمراء المغول ، فضلاً عن سرده للحوادث المهمة في عهدي الايلخان كيخاتو وغريمه بايدو خان ، وفي هذا السياق نذكر أن مرويات ماركو بولو قد توقفت عند أرتقاء السلطان محمود غازان عرش السلطة الايلخانية(٦٩٥هـ/١٢٩٥م) إذ لم يشر بعد هذا التاريخ لأي اخبار فيما يخص هذه الدولة لكون هذا الحدث قد ترافق مع عودة هذا الرحالة الأوربي إلى وطنه الام البندقية بعد رحلة دامت زهاء سبعة عشر عاماً. وتبعاً لهذه الأهمية سنشرع بمرويات من الرحالة ماركو بولو أولاً على نحو ما جاءت في حملة هولاكو الدولة الأسماعيلية .

عن حملة هولاكو على الدولة الأسماعيلية ونهايتها

تعد مرويات ماركوبولو ذات أهمية بالغة عن الدولة الأسماعيلية [١] التي أقامها داعي دعاة الأسماعيلية حسن الصباح [٢] (٤٤٠-٥١٨هـ/ ١٠٥٠- ١١٢٥م)

---

(١) الأسماعيلية: وهي أحد الفرق الاسلامية التي نشأت بعد وفاة الامام جعفر الصادق، بالأسماعيلية نسبة إلى الامام اسماعيل الابن الاكبر لجعفر الصادق الذي توفي أثناء حياة والده، إلا أن أنصاره أنكروا ذلك، وزعموا أن الامام الصادق خشي عليه فغيبه ، ويقول الأسماعيلية ان اسماعيل لم يمت حتى يملك الأرض!. للمزيد من المعلومات عن الأسماعيلية انظر: ابو الفتح محمد عبد الكريم بن ابي احمد الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٥م) ج١، ص٢٢٦؛ وانظر محمد سعيد جمال الدين، دولة الأسماعيلية في ايران، ط١ (القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ١٩٩٩م، ص ٢٩.

(٢) حسن الصباح: وهو المؤسس الحقيقي لطائفة الأسماعيلية النزارية التي قامت في شمال بلاد فارس وبالتحديد في قهستان، وترجح معظم الآراء إلى أن داعي الدعاة الصباح كان

في شمال بلاد فارس، طالما كانت هذه الدولة العقائدية قد أثارت الجدل ليس عند أصحاب كتب المذاهب والعقائد فحسب، وأنما وصل حتى في المصادر التاريخية نفسها التي غلب على البعض من أخبارها طابع القصص والخرافات بفعل التنابز المذهبي الذي كان قائماً على أشده في وقت نشوئها، وبدون أدنى شك أن لما ذكره الرحالة البندقي من مرويات حول هذه الدولة له قيمة تاريخية بسبب معاصرته للوقائع أولاً، وصلته بالمغول الذين قضوا على أمر هذه الدولة التي أستمرت زهاء قرن ونصف ثانياً.

ومن المهم القول أولاً أن الكثير من التفاصيل التي أوردها هذا الرحالة عن الأسماعيلية تتطابق مع روايات المصادر الأخرى ، ولاسيما تلك التي كتبها مناوئي هذه الدولة ، وهو دليل لايرقى إليه الشك على ألمام ماركو بولو بالوقائع على الرغم ما فيها من أخطاء ومغالطات تاريخية على نحو ما أورده المؤرخين أنفسهم.

أستهل ماركو بولو مروياته بالحديث عن الأسماعيلية التي كان يحكمها زعيم هذه الدولة المسمى (شيخ الجبل)[(١)]، واضاف " أطلق على ناحية الجبل التي يقع فيها حكمه، يعرفون بتسمية الملاحدة عند العرب المسلمين"[(٢)]، وأهم ما يلاحظ على مثل هذا النص أستعمال ماركو بولو تسمية الملاحدة [(٣)] لهذه الفرقة، وهو وصف شائع

=قد ولد في مدينة الري في بلاد فارس سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣١م، في حين تشير آراء أخرى أنه ولد في مدينة قم، وتمكن من فرض سيطرته على مناطق قهستان ورودبار في بلاد فارس، وأتخذ من قلعة آلموت مركزاً لحكمه، لنشر دعوته الدينية، وكذلك للتواري عن الانظار بسبب مطاردة السلاجقة له ايام آلب ارسلان (٤٥٦-٤٦٥هـ/ ١٠٣٦-١٠٧٢م)، متبعاً سياسة العنف والقتل والاغتيالات ضد مناوئيه في سبيل تحقيق أهدافه. للمزيد انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ١، صص ١٦٧-١٧٠؛ وانظر برنارد لويس، الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الاسلام، ترجمة محمد الغرب موسى، ط١ (القاهرة: دار ازال للطباعة والنشر، ١٩٨٦م)، صص ١٧٧-١٨٢.

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ٨٩.

(٣) الالحاد: تعبير يستخدمه بعض المؤرخين المسلمين للتشهير بخصومهم، ويرد أحيانا بأسماء أخرى كالزنادقة والهراطقة وغيرها، وتوسع ليشمل فرق وطوائف بأكملها بذريعة الخروج عن مبادئ الدين الاسلامي بخلاف المعنى الحقيقي له، وهو أنكار وجود الله كخالق للكون. وللمزيد من المعلومات انظر: عبد الرحمن بدوي، من تاريخ الالحاد في

لهذه الطائفة عند الكثير من المصادر الاسلامية [١]، لكن ماركو بولو على ما يبدو كان يجهل النعوت الأخرى التي أطلقت على هذه الطائفة من قبل مخالفيهم، ولذلك سكت عن تلك المسميات المألوفة وهي كثيرة مثل النزارية [٢] والباطنية [٣] والحشاشين[٤]، وغيرها من الفرق التي أنبثقت من حركة الأسماعيلية نتيجة الانشطار والتشظي بين زعمائها [٥]، فما ذكره ماركو بولو من معلومات عن تلك الطائفة وخصوصياتها بنوع من الاختصار.

ثم تحدث ماركو بولو عن الجنة المزعومة التي أنشاها حسن الصباح في قلعة آلموت [٦]، وهو وصف يرد في المصادر الاسلامية ومما قاله في هذا الشأن " تقع

=الاسلامي، ط٢ (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٣م) صص ٧-١٠؛ وانظر ريشارد دوكنز، وهم الآله، ترجمة بسام بغدادي (ستوكهولم، ٢٠٠٩م) ، صص٣-٧.

(١) الجوزجاني، طبقات ناصري، ج٢، صص ١٨١-١٨٢؛ المستوفي القزويني، تاريخ كزيدة، ص ٥٨٩؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ١٩١.

(٢) النزارية: وهي أحد الفرق التي أنشطرت عن الأسماعيلية، وتنسب إلى نزار بن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إذ أعقبت وفاة هذا الخليفة الأخير سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م نشؤ خلاف في البيت الفاطمي، فمنهم من رأى أن الابن نزار هو الاحق بالخلافة والأمامة الفاطمية، وأطلق على أتباعه أسم النزارية بزعامة حسن الصباح نسبة إلى أبنه نزار، فيما أطلق مصطلح المستعلية ممن رأوا أن ابن الخليفة الأخر احمد المستعلي هو الامام. للمزيد انظر: فرهاد دفتري، مختصر تاريخ الأسماعيليين، ترجمة سيف الدين قصير (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٨م)، صص ١٩٥-١٩٦.

(٣) الباطنية: وهي أحد الفرق التي تنتسب إلى الأسماعيلية، ويدعي أصحاب هذه الفرقة أن للنص القراني تفسيرين أحدهما ظاهري وأخر باطني، وقاموا بتاويل النصوص القرانية، والادعاء بأن التفسير الباطني لايدركه إلا من أختصهم الله بذلك ويعني بذلك الباطنية. وللمزيد انظر: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م)، صص ٢١٣-٢١٧.

(٤) الحشاشين: وهي أحد الأسماء التي ظهرت بين المسلمين لدلالة على الطائفة الأسماعيلية، وقد سموا بهذا الأسم للادعاء بأن مؤسسها دعا أتباعه لتناول الحشيش المخدر بين أفراد تلك الطائفة، ولا يعرف بالتأكيد فيما اذا كان قد شاع أستخدامه فعلاً أم انه مصطلح يراد به التشهير بهذه الفرقة ومؤيديها. للمزيد من المعلومات . انظر: برنارد لويس، الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الاسلام، صص١٢-١٧.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٢٢٦؛ فرهاد دفتري، مختصر تاريخ الأسماعيليين، ص٩١.

(٦) قلعة آلموت: وهي قلعة حصينة تقع في ناحية رودبار بين قزورين وبحر الخزر على قمة جبل، وحولها وديان كثيرة، أتخذ منها حسن الصباح مقراً لحكمه. وللمزيد من المعلومات

هذه الرياض في واد محصور بين جبلين شامخين، يجمع فيه الداعي أشهى الثمرات، وقد شيدت فيه قصور متنوعة الاحجام والاشكال، وزينت بزخارف من ذهب، فيما ملئت حجراتها بالصور الزاهية وبالاثاث المزخرف، وأستخدمت أنابيب صغيرة صممت في هذه المباني مدت فيها أنهار من خمر ولبن وعسل تشاهد للعيان وهي تفيض بالخمر في كل اتجاه، وكانت تسكن هذه القصور حوريات رشيقات بارعات الحسن والجمال دَربن لكي يتقنن فنون الغناء والعزف على جميع أنواع الآت الموسيقية المصاحبة والرقص والطرب، كما كانت لهن خبرتهن في أفانيين الغزل والاغراء، وهن يرتدين أغلى الثياب وأجملها" (١).

غير أن ماركو بولو يجافي الواقع في تفسيره عن سبب قيام حسن الصباح بأنشاء هذه الجنة المزعومة، فهو فضلاً عن عدم أدراكه لطبيعة الدعوة الأسماعيلية وأعتقادات زعيمها حسن الصباح، فإن الرحالة البندقي تعمد الغمز بشكل صريح للمس بالدين الاسلامي والاستخفاف فيه عندما ذكر" أن الهدف الذي كان قد رمى إليه الشيخ من انشاء هذه الحديقة الفاتنة هو أن محمد كان قد وعد من يتبع ملته ويطيعه بجنات الفردوس، التي يوجد فيها كل أنواع الاشباع الحسي في الملذات برفقة الحوريات الفاتنات، ويضيف أن شيخ الجبل أي حسن الصباح رغب في أن يفهم أتباعه بأنه نبي ، وانه يعد نداً لمحمد ولديه القدرة في أن يدخل الفردوس من شاء من البشر ليسعده"(٢).

وبعد أن وصف ماركو بولو مناعة الحصون القوية التي أقامها زعيم الأسماعيلية حسن الصباح للدفاع عن بلاده ذكر معلومات طالما ذكرتها المصادر المناوئة للاسماعيلية والتي تكمل حقيقة صورة الفردوس المزعوم، وهي أستخدام الحشيش المخدر لأغواء الشباب وجعلهم أداة طيعة بيد الأسماعيلية، ومما جاء في

=انظر: القزويني، اثار البلاد واخبار العباد، ص ٢٠٠؛ فرهاد دفتري، مختصر تاريخ الأسماعيليين، صص ٢٢٢-٢٢٣.

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ٨٩-٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ٩٠.

قوله " أنه يجمع في بلاطه شباب تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، يختارهم حسن الصباح من بين سكان الجبال المجاورة ممن يبدون ميلاً إلى المرونة والتدريب العسكري، وتتجلى فيهم صفات الشجاعة ، وقد جرت عادته بالتحدث إليهم يومياً في موضوع الجنة التي بشر بها الصباح ، وعن قدرته هو شخصياً على الانعام بالدخول إليها ، ويتحدث عن الافيون وما ينسب إليه بالقول في أن الداعي يأمر بأعطاء هؤلاء الشباب من ذلك الافيون، حتى اذا ما خلدوا إلى النوم أصبحوا نصف موتى، وحينئذ يأمر بحملهم إلى الاجنحة العديدة ، وهم في حالة تخدير صقعت حواسهم بجميع الاشياء المبهجة ، يتقدمهن نسوة تقدم الطرب والعناق وأشهى اللحوم وأفخر الخمور، حتى يسكر هؤلاء الشباب من فرط المتعة، ويعتقدون تماماً أنهم في الفردوس الموعود، فاذا ما أنقضت بهم على تلك الحال اربعة ايام أو خمسة دفعوا بهم ثانية إلى حالة من النعاس، وعندما يدخلون إلى حضرة كبير الدعاة فيسألهم اين كنتم، ويكون جوابهم جميعاً في الفردوس بفضل عطف جنابكم "[١].

أن هذه المعلومات من ماركو بولو عن تلك الرياض التي أوجدها حسن الصباح للذكور النزارية الخواص من أتباعه في قلعة آلموت هي معلومات مناوئة من لدن المصنفين للأئمة النزارية من الفاطميين، ولا تختلف من حيث العموم مع المعلومات التي دونتها المصادر الاسلامية المعادية للاسماعيلية التي وسمتهم بالملاحدة، وأنما الاختلاف فقط في وصف روضات الرياحين التي يعيشها هؤلاء الذكور في جناتهم ، وهي معلومات فريدة لا نجدها في غير مرويات ماركو التي رواها بنفسه بعد عودته من رحلاته إلى مدينة البندقية، ونشرها فيها تلك المذكرات معبراً عن معاداته بأسم المسيحية للاسلام الذين ينتسب إليهم هؤلاء الأسماعيلية النزارية [٢].

---

(١) رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ٩١.
(٢) المصدر نفسه ، ج١،صص ٩٠-٩١.

وبعد أن أكمل ماركو بولو وصفه للجنة تحدث بشكل مقتضب عن نهاية هؤلاء الأسماعيلية على يد هولاكو ، وقد أتصفت مروياته بعدم الدقة فما يورده في هذا المحتوى بالقول " ولما كانت مملكته تقع داخل ممتلكات (اولاو) أو هولاكو[(١)] شقيق القآن الاعظم منكوقاآن، تراءت إلى مسامع ذلك الأمير اولاو أنباء الفظائع التي كان يرتبكها شيخ الاسماعيلية، وأستخدامه بعض الناس لنهب المسافرين أثناء مرورهم داخل ولايته فإن هولاكو في عام(١٢٦٢م) جرد أحد عساكره لمحاصرة شيخ الجبل في قلعته، الذي أظهر قدرة مع طائفته للدفاع عن ولايته بحيث أنقضت ثلاث سنوات في المقاومة دون أن يحصل في القلعة أدنى تأثير، حتى أضطر في النهاية بسبب النقص في الاطعمة إلى الاستسلام، فقد أخذ اسيراً وقتل، ودمرت قلعته، وخربت جنة الفردوس وأختفى من تلك اللحظة شيخ الجبل في قلعة آلموت" [(٢)].

وأهم ما يمكن ملاحظته على مرويات ماركو بولو عن حملة هولاكو على قلاع الأسماعيلية هو كثرة المغالطات التاريخية عن حقائق تلك الحملة التي لا تحتاج إلى دليل لأجماع المصادر الأخرى حولها، وأهم تلك الاخطاء التي وقع فيها ماركو بولو هو تاريخ الحملة على قلاع الأسماعيلية، كما أنه ذكر أنها تقع في أملاك هولاكو بعد قيام دولته الايلخانية، وأن هولاكو قد جرد عليها حملة عسكرية في عام ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م، وهذا يعني أن هولاكو لم يمتلك تلك القلاع إلا بعد أربع سنوات من سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وهذا بخلاف الحقيقة التي لا جدال عليها، وهي أن جميع

---

(١) اولاو: هي التسمية التي يطلقها ماركو بولو على هولاكو خان فمع شيوع الأسم الأخير، إلا أنه اسمه ورد بتسميات عدة منها هلاوون، وهولاو وغيرها للمزيد انظر: رحلات ماركو بولو، ج١، ٥٩؛

Howorth, History of the Mongols, vol,٣, p.١٥١.

(٢) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٩٢. يقصد هنا ماركو بولو أخر حكام الدولة الأسماعيلية دون تسميته، وتجمع المصادر على أن أخر حكام هذه الدولة هو ركن الدين خورشاه بن علاء الدين (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) الذي قتل على يد المغول وأنهارت حصون دولته، وتعرضها للدمار والخراب. للمزيد انظر: الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٢، صص ٣٥٧-٣٥٨.

المؤرخين يتفقون على أن حملة هولاكو على بلاد الأسماعيلية كانت سابقة لحملته على بغداد [1]،وأن هولاكو قد أتم ذلك في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، والدليل أن أحد ذرائع هولاكو لمهاجمة الخلافة العباسية هو أمتناع الخليفة المستعصم بالله عن أرسال المدد والعون الذي كان قد طلبه هولاكو منه لأجل القضاء على الدولة الأسماعيلية [2]، كما أن نص التفويض الذي منحه أمبراطور المغول الاعظم منكوقاآن لأخيه قائد حملة المغول دليل لا يرقى إلى الشك وحالة لاتحتاج إلى أي نقاش حوله إذ أكد القاآن بوضوح لهولاكو أن تبدأ الحملة بالهجوم على ممتلكات الدولة الأسماعيلية أول الأمر قبل التوجه نحو بغداد ، إذ يذكر نص التفويض " وابدأ باقليم قهستان [3]، فإذا فرغت فتوجه إلى العراق ..." [4] وقهستان كانت بلدانياً أحدى ممتلكات دولة الأسماعيلية الجبلية انذاك [5].

مرويات ماركو بولو عن الحملة المغولية على عاصمة الخلافة العباسية بغداد ودلالاتها السياسية

على الرغم من أن ماركو بولو وصل إلى بلاط المغول في سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م أي بعد قيام هولاكو في أجتياح حاضرة الخلافة العباسية بغداد، إلا أنه مع ذلك أعطى تفاصيل كثيرة عن حيثياتها بعد تدوين مذكراته لاحقاً، ففي البداية ذكر الرحالة الأسباب التي أدت إلى قيام الحملة العسكرية ثم تطرق إلى حجم تلك القوة العسكرية الهائلة التي هاجمت بغداد، وما آلت إليه من نتائج، فضلاً عن مصير الخليفة المستعصم بالله ايام خلافته[6] (٦٤٠- ٦٥٦ه/ ١٢٤٢- ١٢٥٨م)، والطريقة

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص ١٠٦؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ٢١١.
(٢) البناكتي، تاريخ البناكتي، ص ٤١٦؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ٢٣٤.
(٣) قهستان: وهي أحد مدن بلاد فارس، وتقع بين هراة وهمذان، وتعرف بأرض الجبال لكثرة الجبال فيها، ويسكنها عدد كبير من الاكراد. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤١٦.
(٤) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص ٩٠؛ المستوفي القزويني، تاريخ كريدة، ص ٥٨٩.
(٥) ياقوت ، معجم البلدان، ج٤، ص ٤١٦.
(٦) المستعصم بالله: وهو أخر خلفاء بين العباس الذي قتل على يد هولاكو عند قرية وقف بالقرب من خانقين سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، إذ تمكن الأخير من أحتلال بغداد عاصمة

التي قتل فيها ، ويلاحظ على هذه المرويات أنها كثيراً ما تقترب من روايات مؤرخي المغول بشكل عام، إلا أنها تختلف في كثير من الاحيان في التفاصيل والجزئيات، ففي البداية يورد ماركو بولو أسباب الحملة بالقول " أنه في المدة التي شرع فيها التتار(١) في بسط سلطانهم، كان بينهم اربعة اخوة يحكم أكبرهم سناً في قراقورم المسمى منكو وهو في المقر الملكي للأسرة، وبعد أن أخضع عدد من الاقاليم في أطراف الصين، تطلع المغول لأخضاع المزيد من الاراضي، فصوروا بأخيلتهم فكرة اخضاع العالم، مقترحين أقتسام البسيطة فيما بينهم" (٢) وأهم ما يمكن ملاحظته على هذا النص هو الاشارة إلى الأبناء المعتمدين الاربعة لتولوي الابن الاصغر لجنكيزخان، وهم كل من منكو وقوبيلاي وهولاكو واريق بوقا (٣) ، وهو مالم يوضحه الرحالة في هذه الرواية ، ويلاحظ أن هؤلاء فقط هم الأبناء المعتمدين لتولوي حسب عادات وتقاليد المغول فقط الأبناء الذين يحق لهم وراثة الاب في الرئاسة، وعادة ما يكونوا أبناء الزوجة الأولى من الذكور، وماعداهم لا تتم الاشارة لهم (٤).

=الخلافة العباسية، واستئصال شافتهم بعد حكم دام لاكثر من خمسة قرون ونيف. للمزيد انظر: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٧٥؛ وانظر ايضاً عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج١، صص ١٨٠-١٨١.

(١) استخدام ماركو بولو تعبير (التتار) ليدل على المغول، كما أن تسمية التتار وردت في معظم المصادر العربية والاسلامية، والحقيقة أن التتار والمغول هما تسميتان لأثنين من القبائل التي كانت تسكن في الاقسام الشرقية من أواسط آسيا، وإلى الشمال الغربي من الصين، وكان لقبيلة التتار شهرة سابقة على قبيلة المغول، وقد دارت بين القبيلتين معارك طاحنة قبل أن يتوج جنكيزخان انتصاره على التتار، وأطلق عليهم أسم المغول . للمزيد انظر الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٦٠؛ الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٥٤؛ شيرين بياني، المغول، ص ٢٣.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ج١، ص٥٩.

(٣) اريق بوقا: وهو الشقيق الاصغر لقوبيلاي الذي دخل معه في نزاع مسلح حول أحقية كل منهما على منصب القاآنية أثر وفاة منكوقاآن سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م، وأعلن اريق بوقا نفسه قاآناً على المغول دون أن يكتسب ذلك الشرعية في مجلس الأمراء (القوريلتاي)، وأنتهت الازمة بعد اربع سنوات عندما تمكن قوبيلاي من الانتصار عليه ووضعه في السجن حتى مات فيه. للمزيد انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيز خان، صص ٢٥٨-٢٦٠.

(٤) المصدر نفسه ، صص ٢٥٨-٢٦١.

ويضيف الرحالة ماركو عن أسباب الحملة على بلاد الخليفة بقوله " وحتى أستقر ذلك الهدف أمام أعينهم واتفقوا أن يتقدم أحدهم نحو الشرق، وأن يقوم أخر بغزواته في الجنوب، على أن يوجه الاثنان عملياتهما نحو الاصقاع المتبقية من العالم، فكان النصف الجنوبي من نصيب اولاو الذي جمع جحافل جرارة، وما أن أتم له أخضاع الولايات في طريقه حتى مضى قدماً في سنة (١٢٥٥م)(١) لمهاجمة مدينة بلداش"(٢).

غير أن أهم ما يعاب على الرحالة ماركو بولو في تدوين هذا النص وغيرها من النصوص المستخدمة عن الخلافة العباسية أنه لم يكن دقيقاً في تحديد سنوات بعض الحوادث الخاصة بالتاريخ المغولي، ولذلك نجده يخطأ خطأً فادحاً في التاريخ الذي أرخ للحملة الكبرى على حاضرة الخلافة العباسية في واقعة مهمة لا خلاف عليها بين كل المصادر التي أرخت لتلك الحملة ، فمن المعروف أن المغول أستباحوا مدينة بغداد في شهر صفر من شتاء سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م (٣) ، إلا أن ماركو بولو يذكر أن هذا الحدث المهم أنه قد تم في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٥م والمعروف أن هذه السنة المذكورة هي تاريخ أخضاع هولاكو لبلاد الأسماعيلية ويبدو لنا من دون أدنى شك أن ما وقع فيه ماركو بولو من أخطاء مرده يعود إلى أنه كان رحالة يروي مذكرات ذاتية ولم يكن مؤرخا محترفاً يدون أخباره كرونولوجياً ويستقصي أخبار الاصقاع بنفسه ، بل كان مجرد رحالة يروى ما سمعه في أثناء تنقلاته من روايات منقولة شفاهاً على لسان الأخرين، ولذلك فإن مروياته جاءت

---

(١) وتقابل هذه ٦٥٣هـ وهو التاريخ الذي يؤرخه ماركو بولو لحصار المغول العاصمة بغداد، وهو ما يخالف أجماع المصادر التي تؤرخ ذلك سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وللمزيد انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠١؛ شيرين بياني، المغول، ص ٢٢٩.

(٣) بلداش هي تسمية ينفرد فيها ماركو بولو عن مدينة بغداد . للمزيد انظر:رحلات ماركو بولو، ج١، ص٥٨

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٤٢؛ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء (بيروت : دار ابن حزم للطباعة والنشر، ٢٠٠٣م)، صص ٣٦٤-٣٦٦.

كثيراً ما ينقصها التوثيق والتقصي اللازمين ولاسيما للحوادث التي كانت تقع خارج العاصمة المغولية خان باليق [١].

ومع ذلك فإن ما ذكره ماركو بولو في مروياته حول أسباب هذه الحملة له أهميته ومغزاه، لأنه يدحض حقيقية الروايات الضعيفة المتداولة في بعض المصادر المعاصرة كالرواية التي يوردها الجوزجاني أولاً والتي نقلها عنه مؤرخون أخرون أمثال رشيد الدين فضل الله والقزويني وميرخواند التي تقول جميعها أن قاضي القضاة في قزوين [٢] شمس الدين القزويني هو الذي حث منكوقاآن على مهاجمة بلاد الأسماعيلية وتصفيتها إذ ذكروا انه كان موجوداً في بلاط القاآن، وأنه ظهر ذات مرة أمام منكوقاآن وهو بلباس الزرد تحت ثيابه، ولما أستفسر القاآن عن سبب لبسه لهذا الزرد، أخبره القزويني انه يلبسه تحت ثيابه خشية من الملاحدة [٣]، وهو ما حفز القاآن على غزو تلك البلاد بعد أن أشار إلى اعتداءاتهم وغاراتهم ، ومع أن هذه الرواية لا تصمد أمام النقد التاريخي لان هناك من الأسباب ما هو أكثر عمقاً من ذلك، وعليه فإن الرواية التي أوردها ماركو بولو تتطابق إلى حد كبير مع ما أورده كل من علاء الدين الجويني ورشيد الدين فضل الله إذ ذكر الجويني ما نصه " لقد أدرك ملك الأرض منكو قاآن شمائل أخيه هولاكو في قدرته، وتوسم عزمه في أمكانية غزو العالم، لهذا فإنه بعد انتهاء مجلس القوريليتاي الكبير وتمكنه من الجلوس على العرش، وفراغ باله من المغرضين والحساد صرف منكو همه لغزو الشرق والغرب، فأبتدا بتوجيه أخيه قوبيلاي نحو الطرف الشرقي في حين كلف أخاه الأخر هولاكو لغزو الجانب الغربي (بغداد)"[٤] . وما ذكره رشيد الدين فضل

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٩.

(٢) قزوين: وهي أحد المدن المطلة على البحر في بلاد فارس، وتقع بين مدينتي الري وابهر، للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، صص ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) طبقات ناصري،،ج٢ ،ص ١٨١؛ جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٣٣؛ تاريخ كزيدة، ص ٥٨٩؛ تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ١٩١.

(٤) تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص ٩٠؛ الاشرف اسماعيل بن العباس الغساني(٨٠٣/١٤٠٠م) ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك (بغداد:دار البيان،١٩٧٥م)،ج٢،ص ٦٣٠.

الله لا يبتعد كثيراً عما ذكره ماركو بولو ايضاً إذ قال " كان القآن يتوسم في أخيه هولاكو مخايل الملك، ويرى في عزائمه مراسم الفتح والغزو، وكان قد تفكر فرأى أن بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في حوزة جنكيزخان، وبعضها لم يستخلص بعد، وأن رقعة العالم فسيحة لا حد لها فأستقر رأيه على أن يعهد بكل طرف من المملكة إلى أحد من أخوته ليخضعها لأرادته ويقوم بالمحافظة عليها، فبينما جلس هو هادئاً مظفراً وسط دولته في قراقورم، وفوض قوبيلاي بفتح المناطق الشرقية بينما عهد إلى هولاكو المناطق الغربية "(١).

ثم تطرق ماركو بولو إلى مسألة مهمة طالما أختلفت المصادر حولها، وهي حجم العسكر الذي قاده هولاكو في زحفه نحو الغرب إذ ذكر الرحالة أن عساكر هولاكو كانت تتألف من مائة الف من الفرسان فضلاً عن أعداد كبيرة من المشاة (٢)، ولا شك أن هذا العدد يتفق مع رواية رشيد الدين الذي ذكر " بأن القآن أمر أن يكون قوام الجيش ضخماً، على أن يرافق هولاكو الخمس من كل رجال القبائل المغولية" (٣) في حين يقدر ابن كثير عدد القوات التي أجتاحت بغداد من المغول وحدهم بنحو مائتي الف نفس (٤)، بينما يقدر خواندمير العدد بأنه لا يقل عن مائة وعشرون الف من الفرسان والمشاة (٥).

ومع ذلك فإن الرحالة البندقي يشير إلى أن هولاكو أدرك ما كانت عليه بغداد من قوة بشرية كبيرة وتعداد سكاني هائل فعمد إلى أستعمال وسائل الخداع والتضليل لأخضاعها أكثر من القوة نفسها (٦)، ولاشك أن ماركو بولو كان على أطلاع على طبيعة النظم الحربية التي كان يتبعها المغول في تضليل وخداع أعدائهم

---

(١) جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٣٣.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٩.
(٣) جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٣٥.
(٤) البداية والنهاية، ج١٧، ص ٣٥٧.
(٥) تاريخ حبيب السير، ج٣، ص ٩٤.
(٦) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٩.

في الحروب، ومن بينها أيهام الاعداء بكثرة أعداد عساكرهم بوسائل الخداع المختلفة [1].

فمثلاً يذكر أن أحدى وسائل هولاكو في خداع أعداءه اللجوء إلى تقسيم عساكره إلى ثلاث أقسام لأيهام عدوه بقوة تلك العساكر وكثرتها، فيوضع قسماً منها في الجانب الايمن، ووضع قسماً أخر عند مدخل المدينة، كما وضع نفسه على رأس القوة الثالثة التي أضحت على مقربة من بغداد [2]، والحقيقة يبدو لنا أن تقسيم العسكر إلى ثلاثة أقسام ليس فقط لأيهام جيش الخلافة العباسية الصغير نسبياً بكثرة أعداد جند المغول، وأنما كان الغرض منه ايضاً الاحاطة التامة بالمدينة المهاجمة من جميع جوانبها لقطع أي أمدادات محتملة عنها أو قدوم قوات مساندة لها على نحو من مشاركة قوة من الاكراد أو التركمان أو المماليك لعساكر الخليفة، في حين يذكر رشيد الدين فضل الله أن هولاكو أقدم على تقسيم عساكره إلى ثلاث وحدات كبيرة كما هو متعارف عليه عند المغول في تقسيم عساكرهم أثناء المعارك وهي الميمنة والميسرة والقلب [3]، وكان هولاكو يهدف من وراء ذلك محاصرة أسوار بغداد من الجهات المختلفة ثم أجتياحها ، وفي ضوء هذا التقسيم [4] تولى قيادة الجانب الايمن للمغول القائد بايجو نوين [5] الذي أصطحب معه ملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول

---

(١) كان للمغول وسائل عديدة في تضليل أعدائهم، والايحاء بكثرة قواهم مثل أشعال العسكر للنيران ما يفوق عددهم الحقيقي، أو أصدار الاصوات المرعبة مثل قرع الطبول وأستخدام الآت النفخ . للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٥؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٤٥.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٠.

(٣) جامع التواريخ، ج٢، صص٢٨١-٢٨٢ ؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٧١.

(٤) عن تلك التقسيمات انظر: عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، صص ١٥٩-١٦٠.

(٥) بايجو نوين: وهو أحد أبرز القادة المغول الذي شارك في الغزوات الأولى للامبراطورية المغولية، وأسندت إليه مهمة أحدى الفرق لمحاصرة بغداد، وكان يعرف عنه المهارة في القتال والتعسف في أستخدام القوة. للمزيد انظر: رشيد الدي فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص١٩١.

[1] على رأس فرقة من عساكر الارمن فضلاً عن وصول قوة مضافة لها قدمت من همذان، أما الجانب الايسر فقد عهد به هولاكو إلى نائبه ذائع الصيت كتبغا نوين [2]، التي أنيطت به مهمة محاصرة بغداد من جهة الجنوب، وقد أستقرت هذه القوة في الموضع المحدد لها، في حين كان هولاكو يتولى قيادة القلب بنفسه، وهي القوة الرئيسة من العسكر [3].

ومما أورده الرحالة ماركو بولو بهذا الصدد " أن الخليفة المستعصم أستخف بتلك القوة الظاهرة للمغول لوثوقه في كفاية الصيحات الاسلامية التي أعتاد عليها المسلمون ضد أعدائهم " [4] ويبدو أن الرحالة البندقي قد وقع في خطأ أخر عندما كان يشير إلى موقف الخليفة المتحدي لهولاكو في مرحلة ما قبل أحكام الحصار المغولي على المدينة، وليس بعد أن أحاطت قوات المغول ببغداد وأغلقت منافذها عليه ، ومرد هذا الخلط عند ماركو بولو حسبما نرجح يعود إلى أنه لابد قد ورد إلى سمعه من الرواة مما ذكره الخليفة المستعصم بالله عندما رد على أحد رسائل هولاكو متحدياً وقد نقل نصه رشيد الدين " أن من قصد اسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك

(١) هيثوم الأول: وهو ملك أرمينية الصغرى الذي عاش بين الفترة (٦١٩-٦٦٨هـ/ ١٢٢٢-١٢٦٩م) وقد غلب على فترة حكمه العداء الشديد مع المسلمين. وللمزيد انظر: عبد الله جاسم، العلاقات السياسية بين المغول ومملكة ارمينية الصغرى (بيروت: دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٧م)، ص ٢٥٣-٢٥٥.

(٢) كتبغا نوين: وهو أحد أبرز القادة المغول الذين أسهموا في اسقاط الخلافة العباسية، وقد قتل لاحقاً في معركة عين جالوت الشهيرة أثر الهزيمة النكراء التي مني بها المغول أمام المماليك سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. وللمزيد من المعلومات انظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، ص٥١٢؛ جعفر خصباك، العراق في عهد المغول الايلخانيين(بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٨م)،ص٥٥.

(٣) منسوب لابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٦.

(٤) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٠.

وأصحاب الشوكة من السلاطين فإن هذا البيت محكم للغاية، ويظل باقياً إلى يوم القيامة" (١).

رواية ماركو بولو عن مقتل الخليفة المستعصم بالله ونهايته

لم يغفل ماركو بولو أن يعطي روايته الخاصة عن كيفية مقتل الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله على يد هولاكو خان سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ذلك أن هذه الحادثة المهمة في التاريخ العباسي والمغولي على حد سواء ظلت غامضة لدى المؤرخين المعاصرين تماماً مثلما أختلفوا في الطريقة التي قتل فيها هذا الخليفة الأخير ففي هذا الشأن وردت رواية منفردة في الحوليات الجورجية نقلها هاورث (Howorth) تشير إلى أن الخليفة المستعصم بالله قتل بالسيف المجرد سواء بيد هولاكو شخصياً أو بيد أحد قادته (٢)، وفيما عدا هذه الرواية تبقى المعلومات الأخرى تجمع على أن الخليفة قتل بطريقة قتل الملوك التي عرف بها المغول، التي لا يراق بها دمه حتى لا يدنس دمه على الأرض، ومن بينها رواية ماركو بولو نفسه التي تتفق في المضمون مع المصادر الأخرى لكنها تختلف في التفاصيل، فيذكر وصاف الحضرة مثلاً يذكر أن الخليفة أحضر أمام هولاكو الذي قرر الحكم عليه بالموت، وقد أمر عساكره بأن يضعوه في قطعة من الكساء، حتى يرفس في أقدامهم حتى الموت (٣).

ويعزو رشيد الدين فضل الله قتل الخليفة المستعصم بالله بهذه الطريقة إلا أن بعض المنجمين العرب خوفوا هولاكو من العواقب الوخيمة التي ستترتب على ذلك في حالة أراقة دمه وتحدث عن كوارث عظيمة ستقع (٤) وعلى هذا النحو تؤكد

---

(١) جامع التواريخ، ج٢، صص ٢٧٥-٢٧٦؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ص١٦٢.

(٢) History of the Mongols, vol ٣ p. ١٢٨.

(٣) تاريخ وصاف ، ص٤٠.

(٤) جامع التواريخ،ج٢ ، ص ٢٧٩ .

معظم روايات المؤرخين المسلمين، فالجوزجاني يذكر أن الخليفة المستعصم بالله وضع في قطعة من قماش وتم رفسه حتى الموت، وهي طريقة المغول في قتل معارضيهم من الملوك [١]، وكذلك ذكر جرجيس ابن العميد (ت ٦٧٢هـ /١٢٧٣م) " أمر هولاكو أن يرفس الخليفة فرفسوه حتى مات"[٢] وهكذا ذكر ابن الفوطي الذي قال " لم يهرق دمه، بل جعل في غراره ورفس إلى أن مات"[٣] فيما ذكر النويري (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) " جيء بالخليفة إلى هولاكو الذي، أمر أن يجعل في جولق ويداس بأرجل الخيل حتى تفارق روحه جسده" [٤] في حين أن رواية ابو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) مشابهه إلى حد كبير من هذه الروايات الذي تذكر " قيل خنق وقيل أنه وضع في قطعة قماش ورفس حتى مات"[٥].

أما رواية ماركو بولو في هذا الشأن فتقول " أن هولاكو أخذ الخليفة اسيراً من القصر، بعد أن أستسلمت المدينة له ، وعند دخول هذا القصر أكتشف اولاو برجاً مملوءاً بالذهب، فأستدعى الخليفة أمامه، وبعد توبيخه أستجوبه على بخله الذي منعه من أنفاق كنوزه في أنشاء عساكر للدفاع عن بلاده ضد غزو المغول المرتقب الذي ظل مهدداً به طويلاً، ويقول أن هولاكو أمر أن يحبس الخليفة في ذلك البرج بلا طعام، حيث أنتهت هناك حياته التعسة بين أكداس ما كان يكنزه من الثروة والأموال"[٦]، وفي هذا السياق يظل التساؤل عن مصدر ماركو بولو لمثل هذه الرواية المهمة، إذ يعتقد الباحث أن الرحالة البندقي أستمد روايته من أحد طريقين فهو أما أن يكون قد تبنى أحدى الروايات الجورجية الرائجة لدى المغول وفحواها " أن الخليفة مات جوعاً، بعد أن أخذ وسجن في قلعة خاصة، وهو محيط بأمواله

---

(١) طبقات ناصري ، ج٢ ، ص ١٩٧.
(٢) اخبار الايوبيين (دمشق: المعهد الفرنسي، ١٩٩٠م) ، ص ١١٧.
(٣) الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧.
(٤) نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق سعيد عاشور (القاهرة : الهيئة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٨م)، ج ٢٧، ص ١١٢.
(٥) المختصر في اخبار البشر (بيروت : دار المعرفة ، بلات) ، ج٣، ص ٢٣٤.
(٦) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٠.

وكنوزه، وما ورثه عن اجداده من كنوز ، وقد أقفلت عليه إلى أن مات"[١] أو أن ماركو بولو قد تبنى ما ورد إلى سمعه نقلاً عما رواه بعض مؤرخو المغول من أخبار التي يستشف منها تمجيد لهولاكو خان والاساءة إلى الخليفة المستعصم بالله من دون توضيحات أخرى، ومنها رواية نصير الدين الطوسي الذي كان مرافقاً لهولاكو في الحملة على بغداد ونلقها عنه المؤرخ وصاف وفحواها " أن هولاكو لما قابل الخليفة المستعصم بالله بعد تسليم نفسه طوعاً أمر بأن يمنع عنه الطعام، فلما أحس الخليفة بالجوع طلب طعاماً، فأمر هولاكو أن يقدم له طبقاً مملوءاً بالذهب والجواهر من كنوزه الخاصة وأمره أن ياكل منها، فقال له الخليفة كيف يمكنني أن آكل من هذا الذهب والجواهر؟ فرد عليه هولاكو اذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا أحتفظت بها ، ولماذا لم تحول تلك الابواب الحديدية إلى سهام تقارع بها قواتنا، وتسرع بها إلى شواطئ نهر جيحون لتحول دون عبوري صوب مملكتك فأجابه المستعصم هكذا كان تقدير الله، فرد عليه هولاكو، وما سوف يجري عليك كذلك سيكون من تقدير الله ايضاً"[٢]

ومن خلال هذا النص يتبين لنا مدى تطابق روايتي ماركو بولو ونصير الدين الطوسي التي يلمس من خلالهما ليس تمجيد وكيل الثناء والمديح لهولاكو والتقليل من شأن الخليفة المستعصم بالله فحسب، وأنما يستشف نظرة ماركو بولو المعادية للخليفة، وهو أمر ليس بمستغرب من الرحالة البندقي، فقد عبر عن رأيه فيه بكل وضوح وبدوافع دينية خالصة متهماً الخليفة بأضطهاد المسيحيين في بلاده ومعاقبتهم [٣] حتى أنه شمت صراحة بنهاية الخليفة المستعصم بالله بالقول " وفي رأيي أن الرب يسوع المسيح رأى هنا من الخير أن ينتقم لما وقع من المظالم على خلصائه المسيحيين، الذين كانوا مقت من ذلك الخليفة، فقد كان شغله الشاغل في كل

---

(١) Alakenli Grigor, History of Nation of the Archers (Boston: Harrard University Press, ١٩٥٤), Pp.٣٣٣-٣٣٥.

(٢) تاريخ وصاف، ص ٧٩.

(٣) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٠.

يوم تدبير الوسائل لأدخال كل من يقيم في دولته منهم في دينه، وفي حال رفضهم طلبه ، فأنه يختلق الذرائع والحجج لقتلهم"(١) . ويلاحظ أن ماركو بولو اغفل سهواً أو عمداً الرواية التي تتحدث عن قتل الخليفة بطريقة الرفس بالارجل كي لا يراق دمه، ويجعل من تهاون الخليفة في الدفاع عن بلده، وحبه للأموال السبب في قتل هولاكو للمستعصم بالله، ويبدو لنا أن ماركو بولو تعمد في أغفال السبب الحقيقي في الحادثة المتمثل في عادات هؤلاء المغول في قتل السلاطين التي لا تبيح سفك دماء أفراد العائلات الحاكمة بدليل أن ماركو بولو نفسه أشار لهذا السبب في موضع أخر من رواياته عندما تحدث عن أنتصار قوبيلاي قآن سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م على أحد الأمراء المغول المتمردين وأسمه نايان (٢)، وكيفية قتله بعد أن وقع أسيراً بالقول " أن قوبيلاي أمر بقتل نايان، حيث تم وضعه بين بساطين، وظلوا ينفضونه ببساط، حتى فارقت روحه بدنه، وكان دافع هذا الحكم العجيب أنه لم يكن يجوز للشمس ولا الهواء في عرف المغول أن يشهدا سفك دم أي فرد ينتمي إلى ذكور الاسر الحاكمة" (٣) . وهذا النص حقيقة يتطابق تماماً مع ما أجمعت عليه المصادر الاسلامية في الطريقة التي قتل فيها الخليفة المستعصم بالله، إذ يذكر الجوزجاني " قتل الخليفة بطريقة لا يراق فيها دمه، وهي طريقة المغول في قتل معارضيهم من الملوك" (٤)، وبناءاً على ذلك يتضح أن رواية ماركو بولو عن قتل الخليفة جوعاً تبدو بعيدة عن التصديق، وأن ما ذكرته المصادر الاسلامية بأن الخليفة ما قتل إلا بطريقة الرفس بألارجل حتى لا يراق فيها دمه هي أرجح الروايات المتوفرة عن مقتله(٥).

(١) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٠.
(٢) نايان: وهو بن قوينجي بن جوجي بن جنكيزخان الذي قاد تمرد ضد قوبيلاي قآن في تركستان انتهى بمقتله. للمزيد انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيز خان، صص ١٠١-١٠٢.
(٣) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٦.
(٤) طبقات ناصري، ج٢ ، ص ١٩٧.
(٥) عبد الرحمن فرطوس ، الايلخان هولاكو ودوره في نشأة وقيام الدولة الايلخانية، أطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة بغداد/كلية الاداب، ٢٠٠٣م)، ص ١٦٢.

مرويات ماركو بولو عن وقائع حروب الدولة الايلخانية بزعامة هولاكو خان ودولة مغول القبجاق في عهد بركة خان

نقل ماركو بولو مروياته الخاصة عن الحرب التي دار رحاها بين الدولة الايلخانية في عهد هولاكو خان وبين دولة مغول القبجاق، والتي تعرف ايضاً بأسم دولة مغول القبيلة الذهبية التي كان يتزعمها آنذاك السلطان بركة خان المتحالف مع دولة المماليك الاتراك البحرية ضد عدوهم المشترك هولاكو، والمعروف أن هذه الدولة التي أسسها باتوخان [١] بن جوجي بن جنكيزخان، كانت على علاقة ودية أول الأمر مع أسرة آل تولوي الأبن الأصغر لجنكيزخان الذي ينحدر منه هولاكو كما أن الأمير باتو هو صاحب الفضل الأكبر في نقل الحكم من آل أوكتاي الابن الثالث لجنكيزخان إلى آل تولوي عندما دعم وصول منكو إلى السلطة الام سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م [٢] ، وقد أدى هذا التأييد إلى أن ترتبط الاسرتان في تحالف وثيق بوجه جناحي الاسرة الجنكيزخانية الأخرين الذين كانا يمثلهما كلا من نسلي جغتاي وأوكتاي [٣]، غير أن علاقة هذا التحالف سرعان ما تغيرت بعد وفاة الامبراطور منكو قاآن سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م حتى أنها وصلت من السوء إلى حد نشوب الحرب

---

(١) باتوخان: وهو الخان باتو بن جوجي بن جنكيزخان، وهو مؤسس الحقيقي لدولة مغول القبجاق بعد وفاة والده جوجي التي أسندت إليه المهمة، وكان قد تولى العرش في هذه الدولة لمدة ثمانية وعشرين عاماً للمدة بين السنوات (٦٢٤ – ٦٥٥هـ/ ١٢٢٧-١٢٥٥م)، وقد توسعت الدولة خلال مدة حكمه إذ شملت أجزاء من روسيا وبلغاريا. للمزيد من المعلومات انظر: رشيد الدين فضل الله: تاريخ خلفاء جنكيز خان، ص ١٢١.

(٢) رفض الأمير باتو دعوة أبناء جغتاي وأوكتاي للحضور إلى العاصمة قراقورم لعقد أجتماع القوريلتاي الكبير لأختيار القآن الجديد، وفي المقابل قام باتو بعقد مجلس قوريلتاي في بلاد القبجاق منافس للقوريلتاي الذي عقد في قراقورم ، وأقر فيه اختيار منكو بن تولوي لتولي عرش الامبراطورية المغولية لكنه رفض من قبل أبناء جغتاي وأوكتاي لكونه عقد خارج العاصمة قراقورم. وللمزيد انظر: الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص ٢١؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ١٧٩.

(٣) أنقسمت الاسرة الجنكيزخانية إلى قسمين، القسم الأول مثلها أسرتي جغتاي وأوكتاي، وقد شكلا تحالفاً مضاداً للقسم الثاني الذي كان مثله أسرتي جوجي وتولوي، وكان الجناح الأول يصر على أن يتولى العرش المغولي أحد افراد أسرة أوكتاي، أما الجناح الثاني فكان يعتقد على من يشغل هذا المنصب لابد أن يكون أميراً من أصغر أولاد جنكيزخان حسب ما تقره قوانيين الياسا. للمزيد من المعلومات انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، صص٢٨-٣٠؛ وانظر ايضاً الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٦١.

الدامية بين الخانيتين المغوليتين، وتعزو المصادر التاريخية عوامل هذا النزاع إلى أسباب عديدة، حصرها الرحالة ماركو بولو بالخلاف بينهما على ملكية بعض الاقاليم والاطراف التي لم يسميها بين حدود تلك الدولتين وورد ذكرها في المصادر الأخرى بأسم اران [١] واذربيجان وأطرافها [٢]. ومما قاله ماركو بولو في هذا الشأن " أنه في سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م نشب خلاف شديد بين هولاكو مع بركة خان بسبب النزاع حول ولاية تتاخم حدود ممتلكاتهما، وأدعى كل منهما عائديتها، ونأت بهما الكبرياء إلى التنازل عنها للأخر، فتبادلا التحديات وأعلن كل منهما أنه سيخرج للاستيلاء عليها، حتى حشد كل طرف اتباعه حول موقفه "[٣] والواقع أن ما ذكره ماركو بولو عن أسباب هذا النزاع صحيح ولا خلاف عليها في كل المصادر سوى أنها وقعت في سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م أي بعد سنة من التاريخ الذي ذكره بولو، إلا أن ذلك الحادث كان يمثل أحد أسباب النزاع بين الأميرين ، وليس جميعها، لان ماركو بولو تجاهل ذكر الأسباب الأخرى لهذا النزاع، وربما أنه لم يكن يعرف شيئاً عنها فما يرد في المصادر المغولية والاسلامية منها يدور إلى أن أحد أهم الأسباب بينهما هو الخلاف الديني بين هولاكو الوثني[٤] وبركة خان الذي أعتنق الاسلام [٥]، وأن

---

(١) آران: وهي ولاية واسعة تقع إلى الشرق من اذربيجان، ويطلق عليها ايضاً اسم كنجة. وللمزيد من المعلومات انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ١٣٦.

(٢) اذربيجان: وأهم مدنها تبريز ، وهي مكونة من مقطعين اذر ويعني النار وبيجان وتعني الخازن أو الحافظ أي حافظ النار في اللغة الفهلوية الفارسية القديمة، وهي بلاد تشتهر بخصوبة أرضها وقلاعها الحصينة . للمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج١، صص ١٢٨-١٢٩.

(٣) رحلات ماركو بولو، ج٣، صص ٣٦١-٣٦٣.

(٤) أختلفت المصادر في حقيقية المعتقد الذي كان يعتنقه هولاكو، ولكن ما ورد من أشارات عند عدد من مؤرخي المغول تؤكد بأن هولاكو شيد عدد من المعابد البوذية بأذربيجان مما يدلل على أنه كان يعتنق ذلك الدين. للمزيد انظر: الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص ١٠٢.

(٥) يعد بركة خان أول من اعتنق الاسلام من أفراد الاسرة الجنكيزخانية، وهناك روايتان حول أعتناقه الاسلام، الأولى تذكر أن الأمير أصبح مسلماً منذ طفولته، وحفظ القران قبل أن يتولى حكم القبجاق، والثانية تشير إلى أعتناقه الاسلام في سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م في مدينة بخارى على يد أحد شيوخها المسمى شمس الدين البخاري. وللمزيد انظر: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من

بعض المصادر الاسلامية تجعل من قضية أحتلال هولاكو لبغداد، وقتله للخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته سبباً رئيساً في هذا الخلاف، بل أن مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله قد ذكر على لسان بركة خان القول " أن هولاكو دمر جميع مدن المسلمين، وقضى على أسر ملوك الاسلام جميعهم، ولم يميز بين الصديق والعدو، وقتل الخليفة دون مشورة كبار الاسرة، فلو أمدني الله تعالى لطالبته بدماء الابرياء"(١). ويذكر شمس الدين الذهبي عند أشارته لسيرة بركة خان " أن من أعظم الأسباب لوقوع الحرب بين بركة خان وهولاكو هو قتل الأخير للخليفة المستعصم بالله"(٢). فيما ينقل ميرخواند عن بركة خان قوله " أن هولاكو خرب بلاد المسلمين، واستأصل خليفة الزمان، وفعل ما فعل دون مشاورة الإخوان، فإذا كان التوفيق رفيقنا لأخذت بدم المظلومين، ولا تركنه عبرة للعالمين"(٣) . ولا شك أنه كانت للحرب بين هؤلاء المغول أسباباً أخرى وردت في المصادر الاسلامية التقليدية من بينها رفض الايلخان هولاكو دفع خمس الغنائم لدولة مغول القبجاق، والتي كان جنكيزخان قد قررها لاسرة جوجي ، وهو سبب مادي تمثل في أندلاع النزاع بين الدولتين، وفي هذا الشأن يورد ابن شداد (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) نصاً يقول فيه " أن بركة خان أرسل إلى هولاكو رسولين سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م يطالبه فيها بنصيبه من الغنائم، الا أن هولاكو رفض ذلك، وقام بقتل الرسل مما زاد العداوة بينهما"(٤) فيما أشار ابن كثير إلى أنه وقع خلاف بين هولاكو والسلطان بركة خان

=ذوي السلطان الاكبر (بيروت : مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧١م) ، ج٥ ، ص٥٣٤ ؛ بارتولد، بركة خان ، دائرة المعارف الاسلامية ،ج٢ ،صص٥٦٤-٥٦٨.

(١) جامع التواريخ، ج٢، ص ٣٣٢.

(٢) دول الاسلام، ج٢، ص٤٧٦.

(٣) تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ١٧٥.

(٤) تاريخ الملك الظاهر (بيروت: مركز الطباعة الحديثة، ١٩٨٣م)، ص ٣٥؛ وانظر قطب الدين ابي الفتح موسى بن محمد(ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م) ، ذيل مرآة الزمان (حيدر اباد ، بلا.م ، ١٩٥٥) ، ج٢ ، ص١٦١ ؛ ابن ايبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، ص٩٢.

بسبب المطالبة بنصيبه من فتوحات هولاكو، إلا أن الأخير أمتنع عن ذلك، الأمر الذي أغضب بركة (١).

أما ما يثير الاستغراب في هذه الواقعة في حقيقة الأمر فهو سكوت ماركو بولو عن أحد أهم أسباب الحرب بين الدولتين المتمثل في الانقسام الذي كان وقع في الامبراطورية المغولية أثر الخلاف الذي نشب على الحكم بعد وفاة الامبراطور منكو قاآن بين الاخوين قوبيلاي قاآن واخاه اريق بوقا إذ اعلن الأخير نفسه قاآناً للمغول، في حين رد قوبيلاي عليه بخطوة مماثلة مما أدى أن يعم الانقسام في معظم انحاء الامبراطورية المغولية، وسبباً رئيساً في تشظي الأسرة الجنكيزخانية (٢).

أما عن تفاصيل تلك الحرب بين الايلخانيين ودولة مغول القبجاق بحسب قول ماركو بولو أن أعداد من عساكر هولاكو من الفرسان والمشاة يناهز الثلاثمائة الف كانوا قد زودوا بأجود ما يتصل الآت السلاح من عتاد حسبما تقتضيه عادات المغول في وقائع الحروب (٣)، كما يذكر ان هولاكو بدأ زحفه على القبجاق وسار عدة ايام من دون أي خطر يذكر حتى عسكرت قواته بسهل فسيح الارجاء وعسكروا فيه وأقيمت الخيام الفاخرة حولها (٤).

أما عسكر مغول القبجاق فيذكر ماركو بولو أن بركة خان بعد أن علم بزحف هولاكو نحوه خرج هو الأخر بأتجاهه ، وعكسرت قواته في ذات السهل الذي

---

(١) البداية والنهاية،ط٢ (بيروت : منشورات مكتبة المعارف ، ١٩٩٠م) ، ج١٣، ص ٢٣٤.
(٢) رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٠٠؛ وصاف، تاريخ وصاف، ج٣، ص ١٥.
(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٦٢.
(٤) ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٦٢؛ شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بابو شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) ، ذيل الروضتين ، ط٢(بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٤م) ، ص ، ٢٢٠ .

وصلت إليه قوات هولاكو، ويلاحظ أن عساكر بركة كانت أكبر إذ بلغت ما يقرب ثلاثمائة وخمسين الف من الفرسان والمشاة (١).

وينفرد ماركو بولو برواية يغطي بها خطبتين لكل من بركة خان وهولاكو بعساكرهم من أجل رفع الروح المعنوية والاصرار بين صفوف مقاتليهم على الحرب ، وهي رواية لا نجد لها ذكر في المصادر الأخرى فيذكر بولو أنه بعد أن استراح الجمعان لمدة يومين جمع بركة خان صاحب القبجاق جحافله وخاطبهم " أيها السادة تعلمون علم اليقين أنني منذ وليت أمر البلاد أحببتكم كأخوة وأبناء، كما أن كثيرين منكم خاضوا معي معارك كبيرة، وساعدتموني في فتح قسم كبير مما في حوزتنا من الاراضي، وتعلمون أني أشكركم في كل ما أملك، والان علينا أن نهزم هولاكو وقواته، لاسيما أن أعدادنا تفوق جموعه، فأننا نعلم يقيناً أن هولاكو ليس لديه سوى ثلاثمائة الف ، بينما لدينا ثلاثمائة وخمسون الف مقاتل، وكلكم مقاتلين من خيرة الرجال كجنده أو افضل، ومن أجل تلك الأسباب يجب أن ننتصر، ثم نتقدم بحصافة بالغة، حتى نضمن النجاح التام، واني لأرجوكم جميعاً أن تعكسوا هذه المرة الشجاعة، حتى يتحدث الناس بأعمالكم" (٢) وفي المقابل أورد ماركو بولو خطبة لهولاكو خاطب فيها جنده بقوله " ياأيها الاخوة والأبناء والاصدقاء تعلمون أني أعتز بكم طوال حياتي ، وساعدتكم مثلما ساعدتموني حتى اليوم في الغلبة والفتح في كثير من المعارك والانتصار فيها، ومن أجل ذلك جئنا هنا لقتال ذلك الرجل العظيم بركة، واني لعلى علم تام بأن لديه من الرجال أكثر منا، لكنهم لا يضارعونكم مقدرة في القتال ولا يوجد أي شك عندي بأننا سنلحق بهم الفرار والهزيمة، وهو ما سيملائني سروراً، فأرجوكم أن تكونوا أيها الأمراء والعساكر على أستعداد تام في ذلك اليوم، على أن هناك شيئاً واحداً فقط اريد أن أبقيه في اذهانكم، هو أن نموت في الميدان ذوداً عن شرفنا خير من أن نلاقي الهزيمة في

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٦٢.
(٢) المصدر نفسه ، ج٣، ص ٣٦٣.

ساحات الوغى، فليقاتل كل واحد منكم من أجل شرفنا، حتى يتجرع أعداؤنا طعم الهزيمة والقتل والعار"[١].

وعندما جاء يوم الواقعة أنفرد ماركو بولو بتفاصيل دقيقة عن سير هذه المعركة ووقائعها إذ يذكر " أستيقظ هولاكو مبكراً في الصباح، ودعا عساكره لتقلد السلاح، وتنظيم صفوف الجند، وتم تقسيمها إلى ثلاثين فرقة، كل فرقة فيها تتالف من عشرة الاف فارس، ووضع على رأس كل واحد من هؤلاء قائداً من الأمراء النوين [٢]، وبعد أن أتم هولاكو تنظيم عساكره على الوجه المناسب، أمر عساكره بالتقدم زاحفين بخطى بطيئة صوب أعدائهم حتى بلغوا منتصف المسافة بين المعسكرين، وهم ينتظرون قدوم العدو، وأما في الجانب الأخر فإن بركة حشد جنده كذلك ، ونظمهم في خمسة وثلاثين فرقة بالطريقة التي أستخدمها هولاكو، وأمر قواته بالتقدم صوبهم حتى أصبحوا على مقربة من عدوهم، وبعد أن ترائى الجمعان وجهاً لوجه قرعت طبول الحرب، وأطلق كل من الطرفين على عدوه وابلاً من السهام حتى استنفذت كل سهامهم، واشتبكوا بالسيوف وقد بلغت المعركة من الشراسة حتى غطيت ساحة الوغى بالجثث والاشلاء ، وأبدى الطرفان شجاعة فائقة في القتال ، حينها أخذت قوات بركة تنهار وتتقهقر أمام قوات غريمه هولاكو، الذي فر من الميدان فلاحقه رجال هولاكو ببالغ العنف وهم يقتلون عدوهم بغير رحمة"[٣].

وعند مقارنة هذا النص الذي أورده ماركو بولو مع ما ورد عند مؤرخ الايلخانيين رشيد الدين فضل الله نجد هناك تطابقاً في كلا الروايتين فقد وصف ماركو الشطر الأول من الحرب حيث حققت قوات هولاكو نصراً ساحقاً في بداية

---

(١) رحلات ماركو بولو ، ج٣ ، ص٣٦٣
(٢) النوين: وهي رتبة عسكرية في الجيش المغولي، تمنح لمن يقود فرقة تتكون من عشرة الف رجل عسكري. للمزيد انظر: ؛ العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٤، ص ٢٨٢؛ لامب ، جنكيزخان ، ص ٨١ .
(٣) رحلات ماركو بولو، ج٣، صص ٣٦٣-٣٦٤.

المعركة، غير أن ماركو بولو أغفل على ما يبدو ماآلت إليه نتائجها في النهاية المتمثلة بأنتصار قوات بركة على غريمه هولاكو، ولاشك أن مرد ذلك الاغفال على مايبدو أن الرحالة البندقي أصبح متعاطف كلياً مع اسرة تولوي التي ينحدر منها هولاكو وأخوته لذلك تجاهل ذكر الهزيمة النكراء التي مني فيها هولاكو وقواته في نهاية المعركة إذ يذكر " أن قوات هولاكو بعد مواصلة تعقب قوات بركة لمسافة قصيرة عادوا بعدها إلى خيمهم، ووضعوا أسلحتهم جانباً، وضمدوا جراحهم، وفي صباح اليوم التالي أمر هولاكو بدفن أجساد القتلى الاعداء منهم والاصدقاء سوية، وكانت الخسائر فادحة بين الجانبين، ثم عاد بعدها هولاكو إلى بلاده بمن بقي من قواته حياً بعد هذه المعركة"[(١)] . ويلاحظ أن ماركو بولو حاول في معلوماته الأخيرة تلك ان يتجنب ذكر الهزيمة الشنيعة التي منيت بها قوات هولاكو في نهاية المعركة وهو ما تجمع عليه كل المصادر الأخرى بما فيهم مؤرخو الدولة الايلخانية أنفسهم ومنهم رشيد الدين فضل الله الذي ينقل بكل صراحة ووضوح نتائج هذه الحرب حيث يورد أنه بعد تراجع عساكر بركة أرسل هولاكو أبنه آباقا لتعقبهم داخل ديارهم، لكن حصل في النهاية ما لا يحمد عقباه إذ ثبت رشيد الدين ذلك بنص جازم قال فيه " وتنفيذاً لهذا الأمر عبروا نهر الترك، وشاهدوا جميع بيوت الأمراء واعيان بركة تلمع في تلك الليلة كالنجوم، بينما لم يكن أحد من عساكرهم مقيماً في تلك المنازل ، وما أن علموا بقرب قوات هولاكو منهم، هربوا فنزلت قوات هولاكو في مساكنهم، وجلسوا فيها ثلاث ايام من الراحة والانس والمتعة، وعندما أطلع بركة وعساكره على أحوال منازلهم وعيالهم وحاشيتهم ومواشيهم ، حشد بركة قواته كالنمل وظهروا في تلك الصحراء الفسيحة ليداهموا قوات هولاكو عند مطلع الفجر وعندما كانت الأمدادات تصل إلى اتباع بركة، تراجعت قوات هولاكو، وأنكسرت

(١) رحلات ماركو بولو ،ج٣، ص ٣٦٤.

أثناء هذا التراجع عند عبور نهر الترك تحطم الجليد في بعض نواحي فغرق كثير من الجنود، وعاد بعدها سيدهم هولاكو منكسر الخاطر لسؤ الطالع" (١).

وفي هذا السياق يذكر ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)" أنه لما بلغ بركة وصول هولاكو إلى بلاده، نادى قومه للتهيؤ للحرب، وحشد جحافله حتى ممن بلغ من العمر عشر سنين، وأستطاع أن يهزم بهم قوات هولاكو"(٢) في حين يقول بيبرس الدويدار (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) " أنه لما بلغ بركة خبر هولاكو وقربه من بلاده سار بعساكر للقاءه، وكان بينهما نهر يسمى نهر الترك، فلما وصلت قوات هولاكو عند ذلك النهر تكدس أصحابه عليه فأنخسف فيهم الجليد وغرق منهم خلق كثير، ورجع هولاكو مع من تبقى من أصحابه إلى بلاده بالهزيمة" (٣) في حين يشير شمس الدين الذهبي "أن واقعة هائلة جرت بين هولاكو وبركة، كانت الدائرة فيها على هولاكو، بحيث قتل خلق من أصحابه، وغرق فيها أخرون ونجا هولاكو بنفسه"(٤). فيما ذكر ابن فضل الله العمري بما نصه " أن هولاكو قصد أرض القبجاق، وأقام فيها ثلاث ايام ، وفي اليوم الرابع داهمتهم الخيل، وداسهم بركة بجنوده وعساكره ودارت الدوائر على هولاكو"(٥).

وفي ضوء ما تقدم يبدو جلياً أن هولاكو حقق نصراً في أول الأمر، وهذا ما أكتفى ماركو بولو بالأشارة إليه في مروياته، ويتجاهل ما وقع لاحقاً إذ أن هذا الانتصار شجع هولاكو على أرسال أبنه آباقا لتعقب قوات بركة المنسحبة أمامه من أجل القضاء عليهم قضاءاً نهائياً، إلا أن النتيجة الحاسمة للحرب كانت على عكس ما اراده هولاكو حين شنت قوات بركة هجوماً مضاداً مظفراً تم لها فيه القضاء على

---

(١) جامع التواريخ، ج١، ص ٣٣٥.
(٢) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق حسين محمد ربيع (القاهرة: دار القلم، بلام)ج٥، ١٩٨.
(٣) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (بيروت: مطبعة حسيب درغام ، ١٩٩٨م)، ص ١٤-١٦.
(٤) العبر في خبر من غبر(دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م)، ج٣، ص ٣١٢.
(٥) مسالك الابصار في ممالك الأمصار، ج٢، ص ٩١.

معظم القوات المعادية حتى أن هولاكو لم يتحمل مرارة الهزيمة الشنيعة فلم يجد ما ينتقم به سوى اصدار الأوامر بقتل جميع تجار بلاد القبجاق الذين كانوا في بلاده[١].

ومع أن النزاع بين الدولة الايلخانية ودولة مغول القبجاق استمر وبشده بعد وفاة كل من هولاكو خان وبركة وخان وذلك بين أعقابهما من الذكور، إلا أن ماركو بولو لم يشر إلى ذلك في مروياته بعكس ما ورد من التفاصيل الكثيرة الوافية في المصادر الاسلامية الأخرى [٢].

مرويات ماكو بولو عن عهد السلطان آباقا خان (٦٦٣-٦٨٠هـ/ ١٢٦٥-١٢٨٢م)

على الرغم من أن عهد السلطان آباقا خان الذي خلف والده هولاكو خان سنة٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م يمثل مرحلة مهمة من تاريخ حياة هؤلاء الايلخانيين إذ جرى في عهده تثبيت أسس وقواعد الدولة الايلخانية التي كانت قد أرسيت معالمها في عهد والده هولاكو خان ، غير أن ماركو بولو لم يغط هذا العهد بأكثر من أشارات بسيطة لا توفر عرضاً لحقيقة ما جرى فيه حيث وصف الرحالة البندقي شخص السلطان آباقاخان " بسيد الشرق الذي يملك ولايات كثيرة واسعة"[٣] ومثل هذا القول له ما يبرره نظراً لما أجمعت عليه كل المصادر على سعة هذه الدولة ايام هذا السلطان التي ضمت ولايات كثيرة مثل العراق العربي [٤]واقليم الجبال [٥]

(١) ميرخواند ، تاريخ روضة الصفا ، ج٥، ص ١٧٩.
(٢) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، ص ٣٣٧ومابعدها؛ محمد علي الباز، كيف اسلم المغول(عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م)، صص ١١٨-١٢٠.
(٣) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٥٢.
(٤) العراق العربي: وهي تسمية تطلق على مناطق العراق بعد أن أصبح اقليماً تابعاً للدولة الايلخانية أثر سقوط الخلافة العباسية، ويضم ايضاً الاحواز (خورستان). للمزيد من المعلومات انظر: القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٣٢٦.
(٥) اقليم الجبال: ويطلق على المناطق في شمال غرب بلاد فارس، ويحيط به من الغرب اذربيجان ومن الجنوب العراق، ويضم مناطق عديدة في بلاد فارس. للمزيد من المعلومات انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٩٩؛ القلقشندي، صبح الاعشي، ج٤، ص ٣٦٥.

فضلاً عن مدن واقاليم بلاد فارس الكثيرة، ومناطق اخرى خضعت للحكم الايلخاني في عهده في بلاد الروم [١] وأرمينية وغيرها.

وفيما عدا ذلك فإن ما يورده ماركو بولو عن عهد آباقا خان لا يتعدى الأشارة سوى بشكل مقتضب عن الحرب التي كانت قد نشبت بين الدولة الايلخانية ودولة مغول الجغتاي [٢] التي أنفرد بتسميتها ببلاد الشجرة الجافة، فما ذكره ماركو عن أسباب هذه الواقعة بقوله " أن السلطان آباقا اضطر نتيجة الاضرار التي انزلها الملك قايدو [٣]ببلاده إلى أرسال قوة كبيرة جداً من الفرسان إلى أقليم الشجرة الجافة حيث أقاموا فيها أبتغاء حماية حدود دولتهم من غارات قايدو "[٤] . ومما يلاحظ أن ماركو بولو لم يكن دقيقاً في حديثه عن تفاصيل هذا النزاع الذي وقع في مجرياته بأخطاء بينة نظراً لعدم وجود التطابق مع المصادر المعاصرة الأخرى، وفي مقدمة ما وقع فيه ماركو بولو من أخطاء أن هذه البلاد لم تكن تحكم من قبل قايدو، وأنما كان يحكمها براق خان [٥] حفيد جغتاي بن جنكيزخان، الذي نال ثقة أمبراطور

---

(١) بلاد الروم: وهي أرض الترك، وتعرف ايضاً بأسم آسيا الصغرى، وكانت مركز للامبراطورية الرومانية ومن ثم البيزنطينية فالعثمانية، ويحدها من الغرب بلاد الشام، وهي تركيا الحالية. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، صص ٩٩-١٠٠؛ اسد رستم، بلاد الروم (بيروت: دار المكشوف، ١٩٥٥م)، صص ٢-٨.

(٢) دولة مغول الجغتاي وهي أحدى الخانيات التي أقامها المغول في بلاد ما وراء النهر وتشمل بلاد الأويغور وأملاك الدولة الخوارزمية، وسميت بهذا الأسم نسبة إلى جغتاي الابن الثاني لجنكيزخان التي أصبحت من أملاكه بحسب التقسيم الذي اجراه جنكيزخان لأراضي الامبراطورية المغولية بين أبناءه ، فيما ينفرد ماركو بولو بتسميتها بلاد الشجرة الجافة دون أن يوضح سبب تلك التسمية. للمزيد من المعلومات انظر: رشيد الدين فضل الله،تاريخ خلفاء جنكيزخان، صص١٤٦-١٥٠.

(٣) قايدو وهو قايدو بن قاشي بن أوكتاي بن جنكيزخان، وكان يسيطر على أجزاء واسعة من بلاد الجغتاي، ودخل في نزاع مع الأمير براق خان من أجل الزعامة على خانية الجغتاي وتمكن من أقتسام السلطة معه، إلا أنه أنفرد مجدداً بحكم خانية الجغتاي بعد وفاة منافسه براق خان. للمزيد انظر رشيد الدين فضل الله ، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢١.

(٤) رحلات ماركو بولو، ج ٣، ص ٣٥٢.

(٥) براق خان: وهو أحد كبار الأمراء المغول ، وحفيد جغتاي الابن الثاني لجنكيز خان، وقد دخل مع قايدو حفيد أوكتاي بنزاع مرير من أجل حكم خانية الجغتاي، إلا أن براق تمكن من الانفراد بالحكم أبتداءاً من سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، بعد تسوية مع قايدو حصل بموجبها الأخير على أراضي شاسعة مقابل الاعتراف بسيادة براق خان. وللمزيد انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ١٥٢ وما بعدها.

المغول قوبيلاي قاآن وتمكن من حكم البلاد بعد أن قام بتسوية النزاع مع قايدو حفيد أوكتاي على أساس من تقسيم بلاد ما وراء النهر بينهما وذلك بأن يأخذ براق ثلثا البلاد ويترك والثلث الأخر لقايدو [١] فضلاً عن ذلك فقد حصل أتفاق بين كل من براق وقايدو في العمل على أنتزاع أجزاء من أراضي الدولة الايلخانية وضمها لممتلكاتهما مما فتح ابواب المواجهة بين الايلخانيين ومغول الجغتاي [٢] وتشير الأدبيات المتوفرة إلى أن أول بوادر للنزاع بينهما حدثت سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م عندما وصل الأمير مسعود الخوارزمي [٣] مبعوثاً من قبل براق إلى السلطان آباقاخان، لكن تبين فيما بعد أن مهمته كانت غايتها التجسس لمعرفة بواطن القوة والضعف لدى عسكر آباقاخان، ومعرفة طرق المواصلات [٤] وأن نوايا هذا الأمير سرعان ما أنكشفت بعد ايام من عودته إلى بلاده وظهور حشود كبيرة من عساكر براق على حدود ولاية خراسان [٥].

---

(١) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٢؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥،ص ١٧٨؛ وانظر ايضاً عباس اقبال، تاريخ المغول، صص ١٤٧-١٤٩.

(٢) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، ق٢، ص ٢٢- ٢٨؛ المسوفي القزويني، تاريخ كزيدة ، ص ٥٨٢.

(٣) مسعود الخوارزمي: وهو الأمير مسعود بن يلواج الخوارزمي، حكم بلاد ما وراء النهر نيابة عن المغول منذ عهد أوكتاي قاآن، وقد حظى بمكانة كبيرة عند المغول. للمزيد عن سيرته انظر: خواندمير، دستور الوزراء، صص،٣٣١- ٣٣٢؛ بارتولد ، تركستان، ص ٦٥٤.

(٤) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، ص ١٥؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص ٤٥٨.

(٥) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، ص ١٥؛ خواندمير، دستور الوزراء، ص٣٣٢ ؛
Howorth, History of the Mongols, vol,٣, pp. ٢٢٨-٢٣١.
وخراسان بلاد واسعة في بلاد فارس، وأول حدودها آنذاك مع العراق وتتصل مع الهند وتعني أرض الشمس المشرقة. للمزيد انظر: ياقوت مجعم البلدان، ج٢، صص ٣٥٠-٣٥٢.

وتجمع المصادر على أن السلطان آباقا حاول عقد الصلح أول الأمر مع الأمير براق، وأبدى مرونة كبيرة بتنازله عن ولايتي غزنة [١] وكرمان [٢]، إلا أن براق كان مغروراً بحجم قواته، وبقدرته على الحاق الهزيمة عسكرياً بقوات آباقا، إلا أن وقائع المعركة دللت على أن عسكر براق لم يكن قادر غير الفرار بنفسه [٣]، وقد وصف ماركو بولو تلك المعركة ونتائجها من دون أن يحدد تاريخها بالقول " زحف براق بجيش جرار، وتقدم في زحفه مسافة عدة ايام دون أن تعترضه أي قوة تستحق الذكر حتى بلغ نهر ايوان أو (جيحون)[٤]، حيث أصبح على مقربة من عساكر آباقا، حينها أستعد الطرفان للحرب، ولكن ما أن حدث الاشتباك بينهما حتى تكسرت قوات براق تحت ضربات عساكر آباقا وهجماته، وتمت ملاحقتهم وحدثت مذابح عظيمة فوق مياه النهر"[٥] وبذلك أنتهت الحرب بينهما بهزيمة براق وقواته بعد الضربات التي وجهها لهم الأمراء الايلخانيين.

ويختتم ماركو بولو مروياته عن عهد آباقا بذكر وفاته من دون أن يذكر تاريخاً محدداً لذلك [٦] ، وما نجده في المصادر الأخرى يؤكد أن آباقا خان توفي في العشرين من ذي الحجة سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م [٧].

---

(١) غزنة: وهي مدينة عظيمة وواسعة تقع في أطراف خراسان، وتشتهر بكثرة خيراتها وبرودة مناخها. وللمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٤، ص ٢٠١.
(٢) كرمان: وهي ولاية واسعة تقع بين سجستان وخراسان، وهي كثيرة النخل والزرع والمواشي . للمزيد انظر: ياقوت:معجم البلدان، ج٤، صص ٤٥٤-٤٥٥.
(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص٣٥٢.
(٤) جيحون: وهو نهر كبيرفي أقليم ما وراء النهر ، ويقع على جانبيه عدد من المدن والبلدان كسمرقند وبخارى. للمزيد انظر: ياقوت ،معجم البلدان، ج٢، ١٩٦.
(٥) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص٣٥٢.
(٦) المصدر نفسه ، ج٣، ص٣٥٣.
(٧) رشيد الدين فضل الله،جامع التواريخ، ج٢، ص ٨٥ ؛
Howorth, History of the Mongols, vol,٣, p.٣١٠.

مرويات ماركو بولو عن السلطان احمد تكودار (٦٨٠ـ ٦٨٣هـ/ ١٢٨٢ـ١٢٨٤م)

تعد مرويات ماركو بولو عن عهد الايلخان احمد تكودار [١]، وحوادث نزاعه على السلطنة مع أبن اخيه ارغون [٢] ذات أهمية كبيرة للدراسات المغولية وذلك لسببين مهمين، الأول لكون ماركو بولو كان معاصراً لأحداث تلك الحقبة ومطلعاً على الكثير من تفاصيلها وخفاياها، والثاني لان ماركو بولو نفسه كان مبعوثاً من أمبراطور المغول قوبيلاي قاآن إلى ارغون خان غريم السلطان وهو في طريق عودته لبلاده [٣].

أن أهمية حكم السلطان احمد تكودار تأتي بالاساس من كونه أول من أعتنق الاسلام من حكام الدولة الايلخانية، وهي مسألة طالما أثارت الجدل كثيراً في المصادر التاريخية من حيث حيثياتها ودلالاتها، بل أن هناك خلاف فيما اذا كان أسلامه قد أعتنقه ظاهرياً من أجل توليه عرش السلطنة، أم أنه حصل بعد ذلك وفيما اذا كان للطبقة الادارية المسلمة دوراً في دفعه إلى سدة الحكم لمواجهة منافسيه الأخرين الاكثر أستحقاقاً منه لتولي العرش حسب ما تقره قوانين الياسا، وفيما اذا دفع هذا الايلخان حياته ثمناً لأعتقاده الديني أم انه كان مجرد نزاع نشب بين أفراد اسرة هولاكو حول مسألة أحقية من يتولى من افراد الاسرة من الذكور عرش السلطنة، وفي هذا المحتوى نرى أن روايات ماركو بولو في هذا الشأن لها قيمتها

---

(١) احمد تكودار: وهو السلطان احمد بن هولاكو بن تولوي بن جنكيزخان، ثالث حكام الدولة الايلخانية، وأول حكامها المسلمين، وقد قتل سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م نتيجة مؤامرة دبرها بعض الأمراء المغول، وكان أحد أسبابها يعود إلى أعتناقه الاسلام. للمزيد من المعلومات انظر:

Marco Polo , The travels of Marco Polo , pp.٣٧٠-٣٧١.

(٢) ارغون خان: وهو ارغون بن آباقا بن هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان، رابع حكام الايلخانيين وتميز عهده بالعداء الشديد ضد المسلمين . للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، ص ٢٢٧.

(٣) ماركو بولو،رحلات ماركو بولو، ج١، ص٤٥.

التـاريخية والسـياسية وذلك من خـلال تحليلها ومقارنتها بالمصادر الأخرى المتوفرة [١].

في البداية نقول أن بعض المصادر تشير إلى أن احمد تكودار كان مغولياً مسيحي المعتقد في طفولته، وعمذ بأسم نيقولا [٢]، لكن أسمه تبدل بعد أن أعتلى السلطنة وأعتنق الاسلام، متخذاً من احمد اسماً له ، وأنه راسل السلطان المملوكي المنصور قلاوون [٣] يخبره بأعتناقه الاسلام، وطلب منه أن يضع حد للنزاع بينهما وأقامة علاقة ودية بين الدولتين الايلخانية والمملوكية [٤]، ومع ذلك نجد هناك مصادر أخرى تقول أن احمد تكودار كان قد أعتنق الاسلام قبل توليه السلطة بمدة طويلة، وأنه اسلم وهو صبي صغير قبل أن يبلغ سن الرشد بتأثير من أحد شيوخ الصوفية[٥]، والدليل على ما يثبت على ذلك ما ذكره احمد تكودار نفسه في رسالة كان قد أرسلها إلى السلطان المملوكي المنصور قلاوون يذكر فيها أنه أعتنق الاسلام في عنفوان الصبا وريعان شبابه [٦]، حتى أن هناك من الروايات ما يشير إلى أنه أعتنق الاسلام في عهد أبيه هولاكو وهو صبي صغير[٧]، وهو ما يدلل أنه ليس حديث العهد بالاسلام عندما تولى الخانية وربما مرّ عليه أكثر من ثمانية عشر عاماً

---

(١) شيرين بياني، المغول التركيبة الدينية والسياسية، ص ٢٨٣.

(٢) Dohsson, Histoire des Mongols, Vol. ٣, Pp.٥٥٢-٥٥٤; Howorth, History of the Mongols, vol,٣, pp. ٢٨٥-٢٩٠; Saunders, The History Of Mongol Conquest, P. ١٣٢.

(٣) المنصور قلاوون: وهو أحد أشهر السلاطين المماليك الذي تولى حكم الدولة المملوكية لمدة أحد عشر عاماً للمدة بين السنوات (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٠٩م)، وقد أشتهر بحروبه مع المغول والصليبيين. للمزيد انظر: حسن الأمين، المغول بين الوثنية والنصرانية والاسلام، (بيروت: دار المعارف للمطبوعات، ١٩٩٣)، ص ٢٣١.

(٤) محمد عبد الحليم رجب، انتشار الاسلام، ص ١٨٢.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشي، ج٤، ص٤٢٠؛ رجب ، انتشار الاسلام ، ص١٧٨ .

(٦) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص ٩٧٨.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٦٣؛ رجب ، انتشار الاسلام، ص١٧٩

على الأقل وهو مسلم على أعتبار أن وفاة والده هولاكو حدثت في سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م [١].

وأما رواية ماركو بولو فتعزز الروايات الاسلامية السابقة، وتؤكد على أن احمد تكودار كان على دين الاسلام قبل توليه السلطنة فقد ذكر الرحالة مانصه " كان لأباقا اخ أسمه اكومات [٢] وهو سلطان أعتنق الاسلام "[٣] ويلاحظ أن ما ذكره ماركو بولو حول مسألة أسلام تكودار تتفق مع ما ورد من روايات معاصريه فضلاً عن آراء الباحثين المحدثين على نحو ما ذكرت شيرين بياني " أن جهود الايرانيين أثمرت بقيادة آل الجويني [٤]، ونصير الدين الطوسي في أسلام أحد الأمراء المغول من أبناء هولاكو الوثني ولم يقف عند ذلك الحد، بل أن تلك الجهود اتت أكلها كاملة عندما أعتلى هذا الأمير العرش الايلخاني بعد أخيه السلطان آباقا"[٥].

وفيما يخص أرتقاء تكودار السلطنة فإن ماركو بولو يصرح علانية بأن احمد تكودار كان مغتصباً للحكم في البلاد من الوارث الحقيقي لها ، وهو أبن أخيه ارغون بن آباقا خان الذي أنقض هو وداعموه على العرش بغتة، وأستخدم الأموال في كسب قلوب الأمراء المغول حيث يذكر ماركو" أن اكومات(تكودار) لم يكد يسمع بنبأ وفاة أخيه آباقا، حتى دبر خطة للاستيلاء على الملك، على أعتبار أن ابن أخيه ارغون كان في خراسان، وعلى مسافة بعيدة منه ، لا يستطيع منعه أو من تنفيذ خطته

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ، ج٢، ص٣٤١.
(٢) اكومات هو الأسم الذي يطلقه ماركو بولو للتدليل على احمد تكودار، ولم نجد هذه التسمية في باقي المصادر سوى لدى هذا الرحالة البندقي في أشارته لهذا السلطان. للمزيد انظر: رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٥٣.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥٣.
(٤) تذكر بعض المصادر أن اسرة آل الجويني، وعلى رأسهم شمس الدين الجويني أسهموا بأقناع الأمراء المغول بتوليه احمد تكودار السلطنة الايلخانية بسبب خلفيته المسلمة، وقد نجحوا في تلك المهمة بسبب غياب ارغون في ذلك الوقت. للمزيد انظر: رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، صص ٩٣-٩٥؛ ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥، ص ٣٣٦.
(٥) المغول التركيبة الدينية والسياسية، ص ٢٨٣.

وعندئذ جمع احمد جيشاً قوياً وذهب به مباشرة إلى بلاط اخيه آباقا، وأستولى على زمام الأمور في قصر أخيه المتوفي ، وهناك وجد من الكنوز ما لايكاد يصدقه عقل لضخامتها، فعمد تكودار على توزيعها بين الأمراء المغول ، وملك أفئدتهم بذلك وأعلنوا أنهم لا يرضوا بغيره سلطاناً، وفوق هذا فإن تكودار أبدى صلاحية عظيمة وأصبح محبوباً من الناس أجمعين، كما أن رشيد الدين فضل الله يتفق تماماً مع ما أورده ماركو بولو عن توزيع السلطان احمد تكودار للأموال على الأمراء وغيرهم لكسب ولائهم بقوله " وبعد أقامة مراسيم الابتهاجات والافراح، أمر احمد تكودار بإحضار الخزائن ووزع ما فيها على الخواتين والأمراء والمقربين والمحتاجين واغدق على جميع الجند والعسكر فمنح لكل فرد منهم مائة وعشرين دينار" (١).

غير أن الحقيقة تبقى أن ماركو بولو وغيره من المؤرخين أستندوا في أحقية ارغون بالعرش الايلخاني قد جاءت من أن السلطان الراحل آباقا خان كان قد سعى إلى تسمية أبنه ارغون للعرش من بعده (٢)، على الرغم من هذا كان يخالف تعاليم الياسا التي تنص على أن تعيين الايلخان تظل من مسؤولية مجلس القوريلتاي وحده، ولذلك عندما توفي آباقا لم يأخذ القوريلتاي بوصية الراحل، وأنما أنشغل بمن سيخلفه من المتنافسين على السلطة وفقاً لتعاليم الياسا الجنكيزخانية (٣).

وفي هذا السياق فقد أنقسم أمراء وزعماء المغول إلى ثلاثة اقسام، حاول كل قسم منهم تثبيت أحقية مرشحه بكل ما يملك ، وكان هناك ثلاثة متنافسون اثنان منهم أبناء هولاكو وهما احمد تكودار ومنكو تيمور والثالث ارغون بن اباقا، ولما توفي منكو تيمور بعد أقل من شهر من وفاة آباقا، فقد أنحاز أنصاره إلى جانب ارغون

(١) جامع التواريخ، ج٢، ص ٩٣.
(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، صص ٥١٨-٥٢٠.
(٣) يحدث في بعض الاحيان التمرد على السلطة وتعاليم الياسا، والتمرد على سلطة الايلخان الشرعية، وذلك أما أن يكون المرسوم القآني الصادر من أمبراطورية المغول لم يصل بعد، أو قد يستغرق الأمر أشهر لوصوله، وفي بعض الاحيان ينجح التمرد على السلطة الشرعية لكن الامبراطور يتعامل مع الأمر الواقع، ويثبته على عرش السلطنة بعد أن يتعهد الايلخان الجديد بتقديم الولاء إلى الامبراطور، ودفع الهبات والأموال إلى القآن الاعظم. وللمزيد انظر رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، صص ١٨٤-١٨٥.

[1]، وأصبح النزاع يقتصر على أثنين بين هذا الأخير وعمه واحمد تكودار [2] ومهما يكن من أمر فقد نجح السلطان احمد تكودار في النهاية في تثبيت أركان حكمه، وحصل في الوقت نفسه على الشرعية في حكم السلطنة من خلال إقرار وتثبيت مجلس القوريلتاي له كحاكم على الدولة الايلخانية، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فبعد تحقق لارغون من القوة الكافية للتمرد على عمه احمد تكودار، بعد أن حصل على دعم عدد من الأمراء المغول، وأعطى ماركو بولو في هذا الشأن بعض التفاصيل المهمة التي لا نجدها عند غيره من المؤرخين بقوله " عندما أقترب ارغون مصحوباً بقوة عسكرية كبيرة، جمع اكومات عدد كبير من الفرسان يقدر بنحو ستون الفاً وأقام عسكره قبالة سهل فسيح، منتظراً أبن أخيه هناك لملاقاته "[3].

ويروي ماركو بولو عن ارغون قوله " أن احمد تكودار خرج على شريعتنا المغولية، بل نبذها، وتخلى عنها، وأصبح مسلماً، وكم سيسوئنا أن نسمح للمسلمين بالولاية على التتار"[4] ومن خلال هذا النص يتضح أن ماركو بولو كان يدعم فكرة ان يكون احمد تكودار قد أصبح الرجل الخارج عن نظم المغول وتقاليدهم وقوانينهم، وأن ارغون هو المحافظ على رسوم المغول وتقاليدهم، ولابد لتكودار أن يرحل حتى يبقى ارغون ليصون بسياسته وتعاليمه الدولة المغولية القائمة،ومثل هذا الرأي لماركو يؤكده ابن العبري الذي ذكر أن عدد من كبار الأمراء وجدوا في إسلام تكودار خطراً سياسيا وعسكرياً عليهم فانقلبوا عليه مما جعلهم يطالبون بأعتلاء ارغون دست الحكم عوضاً عن عمه [5]، يضاف إلى ذلك أن عدد من الأمراء الموالين للمسيحية لعبوا دوراً حاسماً في هذا النزاع إذ اشتكت فئة منهم إلى القآن الاعظم قوبيلاي قآن متهمين تكودار بأضطهاد المسيحيين المغول، وعدم

(١) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢،ص ٩١.؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص ١٣٥.
(٢) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، ص ٩١-٩٢.
(١)رحلات ماركو بولو، ج٣، ص٣٥٣
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥٣.
(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥٤.

تطبيقه لقوانيين الياسا السائدة، وتمكنوا في النهاية من قتل السلطان احمد تكودار ولاسيما بعد أن قام الأخير بقتل أثنين من كبار الأمراء المغول المؤيدين لأرغون وهما قنقورتاي وكوجاك [(١)].

وعن نهاية أحمد تكودار بعد أن مالت الكفة إلى ارغون يذكر رشيد الدين فضل الله " تم استجواب احمد تكودار قائليين له بأي ذنب قتلت الأمير قنقورتاي وكوجوك اللذين قدما خدمات جليلة لأخيك آباقا وساعداك على توليه الملك، فأجاب تكودار لقد أسات التصرف، ولن أخطى بعد ذلك "[(٢)] في حين يروي ماركو بولو أن ارغون أمر أحد رجاله بقتل عمه، والقاء جثته في مكان لا يراه أحد من المغول وهكذا قدر لأرغون أن يتسلم مقاليد عرش الايلخانية وسلطنتها [(٣)].

مرويات ماركو بولو عن عهد ارغون خان (٦٨٣-٦٩٠هـ/ ١٢٨٤-١٢٩١م)

على الرغم من أن ماركو بولو أعطى أهتماماً كبيراً للنزاع الذي خاضه ارغون ضد السلطان احمد تكودار إلا أن الرحالة البندقي لم يعط الاهتمام نفسه لمدة حكم ارغون خان ووقائعها التي أمتدت لما يقرب من سبع سنوات، وما ذكره عن خصوصيات حكمه ، لا يتجاوز الأشارات العابرة، وعلى سبيل المثال لم يرو ماركو بولو مراسيم أرتقاء ارغون السلطنة سوى بكلمات محدودة فذكر" بعد أن أتم الأمر لأرغون وأستولى على القصر الديوان والسيادة، جاء جميع الأمراء الذين كانوا يدينون بالولاء إليه، لتقديم فروض الطاعة بأعتباره مولاهم الايلخاني"[(٤)] وعلى العكس من ذلك نجد تفاصيل وافية عند مؤرخي المغول عن هذا الارتقاء مثل ما ذكره رشيد الدين " أن ارغون أجتمع مع جميع الأمراء والخواتين المغول الذين أتفقوا على توليه ارغون في يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادي الأول سنة

(١) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، صص ١٠١-١٠٢
(٢) جامع التواريخ، ج٢، صص ١٢٠-١٢١.
(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٥٩.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥٩.

٦٨٣هـ / ١٢٨٤م، وبعد أختيار المنجمون طالع السعد، أجلسوه على الدست وركعوا له وتناولوا الكؤوس للمناسبة، وعمدوا إلى اللهو والشراب حسب العادات المغولية المتبعة لديهم ، ومن جهته بادر السلطان ارغون إلى شمل الأمراء المجتمعين بعطفه البالغ والوعود الحسنة"[١] ولم يجانب ماركو بولو الصواب عندما ذكر أن ارغون تولى السلطة سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م [٢]، على الرغم من أن هذا التاريخ يخالف ما أجمعت عليه المصادر الأخرى التي تثبت أن ذلك تم في سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م [٣]، ومع ذلك فإن ماركو بولو على ما يبدو كان على أطلاع على المرسوم الرسمي الذي أصدره قوبيلاي قاآن الذي ثبت من خلاله جلوس ارغون على رأس السلطة الايلخانية كسادس السلاطين الايلخانيين في التاريخ الذي ذكره ، وهو ما تم تاكيده من قبل رشيد الدين فضل الله ايضاً بقوله " قدم أوردوقيا [٤] رسولاً من لدن حضرة القآن، وأحضر المرسوم الذي ينص على أن يكون ارغون نائباً للقآن على السلطنة الايلخانية، وذلك في العاشر من صفر من سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، وهكذا فقد جلس ارغون للمرة الثانية على سرير السلطنة، وأقيمت الطقوس والمراسم الرسمية للمناسبة الجديدة "[٥]

ثم تحدث ماكو بولو عن سير الحرب التي خاضها السلطان ارغون ضد دولة مغول الجغتاي إذ يذكر " أن السلطان ارغون ارسل ابنه قاسان [٦]، ومعه ثلاثون الف من الفرسان إلى بلاد الشجرة الجافة أو (خانية الجغتاي) بقصد حماية أرضه

(١) جامع التواريخ، ج٢، صص ١٢٦-١٢٧.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٥٩.
(٣) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، صص ١٢٦-١٢٧؛ خواندمير، تاريخ حبيب السير، ج٣، ص ١٧٨.
(٤) لم نجد في المصادر على ترجمة عن سيرته.
(٥) جامع التواريخ، ج٢، ص ١٣٥.
(٦) قاسان: ويعرف في المصادر الاسلامية بمحمود غازان، وهو سابع حكام الدولة الايلخانية، وقد بقي على عرش الدولة لمدة تسع سنوات للفترة بين (٦٩٥-٧٠٤هـ/ ١٢٩٥-١٣٠٤م)، وقد أعتنق الاسلام قبل توليه السلطنة، وقد أعاد للدولة هيبتها بعد فترة من الحكام الضعاف من خلال القيام بعدة أصلاحات، وكذلك محاربة دولة المماليك . للمزيد انظر: عباس اقبال، تاريخ المغول ، صص٢٦٧-٢٧٠.

وقومه من عمليات السلب والقتل التي كانوا يقومون بها هؤلاء في أطراف بلاده "[١]، ويفهم من المصادر الأخرى كما يتضح ذلك من ماركو بولو في مروياته ايضاً أن السلطنة الايلخانية في عهد ارغون تعرضت لعدة هجمات من قبل دولة مغول الجغتاي، ويضيف بولو أن الحملة العسكرية التي أرسلها السلطان ارغون إلى هذه البلاد سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م أي قبل سنة من وفاته بقيادة أبنه غازان كانت لتأديب حكامها رداً على هجماتهم المتكررة على اراضي الدولة الايلخانية [٢].

وفيما عدا ذلك فقد أغفل ماركو بولو قيام ارغون بتصفية أصحاب الديوان من آل الجويني الذين كانوا يتولون ادارة البلاد، وكان لهم الفضل الأول في أرساء قواعد الادارة الايلخانية منذ بداية تأسيسها في عهد هولاكو خان [٣] . غير أن أهم ما يلفت الاهتمام بهذا الشان هو أن ماركو بولو أختزل وصفه لعهد ارغون خان بكلمات موجزة تحمل مغزى وايمان مسيحي عميق عندما قال " أن ولاية ارغون تجسد يسوع المسيح" [٤] . ومن دون أدنى شك أن ماركو بولو أختار مثل هذه الكلمات لتعبر عن وصف دقيق لعهد ارغون حيث أجمعت كل المصادر على محاباة هذا السلطان لعنصري اليهود والمسيحيين في المجتمع إذ أقدم على شن حملة تطهير واسعة للأداريين المسلمين لاسيما أولائك الاداريين المسلمين الذين قاموا بأعمال تعسفية ضد مراتب اليهود والمسيحيين خلال مدة حكم تكودار للسلطنة [٥].والحقيقة أن ارغون لم يكتف بذلك الأمر وحده ، بل حاول أقامة تحالف مسيحي مع ملوك

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٥٩.
(٢) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج٢، صص ١٥٤-١٥٦؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، صص ١٧٨-١٧٩.
(٣) منسوب لابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٨٣؛ مصطفى بدر، مغول ايران، ص ١٠.
(٤) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٥٩.
(٥) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ٧١٤؛ رجب،انتشار الاسلام، ص ١٨٥.

دول جورجيا [١] وأرمينية وصليبي الشام، من أجل مواجهة دولتي المماليك البحرية ودولة مغول القبجاق [٢]، وقد شرع بارسال الرسائل إلى ملوك أوربا والبابوية لتعزيز ذلك، وفي المقابل أستقبل لكثير من مبعوثي تلك الدول [٣] وفي هذا الشأن أرسل ارغون سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م رسالة إلى البابا هونوريوس الرابع [٤]، يقترح فيه عليه القيام بحملة عسكرية مشتركة على دولة المماليك البحرية لأنتزاع مدن بلاد الشام والاراضي المقدسة فيها مع أن المصادر لا تشير إلى أنه تلقى رداً ايجابياً من لدن هذا البابا [٥].

فيما ينقل المستشرق هاورث (Howorth) عن الحوليات الفرنسية بأن السلطان ارغون أعلن في رسالة إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع [٦] بأنه سوف يتوجه بعسكر كبير لأحتلال بلاد الشام، وأنه اذا ما تمكن من الاستيلاء على بيت المقدس فسوف يتركه حينئذ لمصير حاكميته لكن شيئاً من هذه الحملة على بلاد الشام لم تحصل في عهده [٧].

وفيما يخص سيرة وحياة ارغون الشخصية بحسب مرويات ماركو بولو عن هذا السلطان أنه في أواخر عهده توفيت أحدى زوجاته الاثيرات إلى نفسه، فقرر

---

(١) جورجيا: ويطلق على تلك البلاد في المصادر الاسلامية أسم بلاد الكرج، وتقع بين أوربا وآسيا، وغالبية سكانها مسيحيون يتبعون الكنيسة الشرقية الارثذوكسية. للمزيد انظر ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٤٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص ٧١٤.

(٣)Howorth, History of the Mongols, vol,٣, p. ٣٥٤.

(٤) هونوريوس الرابع: وهو كبير الكنيسة الكاثوليكية الذي تولى منصب البابوية لمدة سنتين للفترة بين (٦٨٤-٦٨٦هـ/ ١٢٨٥-١٢٨٧م)، وقد حاول القيام بعمليات تبشير واسعة لكن سرعان ما أدركته الوفاة. للمزيد انظر
Jihn Masefield, Marco Polos Silk Road, P. ١٤

(٥)Howorth, History of the Mongols, vol,٣, p.٣٥٤.

(٦) فيليب الرابع: وهو ملك فرنسا الذي تولى العرش في بلاده سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، عندما كان في السابعة عشر من عمره حتى وفاته سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م، وقد أتسمت فترة حكمه بالقوة . للمزيد انظر:
Douglas Rishardson, Phillipe IV (London: ٢٠١١), P. ١٢٦.

(٧)History of the Mongols, vol,٣, pp. ٣٥٣-٣٥٤.

السلطان وقتئذ أن يحترم وصيتها بأن لا يتخذ زوجة مكانها إلا من نساء أسرتها اللاتي كن يقيمن في خان باليق في الصين، ومن أجل ذلك يتحدث الرحالة ماركو بولو أن قوبيلاي قاآن أرسل له شخصياً أميرة مغولية حسناء في السابعة عشر من عمرها بصحبة مبعوثيها إلى الدولة الايلخانية كان من ضمنهم ماركو شخصياً الذي كان يصادف تاريخ عودته إلى بلاده، وعند وصول المركب الذي كان يقل الوفد القاآني كان بضمنهم ماركو بولو نفسه إلى مدينة هرمز [١] علم الوفد بوفاة ارغون خان، وكان هذا الوفد قد سلم الأميرة المغولية إلى أحد أبناء السلطان الراحل [٢].

ويختم ماركو بولو مروياته عن السلطان ارغون بذكر تفاصيل وفاته التي يثير الشكوك حول مصداقيتها بقوله " حكم السلطان البلاد ست سنوات مات في نهايتها مسموماً على عكس ما يشاع عليه بين الناس"[٣] ومع أننا لا نجد ما ذكره ماركو بولو في المصادر الأخرى سوى ما أورده ابن كثير بقوله " مات ارغون بعد تناوله شراب مسموم"[٤] أما الروايات الأخرى فلا تشير إلى موته بالسم وأنما ترجح أنه أخذ دواء لحفظ صحته واطالة عمره، لكن هذا الدواء تسبب في هلاكه بالنهاية . وتعد رواية رشيد الدين الذي كان طبيباً لارغون من أرجح الروايات على ما يبدو ومما قاله في هذا الشأن " أن ارغون خان كان يعتقد أعتقاداً راسخاً في ممارسات الكهنة وأساليبهم، وصادف أن جاء من بلاد الهند كاهن يدعى اطالة العمر، وسأله ارغون عن أية طريقة تطول بها اعمار الكهنة؟ فأجاب الكاهن بأستعمال دواء خاص للعلاج، وحينها سأل ارغون يوجد هذا الدواء هنا، فرد الكاهن بنعم، وجهز للسلطان عجيناً من الكبريت والزئبق، وظل ارغون يتناوله ما يقرب من ثمانية أشهر حتى

---

(١) هرمز: وهي من أهم مدن بلاد فارس البحرية، وتعد مركزاً تجارياً لنقل البضائع عبر البحر لمختلف البلدان. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ٤٠٢.
(٢) عباس اقبال، تاريخ المغول، ص ٢٥٤.
(٣) رحلات ماركو بولو، ج ٣، ص ٣٥٩.
(٤) البداية والنهاية، ج١٧، ص ٣٢٤.

أنتكست صحته بعدها وعجز الاطباء عن معالجته ، حتى توفي سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م" [١].

مرويات ماركو بولو عن عهد كيخاتوخان (٦٩٠-٦٩٤هـ/ ١٢٩١-١٢٩٥م)

تركت وفاة السلطان ارغون آثارها على الأوضاع العامة في الدولة الايلخانية بسبب أختلاف الاسرة الايلحانية الحاكمة حول من سيخلف السلطان المتوفي على دست الحكم، وكانت رواية ماركو بولو حول هذه المسألة مفادها " أنه عندما مات ارغون استولى على الحكم المدعو كيخاتو [٢] . ومما سهل له ذلك وجود الأمير غازان بن ارغون في بلاد الجغتاي، وعندما سمع الأمير بوفاة أبيه وأغتصاب عمه الملك تريث بعض الوقت في المطالبة بالسلطنة إذ لم يكن يستطيع مغادرة موقعه وقتئذ خشية من أعدائه " [٣] وطبقاً لما يورده ماركو بولو فإنه يعتقد أن كيخاتو كان مغتصباً للعرش من صاحبه الشرعي غازان بن ارغون، وهذه حقيقة تمثل وجهة نظر بعيدة عن الصواب، ذلك لان الرحالة البندقي تجاهل أن قوانين الياسا الجنكيزخانية لا تقر مبدأ وراثة العرش، وأنما يتم الاختيار للسلطنة عن طريق مجلس الأمراء في (القوريلتاي)، كما أن ما رواه ماركو بولو لا يتطابق مع ما جاء من معلومات في المصادر الأخرى حول هذه المسألة وخلاصتها أن الأمراء المغول كانوا قد أختلفوا على من يستطيع من الأمراء أن يملأ فراغ السلطنة، ومع أن غازان بن ارغون برز كأحد المتنافسين الكبار، إلا أن معظم الأمراء أستبعدوا غازان لما

---

(١) جامع التواريخ، ج٢، ص ١٦٢

(٢) كيخاتو: وهو خامس حكام الدولة الايلخانية، وقد تولى الحكم فيها لمدة اربع سنوات بعد وفاة أخيه ارغون، وفي عهده اضطربت الدولة بسبب ميله للبذخ والملذات والنساء وأنصرافه عن شؤون الحكم فساءت أحوال البلاد، واضطرب الأمن مما جعل بعض الأمراء يتمرد عليه حتى تمكنوا في النهاية من قتله. وللمزيد انظر: بيبرس الدويدار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ص ٢٨٥ ؛ بياني ، المغول ، ص ٣٠٦ .

(٣) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٦٠.

كانوا يرون فيه من قسوة مبالغ فيها لأدارة شؤون السلطنة" [١]. ويذكر رشيد الدين أنه في ظل هذا الوضع ظهرت بعض الفتن في بعض أنحاء البلاد لاسيما في لورستان [٢]، حيث قاد شخص أسمه أفراسياب تمرداً وتمكن فيه من الاستيلاء على مدينة اصفهان [٣]، وفي ظل هذه الفوضى أستلزم الأمر أختيار سلطان جديد على وجه السرعة لكي تستتب الأمور في البلاد، وهنا أستقر الراي بين الأمراء وبتأييد من أوروك خاتون ارملة السلطان الراحل على توليه كيخاتو بن آباقا دست الحكم وصادق القوريلتاي على هذا الاختيار المنعقد في سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م [٤].

وقد وصف ماركو بولو كيخاتو أنه كان شديد الولع في الملذات والنساء [٥]، فيما أجمعت المصادر الأخرى التي أتفقت مع ما ذكره الرحالة بكونه شخصية ضعيفة وعديم الكفاءة ويميل إلى اللهو والملذات مع أهماله الشديد لشؤون الحكم والأدارة التي تعد من أهم الأسباب التي دفعت بالأمراء المغول للتمرد عليه [٦] وقد تزعم هؤلاء الأمراء شخص بايدو [٧] بن طرغاي بن هولاكو الذي تمكن من قتل السلطان كيخاتو في النهاية وذلك في يوم الخميس السادس من جمادي الأول سنة

---

(١) ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، ج٥ ، ١٩٢؛ طقوش ، تاريخ المغول العظام والايلخانيين، ص٢٥٥ ؛
Howorth, History of the Mongols, vol,٣, p.٣٨٧.

(٢) لورستان: وهي كورة واسعة بين الاحواز واصفهان. للمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٥، ص ٢١٠.

(٣) اصفهان: وهي مدينة عظيمة ومشهورة تقع في جنوب بلاد فارس، ويطلق عليها ياقوت الحموي أسم اصبهان. للمزيد انظر: معجم البلدان، ج١، صص ٢٠٦-٢٠٨.

(٤) رشيد الدين فضل الله،جامع التواريخ، ج٢، صص ١٧٢-١٧٣.

(٥) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٦٠.

(٦) وصاف، تاريخ وصاف، ج٣، صص ٢٨٢-٢٨٣؛ عباس اقبال ، تاريخ المغول، ص ٢٦١.

(٧) بايدو: وهو سادس سلاطين الدولة الايلخانية، تولى الحكم فيها سنة ٦٩٤/ ١٢٩٥م، لمدة خمسة أشهر فقط، تمكن بعدها محمود غازان من قتله بذريعة أنه لم يلتزم بقوانيين الياسا لاسيما وأن المرسوم القاآني الرسمي لم يصل بعد ليباشر عمله كحاكم رسمي للدولة الايلخانية، وهو ما حصل عليه محمود غازان فيما بعد . للمزيد انظر: وصاف، تاريخ وصاف، ج٣، صص ٢٨٢-٢٨٣.

٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م [١]، وينقل لنا وصاف عن كيخاتو مما سبق أن ذكر ماركو بولو بكونه لاهياً عن شؤون الحكم من دون أي اعتبار للياسا الجنكيزخانية، ولذلك اقصاه الأمراء المغول التزاماً بما اقره الاجداد [٢].

أما عن نهاية السلطان كيخاتو فإن رواية ماركو بولو لم تكن دقيقة فما أورده " احتفظ كيخاتو بالملك سنتين حتى ازيح عنه في نهايتها بالسم"[٣]، ومن دون أدنى شك أن ماركو بولو أخطا في مضامين هذا النص في كلا الحالتين، ففي الشطر الأول أنه حدد مدة حكم كيخاتو بسنتين فقط مع أن جميع المصادر تجمع أن مدة حكم السلطان كيخاتو هي اربع سنوات وليس سنتين، وفي الشطر الثاني من روايته ينفرد الرحالة البندقي بالطريقة التي توفي فيها كيخاتو من خلال دس السم له، وهي رواية غير صحيحة على الاطلاق فمن الثابت أن كيخاتو دخل في نزاع عسكري ضد الأمراء المتمردين من أعداءه بقيادة بايدو، وقد وقع كيخاتو اسيراً في النهاية بأيديهم وتم قتله [٤] ويذكر لنا وصاف طريقة قتله بالقول " أنه لما انتصر بايدو سعوا إلى تعقب كيخاتو، وأستطاعوا حينئذ أن يقبضوا عليه، وأن يحملوه إلى أحد الخيام ليتم خنقه بوتر القوس حتى لا يسيل دمه المقدس على الأرض"[٥] وهي طريقة تذكرنا بطريقة قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله حتى لا يؤدي مقتله إلى أراقة دمه على بساط الأرض ، وهو أمر راسخ مرتبط باعتقادات المغول التي لا تسمح بإراقة دماء أفراد العائلات الحاكمة أن تنسكب على الأرض ، لان ذلك يجلب حسب معتقداتهم الغضب الإلهي على قاتليه ويؤدي بهم إلى وقوع النحس [٦].

---

(١) منسوب لابن الفوطي،الحوادث الجامعة، ص ٥٢١.
(٢) تاريخ وصاف، ج٣، ص ٢٧٩.
(٣) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٦٠.
(٤) رشيد الدين فضل الله،جامع التواريخ، ج٢، صص ١٨٧-١٨٨.
(٥) تاريخ وصاف، ج٣، ص ٢٧٩.
(٦) الجوزجاني ، طبقات ناصري،ج٢ ص ١٩٧.

مرويات ماركو بولو عن عهد بايدوخان ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م

بعد أنتصار بايدو على كيخاتو، والاعلان عن تتويجه على رأس الدولة الايلخانية من قبل سائر أمراء المغول، وعلى الرغم من أن المرسوم القآني لم يكن قد وصل بعد بتثبيت حكمه بشكل رسمي (١)، إلا أن بايدو تولى زمام الأمور في السلطنة في جمادي الاول سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م وهو بانتظار وصول المرسوم القآني ، غير أن الأمر لم يستقر لبايدو في الحكم سوى لأشهر معدودة حتى ثار عليه الأمير غازان بن ارغون بذرائع عديدة أهمها المطالبة بدم عمه كيخاتو (٢)، ومع أن بايدو حاول استرضاء غازان وعقد الصلح معه على أساس من أقتسام البلاد بينهما لكن غازان رفض كل محاولات الصلح، وقد أيده في ذلك عدد كبير من الأمراء المغول من أتباع غازان الذين خوفوه من عاقبة تقسيم الادارة وأن بايدو يتسم بالغدر والخديعة والمكر بحسب المقربين من معسكر غازان مما فتح مجال المواجهة بينهما قائماً (٣)، حتى نجح الأمير نوروز(٤)، أمير خراسان في تعزيز جانب غازان على حساب بايدو، وذلك من خلال تحريض الأمراء المغول لمصلحة غازان (٥)، وعند حصول المواجهة بينهما أدرك بايدو ضعف موقفه في مقابل غازان، وحاول النجاة بنفسه والهرب إلى بلاد الكرج ، لكن أمراء معسكر غازان أدركوه في همذان، وتمت تصفيته هناك بعد حكم لم يستمر لأكثر من خمسة أشهر

---

(١) وصاف، تاريخ وصاف، ج٣، صص ٢٨٢-٢٨٣؛ عباس اقبال، تاريخ المغول، ص ٢٦١.

(٢) عباس اقبال، تاريخ المغول، ص٢٦١.

(٣) رشيد الدين فضل الله ، داستان غازان، صص ٩٠-٩٦.

(٤) نوروز: وهو أحد الأمراء المغول الذي تولى أمارة خراسان، وقد أرتبط بمصاهرة مع غازان وساهم بشكل كبير في توليه غازان دست السلطنة من خلال تأليب الأمراء المغول على بايدو إلا أن غازان قام بقتله فيما بعد لأسباب خاصة. للمزيد من المعلومات انظر: شيرين بياني،المغول، ص ٣٠٩.

(٥) رشيد الدين فضل الله،داستان غازان، ص ٩٦؛ منسوب لابن الفوطي،الحوادث الجامعة، ص ٥٢٣.

من السنة جلس على أثرها على عرش السلطنة غازان بن ارغون وذلك في ذي الحجة من سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م (١).

ومن الجدير بالذكر القول أن رواية ماركو بولو حول حكم بايدو لم تبتعد في التفاصيل عن غيرها من المصادر سوى في تحديد سنة قتل بايدو التي ذكرها في سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، ومما جاء فيها " عندما توفي كيخاتو وأستولى على العرش بايدو وكان عماً له، كما كان مسيحياً فاذعن له الجميع ما عدا غازان ومن معه من الأمراء والجند، وحدث هذا في عام٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م الذي زحف بقواته عليه وبدأت معركة ضارية انتهت بهزيمة بايدو ومقتله، وعندئذ قبض غازان على زمام الملك" (٢).

وهكذا نرى أن مرويات ماركو بولو حول السلطنة الايلخانية توقفت عند نهاية حكم بايدو وتولي السلطان محمود غازان دست السلطنة حيث عاد بعدها ماركو بولو بعد هذا التاريخ إلى بلاده البندقية، ولم يشير بعد ذلك إلى أي معلومات أو روايات عن حكم الايلخانيين المتأخرين(٣).

(١) رشيد الدين فضل الله، داستان غازان، ص ٩٢.
(٢) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٦٠.
(٣)Marco Polo , The travels of Marco Polo, p. ٣٤٩.

الفصل الرابع

مرويات ماركو بولو عن البلدان التي تشكلت منها الامبراطورية المغولية

الفصل الرابع
مرويات ماركو بولو عن البلدان التي تشكلت منها الامبراطورية المغولية

يتناول هذا الفصل أهم مرويات ومشاهدات الرحالة البندقي ماركو بولو عن الاجناس البشرية والمجتمعات المختلفة التي تشكلت منها الأمبراطورية المغولية خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وفيها قدم الرحالة معلومات عامة وخاص في غاية الأهمية للأصقاع والبلدان المكونة لتلك الأمبراطورية ، وما تميزت بها تلك البلدان من روابط ثقافية وأجتماعية في كونها كانت تخضع لحكم سلطان المغول وسيادته .

وفي الواقع أن ما يدعو للأستغراب والدهشة لغير المختصين بالشان المغولي أن هذه الأمبراطورية المغولية كانت تضم مجتمعات بشرية متنوعة على نحو من بلدان من أقصى الشرق عبر النهرين وصولاً إلى أراضي الخلافة العباسية المنقرضة، فضلاً عن أجزاء في شرق ووسط أوربا بما فيها سهوب روسيا وسيبيريا، وهي بذلك تعد أكبر أمبراطورية عرفها التاريخ ، وفي الحقيقة أن هؤلاء المغول أخضعوا تلك البلدان بقوة النار والحديد لتلك الاصقاع. بعد أن خيروا تلك الشعوب المغلوبة وحكامها بين السيف أو تقديم فروض الطاعة للقاآن، وفي الواقع لا توجد غرابة في ذلك فقد بنى جنكيزخان أمبراطوريته أولاً على جماجم أبناء جلدته من المغول والتتار، فما بالك بعدئذ بمصائر تلك الشعوب ، وتروي المصادر عن جنكيزخان قوله " أنني مستعد لقتل نصف شعب المغول لكي يستقيم النصف الاخر" ومثل هذا النص كفيل لوصف معاناة تلك الشعوب والاقوام التي خضعت لحكم الأمبراطورية بالدم والحديد.

ويجب علينا أن نوضح هنا أن طبيعة هذا الفصل إقتضت الاعتماد على كتب البلدانيين المعاصرة لأزالة الغموض في ما ورد في رحلات ماركو بولو في بيانات وتحديد البلدان المدن التي فتحها المغول بدقة على ما هي عليه الان، وفي الوقت

نفسه يلاحظ أن بعضاً من تلك المرويات لا يمكن قرائتها كوقائع تاريخية جازمة عن المغول ووقائعهم كونها لم تصدر عن مؤرخ بل من رحالة بلداني قائم على الرأي والقناعة الشخصية ، وبموجب هذا المحتوى لابد أن تخضع اقواله للتحليل والاستنتاج لا اعتماداً على الوصف، كما يجب أن ننوه كذلك بأن هذه الروايات المهمة التي أوردها ماركو بولو لم تعتمد ترتيب البلدان بحسب موقعها الجغرافي لذا آثرنا أن نبدأ هذا الفصل من العراق أرض الخلافة العباسية المنقرضة، وما يجاورها وصولاً إلى الشرق والصين تباعاً. والشيء الاخر الذي يتوجب ذكره هو أن الأمبراطورية المغولية ضمت بلدان أخرى لم يكن قد زارها ماركو بولو ولم يتحدث عنها في مروياته كمملكة الكورويو أو دولة كوريا في شرق آسيا مما اضطررنا إلى تجاهلها لألتزامنا بما ورد في رحلة ماركو بولو من مرويات عن المغول وشعوبهم.

مرويات ماركو بولو عن العراق

يبدأ ماركو بولو مروياته عن العراق، وبالحديث عن مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية المنقرضة التي ينفرد بأطلاق تسمية (بلداش) عليها بكيل من المديح والثناء واصفاً أياها بالمدينة الكبيرة والمتطورة جداً على نحو من قوله "بلداش مدينة كبيرة جداً، كانت في سالف الايام المقر الرسمي لخليفة المسلمين ، وهي تناظر الحبر الأعظم أو قداسة البابا لدى المسيحيين ، وفيها مدارس تدرس مختلف أنواع العلوم الدينية إلى جانب العلوم الاخرى كالطب والفلك والكيمياء والهندسة والحساب وغيرها من العلوم" [١].

وفي حقيقة الأمر أن المصادر تجمع على المكانة الرفيعة والفريدة لمدينة بغداد في زمن الخلفاء العباسيين [٢]، ونحن هنا لسنا بصدد مقارنة مرويات ماركو

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٨.
(٢) وصاف، تاريخ وصاف، صص ١٣-١٤.

بولو لأثبات تلك المكانة العظيمة التي وصلت إليها، والدعم اللأمحدود الذي حظيت به من قبل الخلفاء العباسيين، لكن لا بأس هنا من أستعراض بعض من نصوص المؤرخين والبلدانيين المعاصرين على نحو مايذكر ابن رسته " أن بغداد تقع في وسط الدنيا، وهي سرة الأرض، ومدينة عظيمة لا نظير لها، وهي دار الخلافة بني هاشم، ومحل سلطانهم، ويقبل عليها الناس من جميع البلدان"[١] ويذكر أهم هؤلاء البلدانيين ياقوت الحموي عن مدينة بغداد بقوله " بغداد أم الدنيا، وسيدة البلاد، ودار الخلافة"[٢] في حين يذكر الرحالة الطنجي ابن بطوطة عن بغداد قوله " بغداد دار السلام والخلفاء ومقر العلماء"[٣].

غير أن هذا الاطراء بحق مدينة بغداد أيام العباسيين لا يجد الصدى نفسه عند ماركو بولو بحق الخلفاء أنفسهم إذ تحمل مروياته الكثير من الضغينة لهم ولاسيما عن الخليفة المستعصم بالله اخر خلفاء بني العباس متهماً أياه بأضطهاد المسيحيين في بلاده حتى أن ماركو بولو يعبر عن فرحه الغامر ورضاه التام بنهاية تلك السلالة على يد المغول، واصفاً مقتل الخليفة العباسي بالعدل الالهي جزاءاً له لما كان قد وقع من مظالم كما ذكر بحق المسيحيين خلال فترة تولي المستعصم الخلافة[٤]، إذ يعقب ماركو بولو على تلك الحادثة "أن الرب يسوع المسيح رأى هنا أن من الخير أن ينتقم لما وقع ايام العباسيين من مظالم على المسيحيين" [٥]. مما حدا بالمؤرخين العراقيين مصطفى جواد واحمد سوسة بالرد على تغطية ماركو بولو في حديثه عن بني العباس متهماً بولو بالكذب والتعصب للمسيحية والافتراء على الخليفة ، ولا شك أن المتتبع لنصوص ومرويات ماركو بولو في تغطيته لأخبار بغداد وغيرها

---

(١) ابي علي أحمد بن عمر بن رسته (ت٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، الاعلاق النفيسة (ليدن، ١٨٩١م)، ج٧، ص ٣٦٨.
(٢) معجم البلدان، ج١، ص ٤٥٦.
(٣) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، ج١، صص ١٦٤- ١٦٥.
(٤)Marco Polo , Il Milione, P.١٦؛ Tim Mcneese, Marco Polo and the Realm of Kublai khan Pp. ٥٣-٥٤.
(٥) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٠.

يشخص بوضوح ميل ماركو بولو للمسيحية على أساس ذلك التعصب وعلى النحو الذي يظهره مؤرخنا مصطفى جواد وهي حقيقة لا يمكن نكرانها (١)، ولكن الحقيقة التي لا يمكن التغاضي عنها ايضاً تعرض العديد من أتباع الديانة المسيحية واليهودية لكثير من المظالم من قبل بعض العباسيين ، والواقع أن أي باحث يتوخى الحياد في النقد والتحليل يشخص الكثير من تلك المظالم العقائدية التي يرد صداها في المصادر العربية والاسلامية (٢).

ومن جهة أخرى يستعرض ماركو بولو في مروياته بعض الصناعات في بغداد مثل صناعة الانسجة لاسيما عمل الحرير المغزول بخيوط الذهب، وعمليات ثقب اللآلي الواردة من البحر العربي إلى بغداد بعد أن تدخل في عدد من الصناعات المحلية ومن ثم تصدر إلى أوربا، ويختم الرحالة البندقي مروياته عن بغداد بالحديث عن نهر دجلة وصعوبة الملاحة في مجراه بالقول" وهو نهر عظيم تنقل بواسطته البضائع من وإلى الهند لكن الملاحة فيه تستغرق بينهما سبعة عشر يوماً بسبب كثرة التعاريج في مجراه"(٣).

وفيما يتعلق بولاية الموصل وأطرافها يتحدث ماركو بولو عن مركز الموصل فيقول " الموصل ولاية ضخمة ، تسكنها أقوام شتى، طائفة منهم تؤمن بالنبي محمد تسمى بالعرب، وتدين طائفة أخرى بالمسيحية ، إلا أن غالبيتهم لا تمثل عقائد الكنيسة الكاثوليكية التي ينتمي لها ماركو ، ولديهم بطريق روحي يعرف

---

(١) دليل خارطة بغداد، ص ٢٠٥.

(٢) شهدت العصور الاسلامية المختلفة، من بينها العصر العباسي تعرض العديد من أتباع الديانات اليهودية والمسيحية إلى الكثير من المظالم لاسيما في عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م) الذي أمر بهدم جميع الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية، مع وضع شارات على ملابسهم لتميزهم عن غيرهم، ومنعهم من ركوب الخيل، فضلاً عن التعسف في جباية الجزية مما أدى إلى أضطرار قسم كبير منهم لمغادرة البلاد، ومن الواضح أن الحال أختلف عما هو عليه بعد سقوط الخلافة العباسية على يد هولاكو . وللمزيد من المعلومات انظر: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول،صص ٢٤٦-٢٥٢؛ جان موريس فيه، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسني زين (بيروت : دار المشرق ، ١٩٩٠)، ص ٣٥٠

(٣) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٨.

بالجاثليق وهو من يرسم كبار الاساقفة، ورؤساء الاديرة ويرسلهم إلى جميع أتباع رعيته في أصقاع الأرض كبغداد والقاهرة والهند وغيرها من أتباع الكنيسة الارثذوكسية لمتابعة عقائدهم" [١].

غير أن ما يلفت النظر في مرويات ماركو بولو عن سكان الموصل هو وصفه السيء والمشين للأكراد إذ يذكر " أن الاجزاء الجبلية من الموصل يسكنها جنس من الناس يسمون بالأكراد، بعضهم مسيحيون والبعض الاخر من المسلمين وجميعهم قوم لا مبدأ لهم، ولا عمل ولا صناعة ويعتاشون على السلب لاسيما من قوافل التجار"[٢]. وفي طبيعة الحال هذا الوصف عن الاكراد يعد أمراً قاسياً، لما فيه الكثير من التحامل والتعميم[٣] وربما يعكس رأيه هذا مرارة تجاربه الشخصية مع بعض الاكراد الذين التقى بهم في أثناء تواجده في هذه المدينة ، ولاسيما أن رحالة آخرين قد زاروا الموصل وأسهبوا في الحديث عنها ولم يذكروا شيء من هذا القبيل على الرغم مما يرد في بعض المصادر التي نسبت عن البعض من عمليات السلب واقعاً إلى هؤلاء الاكراد لكنها بكل تأكيد لا تصل إلى مستوى التعميم على النحو الذي ذكره ماركو بولو [٤] .

---

(١) رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ، ج١، صص ٥٦-٥٧.

(٣)Marco Polo , Il Milione, P.١٤٤ Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٦٥.

(٤) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١، صص ١٧٥-١٧٧.في حين ينقل مؤرخ المغول رشيد الدين رواية يؤكد فيه قيام هؤلاء الاكراد بقطع الطرق والقيام بعمليات قتل وتسليب المارة، وأن الامبراطور منكو قاآن أوصى هولاكو عند بدأ غزو بغداد بقوله " أزل في طريقك الاكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها". للمزيد من المعلومات انظر رشيد الدين، جامع التواريخ، ج٢،ص٢٣٧.

أما مروياته عن ولاية البصرة فيذكرها ماركو بولو بشكل مقتضب، ويركز عن أحوال الزراعة فيها كقوله عنها " والبصرة مدينة بحرية، وتشتهر بالنخيل التي تنتج أجود انواع التمور في العالم"(١).

مرويات ماركو بولو عن بلاد فارس

تعد بلاد فارس أحد أكثر البلدان التي أسهب الرحالة البندقي ماركو بولو في وصف تفاصيلها وأحوالها التي لايفوقها في ذلك سوى وصفه المدهش لبلاد الصين التي كان قد أستقر فيها لمدة سبعة عشر عاماً، ونحن سبق وأن أفردنا فصلاً كاملاً عن مرويات هذا الرحالة عن أخبار الدولة الايلخانية وعهود ستة من حكامها الأوائل والحروب والنزاعات التي قاموا بها وجرى شطر كبير من أحداثها في تلك البلاد وأصقاعها فضلاً عن وصف أهم مدنها وقصباتها والعمليات التجارية فيها أبان سيطرة المغول الايلخانيين عليها، على الرغم من أن ماركو بولو لم يمكث في هذه البلاد سوى اياماً معدودة عندما كان على رأس السفارة التي أرسلها قوبيلاي قاآن إلى ارغون خان رابع حكام الدولة الايلخانية وهو في طريق عودته إلى بلاده البندقية (٢).

ومما يذكره ماركو بولو في مروياته عن هذه البلاد أن أقليم بلاد فارس يتكون من ثمان ممالك عظيمة فاخرة رئيسة ، فضلاً عدد كبير من أمهات المدن والقصبات وفروعها التي تتبع لها أدارياً لتلك البلاد (٣) لكنها دمرت بشكل كبير أثر هجمات المغول المتعددة والعنيفة عليها وهذه الممالك هي كل من

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٨.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ٢٨؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، صص ٢٠-٢٢.
(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٩.

قزوين[١]وكردستان[٢]ولورستان[٣]وسولستان[٤]واصفهان وشيراز[٥]وسونكارا[٦] وتيمو كاين [٧]، ومثل هذا التقسيم حقيقة لا نجده في المصادر الأخرى فمثلاً البلداني الاصطخري (ت بعد ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) يرى " أن بلاد فارس مكونة من خمس كور كبرى، أكبرها أصطخر[٨] وأصغرها سابور"[٩] وفي الواقع أن مثل هذه التقسيمات بطبيعة الحال تتغير بين فترة زمنية وأخرى بحسب المتغيرات السياسية على الأرض التي تحصل في العادة بفعل التشظي والانشطار بين قوى هذه الممالك نتيجة الفتن والتمردات الداخلية التي تحصل فيها [١٠].

---

(١) قزوين: وهي مدينة مشهورة تقع بين مدينتي الري وابهر ، ولها منفذ علي بحر فارس، وقد أشتهرت بحصونها المنيعة. للمزيد من المعلومات انظر: ياقوت معجم البلدان، ج٤، ص ٣٤٢.

(٢) كردستان: وهي بلاد بناها الاشوريين، وتقع جنوب قزوين، وغالبية سكانها هم من الاكراد. وللمزيد من المعلومات انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص٢٠٤.

(٣) لورستان: وهي كورة واسعة تقع بين خوزستان واصفهان، وهي بلاد خصبة ذات سلاسل جبلية. للمزيد انظر: ابو قاسم محمد بن علي المعروف بأبن حوقل، صورة الأرض، ط٢ (بيروت، دار صادر ، ١٩٨٣م)، ج٢، ص ٢٤٩.

(٤) سولستان: يشير وليم مارسدن المتخصص في هذه الحوليات أنه لا توجد مدينة بهذا الأسم، ويرجح بأن تكون هذه المدينة هي سجستان التي تقع جنوبي هراة . للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، الحاشية، ج١، صص ٢٠٤-٢٠٥.

(٥) شيراز: وهي مدينة تقع في وسط بلاد فارس، وقد أشتهرت بعذوبة ميائها وخصوبة أرضها. للمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٣، صص ٣٨٠-٣٨١.

(٦) سونكارا: يشير وليم مارسدن إلى أن أسم سونكارا هو الأسم القديم لمدينة جورقان أو جورجان في الوقت الحاضر. وللمزيد من المعلومات انظر: ماركو بولو،رحلات ماركو بولو، الحاشية ، ج١، ص ٢٠٥.

(٧) تيموكاين: وهو الأسم القديم لدامغان، وهي مدينة كبيرة تقع بين الري ونيسابور وتشتهر بكثرة المياه والاشجار والفواكه فيها. للمزيد انظر: القزويني، اثار البلاد واخبار العباد، ص ٣٦٥.

(٨) اصطخر: وهي أحد أهم واعرق المدن الايرانية وتقع جنوب بلاد فارس. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٢١١.

(٩) ابو قاسم ابراهيم محمد الاصطخري، المسالك والممالك (ليدن: ١٩٣٧م) ، ص ٩٧. وسابور مدينة تقع في شمال بلاد فارس، بناها الملك الشهير سابور بن اردشير، وتمتاز بنقاء هوائها وكثرة اشجارها. للمزيد انظر: القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد، ص ٢٠٠.

(١٠) John Masefield, Marco Polo's Silk Road, Pp. ٥٣-٥٥.

ثم يتحدث ماركو بولو عن المدن وطبيعتها مبتدأ بوصف مدينة تبريز[١] فيقول عنها " أنها مدينة كبيرة ، فيها مواقع حصينة ، وتعتمد في معيشتها على التجارة والصناعة، ويضيف أن غالبية سكانها من المسلمين مع عدد قليل من النصارى النساطرة ، وكانت قد خضعت لحكم المغول صلحاً مما جعلها تنجو من عمليات التخريب والقتل"[٢].

أما حديث ماركو عن مسلمي تبريز[٣] ففيه الكثير من التهكم والازدراء إذ يذكر بأن " غالبية سكانها المسلمين أتصفوا بالغدر والخيانة والتجرد من المبادئ حتى أنهم يعتقدون بأن عقيدتهم تبيح لهم نهب كل ما سرق أو سلب من أتباع الديانات الأخرى مال حلال، كما أنهم يعدون السرقة ليست بجريمة ، وأن كل من لقى حتفه على يد النصارى فهو شهيد، ولولا ما كبدهم سلطان المغول من ويلات شداد لأرتكبوا أفعال شنعاء"[٤] وهنا يظهر ماركو بولو مرة أخرى تعصبه الشديد ضد المسلمين، فعلى الرغم مما وقع في أيدينا من بعض الروايات التي تؤكد تعرض عدد من القوافل التجارية المملوكة لأتباع الديانات اليهودية والمسيحية من قبل بعض قطاع الطرق في هذه المدينة وأطرافها ، وفي بعض الاحيان تبرر تلك السرقات عقائدياً وفي الاتجاه الذي ذكره ماركو بولو، إلا أنه من الواضح أن ماركو بولو عمد إلى توظيف تلك السرقات بما يسيء للدين الاسلامي والاستخفاف فيه من خلال الادعاء أن لمثل تلك الحوادث لها أصول وتشريعات في عقيدتهم الاسلامية[٥].

---

(١) تبريز: وهي من أهم مدن اذربيجان، وهي مدينة عامرة ذات اسوار محكمة. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ١٣.
(٢) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٦٤.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٦٤.
(٤) المصدر نفسه ، ج١، صص ٦٤-٦٥.
(٥)Marco Polo , Il Milione, Pp.١٨-١٩ ؛ Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu,P.٦٥.

وفي المقابل يقدم ماركو بولو وصفاً عن مدينة يزد [(١)] وجمالها ومما قاله عنها يكاد يتطابق ويتشابه إلى حد بعيد مع ما أورده ياقوت في القول أن " يزد مدينة كبيرة أشتهرت بصناعة الذهب والحرير فضلاً عن الاعمال التجارية، وأهلها يمارسون الرياضة بكثرة "[(٢)].

وعند وصول ماركو بولو إلى مدينة كرمان [(٣)] يقول أنه شاهد المدينة ونزل فيها ويذكر عنها " أن كرمان مدينة تقع شرق بلاد فارس، تعاقب على حكمها عدة سلالات واتابكيات إلى أن أخضعها المغول الذين أصبحوا يولون عليها أمراء بحسب اهوائهم"[(٤)].

ويلاحظ قول ماركو ان المغول أهتموا بمدينة كرمان ما أن عرفوا أن هذه المدينة تشتهر بصناعة الادوات الحربية العالية الاتقان كالسيوف والرماح وما شابهها، وكغيرها من مدن بلاد فارس فقد أشتهرت كرمان ايضاً بالقلاع الحصينة[(٥)]، وهو ما يرد ذكره في المصادر البلدانية كقول البلداني الاصطخري ذكر " معظم مدن بلاد فارس محصنة بحصون منيعة إذ يوجد فيها أكثر من خمسة الاف قلعة في شتى انحاء البلاد"[(٦)]، ومثل هذا الرواية سبق وأن ذكرها الادريسي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٩٠م) بقوله " بأرض فارس قلاع وحصون منيعة لا يقدر أحد على فتحها عنوة "[(٧)].

---

(١) يزد: وهي مدينة تقع بين نيسابور وشيراز، وتشتهر بصناعة الذهب والحرير. للمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٥، ص ٤٣٥.
(٢) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٢.
(٣) كرمان: وهي ولاية واسعة مشهورة تقع بين خراسان وسجستان، وهي مدينة كثيرة النخل والزرع والمواشي. للمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٤، صص ٤٥٤-٤٥٥.
(٤) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٣.
(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٣.
(٦) المسالك والممالك، ص ١١٩.
(٧) ابو عبد الله بن محمد بن محمد الادريسي،نزهة المشتاق في اختراق الافاق (القاهرة : المكتبة الثقافية، ٢٠٠٢م)، ص ٤١٩.

وعند وصول الرحالة بولو إلى جزيرة كيش [١] يبدو أنه عانى من أضطراب الأمن فيها، ولاسيما أن هذا الرحالة كان يقود بمعيته قافلة تجارية، فيصف جزيرة كيش بخطورة العيش فيها لاسيما على الاجانب والتجار والمسافرين كقوله " والناس في جزيرة كيش ونواحيها متوحشون متعطشون للدم يقتلون بعضهم بعضاً، فهم لا يتورعون في أنزال الاذى بمراكب التجار والمسافرين، مع شدة خوفهم من جند المغول الذين كانوا ينزلون بهم أقسى أنواع العذاب عند تعرضهم لمراكب التجار والمسافرين [٢] " في الحقيقة أن أعداد هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق في هذه الجزيرة كان مهولاً لدرجة أن حكام المغول أضطروا إلى أصدار مرسوم يلزم سكان الجزيرة بحماية القوافل التجارية من هجماتهم، بما في ذلك توفير الحماية لهم من خلال توظيف عدد كبير من الحراس مقابل أجور يتقاضونه عن خدماتهم[٣].

وكانت اخر محطة لماركو بولو في أصقاع بلاد فارس هي المدينة التجارية الأخرى هرمز ويبدأ بذكر أن هذه البلاد تتبع سياسياً لحاكم كرمان [٤]، وهي رواية وردت عند الادريسي مما يعني أن نفوذ حاكم كرمان على هرمز كان يعود إلى ما قبل سيطرة المغول عليها [٥] . ثم يذكر ماركو بولو أن اقليماً تجارياً ضخماً جديداً قد نشأ في هذه الجزيرة يعرض مختلف البضائع القادمة من الشرق والغرب والهند وبغداد وغيرها من البلدان ، ويقع في سهل منبسط يغطيه النخيل، وهو على مسافة يومين من هرمز القديمة ، وقد أنتقل إليه الناس لاسيما التجار ليمارسوا أعمالهم التجارية فيه [٦]، وفي هذا المحتوى يذكر ابو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) " أن أهل

---

(١) كيش: وتعرف ايضاً بجزيرة قيس، وتقع وسط بحر فارس، وتعد من أهم المراكز التجارية للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩٧.
(٢) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٠.
(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٠ ؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P.٦٥.
(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٩.
(٥) نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ص ٤٣٦.
(٦) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٨؛ وانظر ايضاً وصاف، تاريخ وصاف، ج٣، ص١٨١.

هرمز أنتقلوا من المدينة القديمة إلى الجديدة التي تقع قبالة بحر عمان، ولم يبق في هرمز القديمة إلا القليل من الناس بفعل تخريب المغول للمدينة القديمة مما جعل الناس تنتقل إلى هرمز الجديدة"(١) .

أما ماركو بولو فيعطي تفسيراً اخر حول أنشاء مدينة هرمز الجديدة ويقول أنها فضلاً عن كونها أصبحت مركزاً تجارياً فإن الناس تاتي إليها بسبب شدة الحر والرطوبة في المدينة القديمة التي تقع على البحر لاسيما في فصل الصيف ويتجاهل ماركو لأي ذكر لغارات المغول التخريبية عليها أبان غزوها (٢)، في حين أن رواية ابن بطوطة عن مدينة هرمز الجديدة لا تختلف كثيراً عما رواه ماركو بولو إذ أنه يركز على أهمية التجارة فيها حيث يذكر أن هرمز الجديدة أقيمت على مقربة من هرمز القديمة، وهي مدينة حسنة كبيرة فيها اسواق تجارية حافلة، وهي مرسى تجارة الهند والسند وغيرها (٣).

ويلاحظ أن ماركو بولو أسهب في وصف العمليات التجارية في بلاد فارس وبشكل خاص في كل من كيش وهرمز، وبعيداً عن خلفية هذا الرحالة كونه تاجراً وأهتمامه بتلك التفاصيل بحكم خبرته في العمل التجاري لكن هناك مسألة طالما أغفلت عنها المصادر العربية والاسلامية وهي أن تلك المصادر نظرت إلى الغزو المغولي والذي أطاح في النهاية بالخلافة العباسية على أنه حدث سياسي وديني جلل أصاب المسلمين وتجاهلت ما كان يصبو إليه المغول من مكاسب اقتصادية هائلة عبر السيطرة على طرق التجارة (٤) فبغداد لم تكن الهدف الأسمى للمغول على الرغم من أهميتها كمركز ديني وحضاري كبير بل كانت غاية للوصول إلى أهداف

---

(١) اسماعيل بن علي بن محمد بن عمر المعروف بأبو الفداء، تقويم البلدان (باريس، ١٨٥٠م)، ص ٣٣٧-٣٣٨.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٩.
(٣) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، ج١، ص ٢٠٥.
(٤) عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ٢٢٠؛
Tim Mcneese, Marco Polo and the Realm of Kublai khan P. ٥٥

أخرى بدليل أن المغول أتخذوا من مدينة مراغة [1] كمركز لهم بدلاً عن بغداد، وما تجاهلته المصادر الاسلامية وأسهب ماركو بولو في وصف تفاصيله، أن المغول عقب سيطرتهم على بلاد فارس أصبحوا همزة الوصل لنقل السلع التجارية إلى المحيط الهندي وبلدان شرق وغرب آسيا وما يعني ذلك من فرض المزيد من ضرائب توفر للمغول الايلخانيين مبالغ طائلة حتى أنهم لعبوا دوراً غير مسبوق في تنظيم التجارة بين المدن من خلال توفير الأمن للتجار وضمان ممتلكاتهم ، وهو هدف تجلى بوضوح أثر سيطرة المغول على مناطق آسيا الصغرى التي أثمرت في التحكم في العمليات التجارية في البحر الاسود وميناء طرابزون، وتنظيم التجارة فيها بما فيها فرض ضرائب باهظة على العمليات التجارية والسلع المستوردة في آسيا الصغرى[2].

مرويات ماركو بولو عن آسيا الصغرى

يبدأ ماركو بولو مروياته عن آسيا الصغرى على نحو مقتضب التي يطلق عليها أسم تركمانيا في أشارة إلى بلاد هضبة الاناضول ، ويذكر أن في هذه البلاد ثلاث طبقات رئيسة من الرعايا وهم كل من التركمان والارمن والروم، ويصف غالبية سكانها الاتراك من التركمان" بأنهم شعب فظ غليظ، قليل الذكاء، وهم

---

(١) مراغة: وهي المدينة التي أتخذ منها المغول الايلخانيون حاضرة لهم بعد اسقاط الخلافة العباسية، وتعد من أهم مدن اذربيجان، وتقع في شمال غرب بلاد فارس، وتشتهر بأعتدال مناخها وخصوبة أرضها. وللمزيد انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٥، صص ٩٣-٩٤؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤،ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٧٨؛ هلال ، العلاقات بين المغول وأوربا، صص ٢١٩-٢٢٢. وهذه الضريبة عرفها المسلمون منذ خلافة عمر بن الخطاب بأسم مكوس التجارة وتسمى ايضاً بعشور التجارة وتفرض على البضائع التي تمر بأراضي الدولة الاسلامية، وتؤخذ مرة واحدة في كل سنة من التجار . وللمزيد انظر: ابي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م)، الأموال، تحقيق محمد عمارة (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٩م)، صص ٦٣١-٦٣٨.

مسلمون متعصبون، غالبيتهم من أهل البداوة ، ولهم خيول تعد من أجود الانواع وليس لهم من هم سوى سعيهم في العثور على مرعى خصب لماشيتهم"(١).

ثم يتطرق ماركو بولو إلى علاقة آسيا الصغرى بالمغول فيذكر أن جميع تلك البلاد تخضع لسلطة المغول الايلخانيين، ويعترفون بسيادتهم دون أن يورد ماركو بولو مزيد من التفاصيل .

ومما يجدر ذكره أن هجمات المغول على آسيا الصغرى تعود إلى ما قبل قيام الدولة الايلخانية لكنها آلت إلى ممتلكاتها فيما بعد (٢) أثر أخضاعها لسيادتهم بعد أن قاد أبرز قادة المغول بايجو نوين حملة كبيرة على دولة سلاجقة الروم وحاصر عاصمتها قونية (٣) في سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، وتقدم بأتجاه المدن الأخرى، ثم التقى الجمعان في سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م في معركة كوسي داغ حيث أنزل فيها المحاربون المغول هزيمة نكراء بالسلاجقة وكان من نتائجها خضوع هؤلاء السلاجقة في آسيا الصغرى لسيطرة المغول (٤)، وأن ظلت سلالة سلاطين سلاجقة الروم تحكم البلاد من الناحية الأسمية بعد تقديمها فروض الطاعة والولاء للمغول وتعهدها بدفع الالتزامات المالية تمثل بدفع مبلغ كبير من المال لم تشر المصادر إلى مقداره فضلاً عن عدد كبير من الخيول والثياب ، وظل هذا الوضع على حاله حتى تلاشت هذه السلالة بمرور الوقت وتم أخضاع آسيا الصغرى لحكم مباشر من قبل المغول الايلخانيين(٥).

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٠.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٥٠.
(٣) قونية: وهي من أعظم مدن الاسلام في بلاد الروم. للمزيد من المعلومات انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤١٥.
(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، صص ٤٥٠-٤٥١؛ الصياد، المغول في التاريخ ، ص ١٨٢؛ الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٣٦٤.
(٥) ابن ابي حديد المدائني، حملات الغزو المغولي للشرق، صص ٦٠-٦١؛ سهيل طقوش ، سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ط١ (بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م)، صص ٢٨٤-٢٨٨.

وفيما عدا تلك النتائج فإن معظم مرويات ماركو بولو عن آسيا الصغرى تركزت على مدينة القسطنطينية ذات النشاط الاقتصادي الكبير، لاسيما وأن ماركو بولو واسرته على معرفة واسعة بهذه المدينة عندما دخلوها بداية سفرهم كتجار وقد خصص ماركو بولو قسطاً كبيراً في مروياته للحديث عن هذه المدينة ونشاطها الاقتصادي (١)، وعمليات بيع وشراء السلع والمقايضة التي كانت تتم في هذه المدينة ولاسيما أنها كانت محطة رئيسة وملتقى لكبار التجار القادمين من وراء البحار حيث يتم فيها عرض بضاعتهم، وفي كثير من الاحيان كانت تجري عمليات مقايضة للبضائع لاسيما تبادل مواد الفلفل والبهارات والمنسوجات الحريرية التي تشتهر فيها مدن الشرق عامة(٢). والحقيقة أن لموقع القسطنطينية الاستراتيجي أثر كبير في أزدهار التجارة فيها منذ أمد بعيد فقد وصفها المقدسي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) بمدينة التجارة (٣)، ولاسيما البضائع القادمة عن طريق الحرير (٤)، كما أن القسطنطينية كانت عاصمة للأمبراطورية البيزنطية (٣٩٥-١٤٥٣م) خلال الفترة التي عاصرها ماركو بولو مما زاد من أهميتها سياسيا واقتصادياً، رغم غياب السيادة عنها من لدن السلاجقة الاتراك (٥).

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٥؛ عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ٢٣٥.

(٢) Stephn.Haw, Marco Polo's China, Pp. ١٣٨-١٤٠; Tim Mcneese,Marco Polo and the Realm Of Kublai khan, P. ٢٣.

(٣) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ط٣ (القاهرة : مكتبة المدبولي، ١٩٩١م) ، ص ١٤٧.

(٤) طريق الحرير: وهو أحد أشهر الطرق التجارية، ويمتد من أقصى شرق الصين، ويتفرع إلى مجموعة طرق مترابطة من شرق آسيا إلى غربها، وكان له أثر كبير في أزدهار الحضارات القديمة، وقد سمي بهذا الأسم لكثرة قوافل الحرير التجارية القادمة من الصين. وللمزيد من المعلومات انظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ص٤٦٠ ؛ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٩٧٩م)، صص ٦٢٦-٦٣٠.

(٥)Tim Mcnees, Marco Polo and the Realm Of Kublai khan P. ٢٣.

مرويات ماركو بولو عن أرمينية الصغرى والكبرى

يبدأ ماركو بولو أقواله عن أرمينية الصغرى [١] بوصف عام ومقتضب عن تلك المملكة المسيحية، وعن أحوال سكان تلك البلاد ومصادر معيشتها وطبيعتها البلدانية ومما قاله في هذا الشأن " أن معظم سكان أرمينية هم من الارمن الارثذوكس، ولهم فيها ميناء ضخم للتجارة، كما تحتوي على قلاع متعددة ، وهي البلاد تزخر بكل ضروريات الحياة، فضلاً عن وفرة المياه والزراعة والفواكه وصيد الطيور "[٢].

ويذكر ماركو بولو أن هذه المملكة كان يحكمها ملك عادل يراعي الدقة والعدالة في حكم شعبه على الرغم من أنه يقدم فروض الطاعة للمغول من دون تسمية هذا الملك، ولكن يمكن الاستنتاج أن ذلك الحاكم الذي قصده الرحالة هو هيثوم الثاني [٣] على أعتبار أن ماركو بولو زار هذه البلاد بعد عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، وهو التاريخ الذي كان قد توفي فيه هيثوم الاول والد الملك الجديد [٤].

ولم يسهب ماركو بولو في الكثير من التفاصيل عن أحوال تلك البلاد، وما آلت إليها أوضاعها والطريقة التي أخضعت فيها عسكرياً من قبل المغول ، وكذلك التحالف الوثيق الذي أقامه ملوكها مع الأمراء المغول والصليبيين ضد غرمائهم

(١) أرمينية الصغرى: سميت بهذا الأسم لتميزها عن أرمينية الكبرى، وتقع في قلب آسيا الوسطى، وإلى الغرب من أعالي نهر الفرات. للمزيد من المعلومات انظر: ياقوت، معم البلدان، ج١، صص ١٦٠-١٦١؛ وانظر ايضاً عبد الله جاسم ، العلاقات السياسية بين المغول ومملكة أرمينية الصغرى، ص ٧٤.

(٢) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٤٨.

(٣) هيثوم الثاني: وهو ملك أرمينية الصغرى الذي خلف والده هيثوم الاول في حكم المملكة للفترة بين (٦٦٨-٦٨٤هـ/ ١٢٦٩-١٢٨٥م)، وتذكر المصادر الارمينية أنه وثق التحالف مع المغول، كما أن البلاد أزدهرت في عهده فقد شجع الزراعة والصناعة وأقام المستشفيات ودور الايتام والمراكز العلمية . للمزيد انظر:
John Masefield, Marco Polo's Silk Road, P. ٤٢.

(٤) عبد الله جاسم، العلاقات السياسية بين المغول ومملكة أرمينية الصغرى،صص ٢٥٣-٢٥٥.

المسلمين. وفي الحقيقة أن صمت ماركو بولو تجاه هذه الحوادث الهامة من التاريخ المغولي يبدو لنا أن ذلك يعود إلى أن مملكة أرمينية كانت واحدة من عدة بلدان خضعت في وقت مبكر لعساكر المغول، ويلاحظ صمت هذا الرحالة عن هذا التحول الذي من الممكن أن يفسر لسببين فهو أما أنه لم يكن على أطلاع على مجريات تلك الاحداث، ومن ثم لا يعرف عنها شيئاً ليدونها ، أو لان تلك البلاد كانت قد فتحت في زمن الاسلاف، وأستقرت في ولائها للمغول بشكل مطلق، ولذلك لم تعد هناك حاجة لذكرها من قبل ماركو بولو، علاوة على ذلك أنها لم تكن تشهد أحداثاً هامة خلال الفترة التي عاصرها ماركو بولو لذلك أكتفى بالقول أن هذه البلاد خاضعة لحكم المغول، وركز على وصف طبيعتها الجغرافية والزراعية (١).

وما نجده في المصادر عن هذه البلاد يدور بشكل خاص عن عمل المغول العسكري في سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م إذ ساروا بقيادة الأمير بايجو نوين بقوة عسكرية تعدادها ثلاثين الف محارب من الفرسان والمشاة لحصار أرمينية الصغرى التي كانت تخضع حينئذ لسلاجقة الروم في عهد سلطانها كيخسرو الثاني (٢)، وبعد معركة فاصلة تمكن بايجو نوين من تحقيق نصراً ساحقاً على سلاجقة الروم (٣)، وبذلك تحقق للمغول السيطرة على أرمينية الصغرى أيام ملكها هيثوم الأول الذي أصبح حليفاً وثيقاً للمغول، وحظي هذا الملك بمنزلة كبيرة عند أمبراطور المغول منكوقاآن وتجسد ذلك في الزيارة التي قام بها إلى البلاط المغولي في سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م التي أسفرت عن نتائج مهمة تعهد بموجبها منكوقاآن بحماية الملك هيثوم

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٤٨.

(٢) كيخسرو الثاني: وهو أحد سلاطين سلاجقة الروم الذي تولى السلطنة للفترة بين (٦٣٥-٦٤٤هـ/ ١٢٣٧-١٢٤٦م) الذي كان يستولي على مملكة أرمينية الصغرى لكنه لم يستطع الوقوف بوجه التوسع المغولي الذي خاض معارك شرسة أمامهم ولكنه في النهاية مني بهزيمة نكراء مما اضطره إلى عقد الصلح معهم مقابل أن يدفع مبلغ كبير من المال كجزية سنوية فضلاً عن عدد كبير من الخيول والثياب. للمزيد من المعلومات انظر: ابن ابي حديد المدائني، حملات الغزو المغولي للشرق، ص ٦٠؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٨٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، ج٥، صص ٣٢٦-٣٢٧؛ جاسم ، العلاقات السياسية بين المغول ومملكة أرمينية الصغرى، ص ٨٩.

وسائر الارمن في هذه المملكة، كما حصل أبناء هذه المملكة على عهد يتم بموجبه أعفاء الكنائس والاديرة المسيحية الخاضعة لسيطرة المغول من الضرائب (١).

وبهذا يمكن القول أن مملكة ارمينية الصغرى وملكها هيثوم الاول أستبدلوا السلاجقة المسلمين بالمغول الوثنيين، وفي الوقت الذي تأسف فيه المصادر الاسلامية على ضياع أرمينية، وعلى الدور الكبير الذي لعبه ملكها هيثوم في أستدعاء المغول إلى بلاده من أجل طرد السلاجقة المسلمين، تتهم المصادر الارمنية هؤلاء السلاجقة بأضطهاد الارمن، والتضيق على عقائدهم وطقوسهم الدينية الكنسية فضلاً عن كونهم غزاة لا يقلون خطراً عن خطر المغول أنفسهم (٢).

وينهي ماركو بولو مروياته بالحديث عن أرمينية الكبرى (٣) وهي بلاد في الحقيقة من الناحية السياسية لاعلاقة لها بأرمينية الصغرى سوى أن سكانها مثل نظرائهم كانوا من الارمن ، وكانوا يخضعون سوية للمغول الايلخانيين، وكانت هذه البلاد قائمة بذاتها ولها سلالاتها الحاكمة، ومما ذكره الرحالة البندقي عن هذه البلاد " وهي بلاد واسعة ، ومترامية الاطراف، وفيها صناعات كثيرة ومنها صناعة الانسجة القطنية المعروفة بالديباج، وفيها أجمل وأبدع الحمامات الساخنة"(٤) ثم يذكر ان هذه البلاد يتبع سكانها الكنيسة الشرقية الارثذوكسية، وفيها كرسي لكبير الأساقفة ، وينبه إلى أن معظم سكان أرمينية الصغرى ينحدرون من هذه البلاد (٥).

وعن علاقة المغول بأرمينية الكبرى يذكر ماركو بولو أن المغول الايلخانيين أخضعوا هذه البلاد بحد السيف، وحولوا مدنها مقراً لعساكرهم طوال فصل الصيف

---

(١) انطون خانجي، مختصر تواريخ الارمن (القدس: مطبعة الابا الفرنسيسكانيين، ١٨٦٨م)، ص ٢٣٩؛ العريني، المغول ، صص ١٩٨-١٩٩.
(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٣ ؛
Kirakus, Armenian History, pp. ٤٠٦-٤١٠.
(٣) أرمينية الكبرى: وتقع بين البحر الاسود وبحر قزوين، وهي حد فاصل بين أوربا وآسيا، وتشتهر بقممها الجبلية وحصونها المنيعة. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، صص ١٦٠-١٦١؛ مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج١، ص ٢٢٣.
(٤) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥١.
(٥) John Masefield, Marco Polo's Silk Road, P. ٤٣.

لتوفر الكلأ لخيولهم على أنهم كانوا يغادروها في فصل الشتاء بسبب سقوط الثلوج والواقع أن أرمينية الكبرى لم تشهد احداثاً كبرى كتلك التي شهدتها أرمينية الصغرى التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ المغولي_ الارمني من خلال أقامة تحالف وثيق مع المغول الاسيويين أنفسهم [١].

مرويات ماركو بولو عن بلاد الكرج (جورجيا)

في هذا المحتوى يبدأ ماركو بولو مروياته عن جورجيا بأطلاق تسمية زورزانيا على تلك البلاد[٢]، وهي تسمية لم نجد لها ما يناظرها في المصادر البلدانية العربية والاسلامية، سوى التسمية التي ذكرها ابن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) القريبة من هذا اللفظ عندما اطلق على هذه البلاد تسمية (روزاور)[٣]، غير ان الحقيقة تبقى أن معظم المصادر البلدانية العربية والاسلامية تطلق على تلك الاصقاع تسمية بلاد الكرج للدلالة على موقع وطبيعة تلك البلاد [٤]التي تعرف بالوقت الحاضر بأسم جورجيا [٥]. ومهما يكن من أمر فإن ما يهمنا في هذه البلاد ما أورده الرحالة البندقي بشأن خضوعها العسكري للمغول _ التتار الذي يذكر أن التتار لم يحكموا السيطرة بالكامل على بلاد زورزانيا لان جزءاً كبيراً من تلك البلاد بقي تحت قبضة الأمراء المحليين بعد أن عجز التتار أنفسهم عن أخضاعها بشكل كامل لما كانت تحتويه هذه البلاد من قلاع حصينة ومضايق كثيرة وجزر متعددة تصعب من مهمة القتال فيها [٦]. ومثل هذا القول نجد له صدى عند ابن الاثير الذي يذكر " أن التتار عندما ساروا إلى بلاد الكرج تصدى لهم أهلها لكنهم هزموا تحت

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥١؛ انطوان خانجي، مختصر تواريخ الارمن، ص ٢٣٩.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٣.
(٣) صفي الدين بن عبد المؤمن، مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١ (بيروت : دار الجيل، ١٩٩٢م) ، ج١، ص ١١٥٤.
(٤) ياقوت ،معجم البلدان، ج٤، ٤٤٦؛ ابن الاثير،الكامل في التاريخ،ج١٠،ص٤١٥؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٣٦١.
(٥) مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج٨، ص ٢٩.
(٦) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٣.

وطاة سيوف التتار بحيث قتل منهم حوالي ثلاثين الف من محاربيهم، ولكن التتار رأوا أن تلك البلاد كثيرة المضايق فلم يتجاسروا على التوغل في عمقها"(١). ويفهم مما يرد من أشارات في المصادر الاسلامية أن هذه البلاد كانت عصية على الغزاة والفاتحين وأن الكرجيين أظهروا بسالة وشجاعة في الدفاع عن أرضهم وهو ما تعكسه حقيقة المصادر البلدانية العربية والاسلامية على نحو ما يورده ياقوت الذي يذكر " أن بلاد الكرج كانت بيد المسلمين، إلا أن جمعاً وافراً من أهلها النصارى خرجوا على المسلمين، وأغاروا على عساكرهم حتى ملكوها بعد أن قتلوا أعداد كبيرة منهم"(٢) أما القلقشندي فيذكر" فتح المسلمين بلاد الكرج، لكن أهلها أستطاعوا من أسترجاعها"(٣).

أما ماياتينا من روايات أخرى على لسان الرحالة البندقي عن بلاد الكرج فلا يتعدى وصف لأحوالها الاجتماعية العامة وممارسة أهلها لعقائدهم وطقوسهم الدينية وفقاً لطقوس الكنيسة الارثذوكسية الشرقية (٤)، ويختتم مروياته عن هذه البلاد بذكر أهم مدنها تفليس (٥) التي يقطنها أقلية من الرعايا اليهود والمسلمين إلى جانب غالبية سكانها الارمن الاصليين (٦)، وهو ما تؤكده معظم المصادر الاسلامية التي تذكر أن جل سكان تفليس من الارمن مع أقلية مسلمة هم من بقايا الفتوحات الاسلامية (٧).

---

(١) الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٤١٦.
(٢) معجم البلدان، ج٤، ص ٤٤٦.
(٣) صبح الاعشي، ج٤، ص ٣٦١.
(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٤.
(٥) تفليس: وهي من أهم مدن بلاد الكرج، وتسمى حالياً بتبليسي، وهي عاصمة جورجيا في الوقت الحالي. للمزيد من المعلومات انظر: ياقوت ، معجم البلدان، ج٢، ص ٣٥ ؛ مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج٨، ص ٢٩.
(٦) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٥٥.
(٧) ياقوت،معجم البلدان، ج٢، ص ٣٥؛ القلقشندي، صبح الاعشي، ج٤، ص صص ٣٦١-٣٦٢.

مرويات ماركو بولو عن بلاد آريانا (افغانستان)

بدأ ماركو بولو مروياته عن بلاد آريانا (Ariana) بذكر أن هذه الاصقاع تقع بعد أقليم خراسان، والمعروفة حالياً بتسمية أفغانستان، وفي حقيقة الأمر أن مثل هذه التسمية الأخيرة لم تكن تعرف بها هذه البلاد إلا في القرن الماضي، وما عدا ذلك كان يطلق عليها تسمية بلاد الهندوش ومن ثم آريانا (١)، وفي الواقع أن هذه البلاد لم يحددها البلدانيين بشكل واضح، وهو أمر يبدو طبيعي خاصة إذ ما علمنا أن هذه البلاد تضم عدة مدن متنأثرة كانت تخضع لعدة غزاة في أن واحد أحياناً ، فنجد مثلاً ياقوت يضعها ضمن أقليم خراسان (٢)، في حين يحددها العمري ضمن بلاد ما وراء النهر (٣)، فيما يذكر القلقشندي أن هذه البلاد تقع في المناطق الممتدة بين بلاد فارس ونهر جيحون (٤)، في حين نجد أن الباحث لورنس بيركرين يحددها بشكل أشمل فيذكر أنها تضم كل البلاد الواقعة بين غرب بلاد فارس وشمال شرق الصين ومثل هذا الوصف الأخير الذي وصفه بيركرين لم يكن دقيقاً فمن المعروف أن هذه الرقعة الجغرافية يتوسطها بلاد ما وراء النهر ايضاً (٥)، والحقيقة أن أهل هذه البلاد لم يقيموا حضارات واضحة المعالم مما ساهم في غموض تسمية هذه البلاد إلى حد بعيد، كما أنها خضعت طوال تاريخها القديم والوسيط لغزوات طويلة الأمد كالغزو الفارسي والاغريقي والتركي ومن ثم العربي حتى الغزو المغولي ، فقد كانت هذه البلاد همزة الوصل بين الحضارات المختلفة ، وتكالب الغزاة عليها بسبب موقعها

---

(١) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٢٢؛ ستيفن تانر، افغانستان التاريخ العسكري، ترجمة نادية ابراهيم (القاهرة :العربية للترجمة والنشر، ٢٠١٠م)، ص ٢٢؛ HalimTanwir, Afghanistan History (Washington: ٢٠١٢), Vol, P٨٢٠.

(٢) معجم البلدان، ج١، صص ٤٧٩-٤٨٠.

(٣) مسالك الابصار في ممالك الأمصار، ج٣، ١٢٠.

(٤) صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٤٤.

(٥) Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, Pp.٨٧-٨٨.

الجغرافي في قلب آسيا ولم يسمحوا لأهلها بالتصرف في شؤونها (١) ثم يصف ماركو بولو مدينة بلخ (٢) أحد أهم مدن هذه البلاد، ويذكر أنه دخل هذه البلاد من أقليم خراسان في مطلع فصل الربيع، وأنه سحر بالطريق نحوها وبالمشاهد السحرية الخلابة في جوانبها حيث المناظر الخضراء وتفتح الاشجار، وعند وصوله إلى وسط مدينة بلخ يصف هذه المدينة بقوله " بلخ مدينة كبيرة وفاخرة، وكانت في سالف الايام مدينة عظيمة، ولكن المغول قتلوا سكانها ، وهدموا جزءاً كبيراً من مبانيها أثر غاراتهم المتكررة عليها، وكانت فيها قصور كثيرة مبنية من الرخام وميادين فسيحة لاتزال آثارها ماثلة للعيان وأن أصبحت في حالة متهدمة"(٣) ، وعند مقارنة هذه الرواية مع ما ذكره ابن بطوطة الذي زار هذه المدينة يكشف لنا مدى تطابق رواية الرحالتين إذ يذكر أنه " بلخ مدينة خاوية على عروشها، غير عامرة لكن آثارها ماثلة للعيان تتحدث عن مجدها الغابر "(٤).

ثم يتحدث ماركو بولو عن ديانة هذه البلدة فيذكر أن جل سكانها في الاصل هم على الديانة الزرادشتية (٥) لكنهم تحولوا إلى الاسلام بعد أن اجتاح العرب هذه

---

(١) مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج٢، صص ٢٤٩-٢٥٣؛ ستيفن تانر، افغانستان التاريخ العسكري، صص ٩٣-٩٧.

(٢) بلخ: وهي من أجمل مدن في خرسان كما يذكر ياقوت، لكن معظم المصادر تجمع على أنها أحدى ولايات مملكة اريانا في السابق وافغانستان في الوقت الحاضر لكنها تقع على أمتداد أقليم خرسان، وتقع في الحدود الشمالية لافغانستان وعلى مقربة من الحدود مع أوزباكستان. للمزيد من المعلومات انظر : معجم البلدان، ج١، ٤٧٩؛ مسعود الخوند، =الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج٢، صص ٢٥١-٢٥٢؛ ستيفن تانر، افغانستان التاريخ العسكري، ص ٢٩.

(٣) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٩٤.

(٤) حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته، ص ١٥١.

(٥) الزرادشتية : وهي أحد الديانات التي ظهرت في بلاد فارس قبل أكثر من ثلاثة الاف سنة، وتقوم فلسفة هذه الديانة على عبادة الآله الواحد اهورامزدا، وزرادشت هو نبي هذه الديانة، وللزرادشتيين كتاب مقدس يسمى الافستا، ويتهم بعض المؤرخين ورجال الدين أتباع هذه الديانة بكونهم ليسوا سوى عبدة للنار، الأمر الذي ينفيه الزرادشتيين، ويعدون طقوس النار جزءاً من الطهارة الروحية تجاه الآله اهورامزدا. للمزيد من المعلومات انظر: كامل سعفان، معتقدات اسيوية، ط١(القارة: دار الندى، ١٩٩٩م) ، صص ١٠٣-١٠٦؛ جمشيد يوسف، الزرادشتية الديانة والطقوس (بيروت: مكتبة زين ، ٢٠١٢م)، صص ٤٠-٤٥.

البلاد، وفرضوا الاسلام عليهم، وعين العرب ولاة عليها حتى وقت وقوعها بيد الغزو المغولي في بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي(١).

ولم يذكر ماركو بولو مزيداً من التفاصيل عن كيفية أخضاع المغول لبلخ كحال البلدان الأخرى التي خضعت لسيطرة المغول في الشطر الأول من تأسيس الأمبراطورية المغولية في عهد جنكيزخان، وأكتفى بالقول أن هذه البلاد أخضعها المغول وأفرطوا في قتل سكانها(٢)، والحقيقة أن بلاد آريانا أخضعها جنكيزخان بعد أن أتم حملته الشهيرة على مدن بلاد ما وراء النهر وغزو سمرقند وبخاري قصد جنكيزخان مدينة بلخ في سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م وفتحها، ويذكر ابن العبري أنه في أوائل هذ السنة عبر جنكيزخان نهر جيحون قاصداً مدينة بلخ وما أن وصل إلى تخوم هذه المدينة حتى خرج أعيانها، وقدموا فروض الطاعة والولاء للمغول وحملوا أنواع الهدايا لكن جنكيزخان لم يقبل ذلك وأمرهم بالخروج إلى الصحراء فلما تجمعوا هناك وضع عليهم السيوف حتى قتل معظم أهل بلخ ولم يتمكن من الهرب إلا نفر قليل منهم، في واحدة من أكثر الجرائم الدموية التي قام بها المغول قبل أجتياح بغداد (٣)، غير أن ابن العبري لم يكن دقيقاً في بعض التفاصيل في روايته فمعظم المصادر تؤكد أن جنكيزخان قبل فروض الطاعة التي قدمها سكان بلخ لكنه ما أن غادرها حتى تمرد أهلها على الحامية التي تركها المغول هناك فبعث أبنه الاصغر تولوي الذي قام بتصفية أهلها لاحقاً ، وهو ما يؤكده مؤرخ المغول عطا ملك الجويني الذي قال أنه عندما أخضع جنكيزخان مدينة بلخ فقد أستسلمت له المدينة طوعاً فلم يتعرض لأهلها بسوء في بادئ الأمر، لا بالقتل ولا بالنهب إلا إن جنكيزخان أمر أبنه تولوي بتصفية أهلها أثر تمرد قاموا فيه أثر مغادرة جنكيزخان

(١)Marco Polo ,Il Milione, p.٢٩ ؛ Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٧٢.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٩٤.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج١٠، صص٤١٨-٤١٩.

المدينة الذي أرتكب جرائم وحشية بحق أهلها [1] وبذلك خضعت هذه البلاد لسيطرة المغول بعد أن كانت من ممتلكات المسلمين [2] حيث يذكر الجوزجاني " أنه بعد حصول غزوات جنكيزخان للمناطق الممتدة بين تركستان وبلاد ما وراء النهر وبلخ وغيرها فإن أهلها أنتزعت منهم السيادة من ملوك الاسلام ووقعت بيد أقرانهم المغول"[3]

وبعد أن اقام الرحالة عدد من الايام في مدينة بلخ انتقل ماركو بولو صوب مدينة طخارستان[4] التي يطلق عليها الرحالة أسم تايكان ويذكر أن هذه المدينة تتكون من تلال مرتفعة ولاسيما تلك التي تقع في جنوب المدينة، كما تشتهر بحقول الفستق واللوز فضلاً عن الفواكه والحبوب والكروم التي يصنع منها أجود أنواع النبيذ، ثم يصف بولو سكان هذه البلاد بقوله " وسكان هذه البلاد هم مسلمون متعصبون متعطشون للدماء يتصفون بالغدر والخيانة"[5] وعلى الرغم ما يستشف من النظرة العنصرية من قبل هذا الرحالة البندقي تجاه مسلمي هذه المدينة إلا أن في حقيقة الأمر كان يمثل وصفاً دقيقاً لبعض سكان هذه البلاد، فقد شاع بينهم قتل المارة والمسافرين فضلاً عن قتل بعضهم بعضاً ، ومع ذلك فمن المرجح أن ماركو بولو

---

(١) تاريخ جهانكشاي، ج١، صص ١٣٧-١٣٩.

(٢) أصبحت هذه البلاد تحت السيادة الاسلامية منذ خلافة عثمان بن عفان الذي وجه قيس بن الاحنف على راس جيش لغزو هذه البلاد بعد أن أتم أخضاع أقليم خراسان، وما أن وصل قيس بن الاحنف إلى هذه البلاد حتى تعهد أهلها بالقبول بالسيادة الاسلامية ودفع جزية سنوية مقدارها أربعة الاف درهم سنوياً. للمزيد من المعلومات انظر: القزويني ، اثار البلاد، واخبار العباد، صص ٣٣١-٣٣٢؛ بارتولد ، تركستان، صص ٣١١-٣١٧.

(٣) طبقات ناصري، ج٢، ص١١٢.

(٤) طخارستان: وهي ولاية واسعة تصل بخراسان، وتنقسم إلى قسمين، الاول يطلق عليه طخارستان العليا ويمتد من شرق بلخ حتى غرب نهر جيحون، والثاني يطلق عليه طخارستان السفلى ويمتد من غرب جيحون إلى شرقه. للمزيد من المعلومات انظر ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٢٣.

(٥) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٩٥.

يبالغ في وصف قساوة أهلها من خلال تعميم ذلك القول على جميع سكان هذه المدينة[١].

وعند مغادرة ماركو بولو مدينة طخارستان توجه إلى مدينة بذخشان[٢] التي تعرض فيها الرحالة أثناء مكوثه فيها لمرض غامض مما جعله طريح الفراش حيث ظل يصارع الموت لما يقرب عاماً كاملاً [٣] ولم يشر ماركو بولو نفسه إلى طبيعة مرضه إلى أن بعض المصادر تشير إلى أصابته بالملاريا، ومن أجل الشفاء فقد نصحه سكان المدينة بالصعود إلى أعلى التلال حيث يتوفر الهواء النقي ، حينها تحسنت حالة ماركو بعد فترة من النقاهة[٤].

ثم يقدم ماركو بولو وصفاً لمدينة بذخشان التي يطلق عليها تسمية بالاشان بقوله " وهي ولاية مترامية الاطراف يبلغ طولها مسير أثنا عشر يوماً، وسكانها يعتنقون الاسلام ، ولهم لغتهم الخاصة ، وفيها سلسلة جبال شاهقة، إلى حد أن صعود الرجل إلى قمتها يستغرق يوماً كاملاً من الصباح إلى المساء، وتقع بين هذه الجبال سهول فسيحة تكسوها الحشائش والاشجار التي توفر مراعي للماشية والأبل لا حصر لها"[٥].

وينهي ماركو بولو مروياته عن مدينة بذخشان فيذكر أن هذه المدينة تحتوي على كميات كبيرة من الذهب والفضة، وكذلك الاحجار الكريمة لاسيما حجر الياقوت المتوفر في الجبال بوفرة عظيمة ، مع أن حاكم هذه البلاد كان لا يسمح لأي

---

(١) Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP ٨٨-٩٠.

(٢) بذخشان: ويطلق عليها ايضاً تسمية بدخشان ، وهي بلدة تقع في أقصى طخارستان، وتتاخم بلاد تركستان، وتشتهر بحصونها المنيعة وجبالها المرتفعة. للمزيد انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٣٦٠.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٠٠.

(٤) Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP. ٩٢-٩٣.

(٥) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٩٧-٩٩.

شخص أن يبحث عن معادنها إلا بمن أنعم عليه جلالته [1]، وهي رواية تكاد تتطابق مع ما ذكره القلقشندي بأن مدينة بذخشان تشتهر بالذهب والمعادن والاحجار الكريمة لاسيما البلور الخالص [2]، وهو ما أكد عليه القزويني كذلك حين تحدث عن وفرة المعادن النفيسة في بذخشان كالذهب والفضة والياقوت وغيرها [3].

مرويات ماركو بولو عن بلاد ما وراء النهر

يبدأ ماركو بولو مروياته عن بلاد ما وراء النهر [4] بذكر مدينة سمرقند [5] إذ يصفها بالمدنية الفاخرة ذات الحدائق الجميلة، والمزارع الوفيرة، يحيط بها سهل تنبت فيه كل ما يشتهيه الانسان من الاعناب والفواكه ، ويقول أن بعض سكانها نصارى فيما يعتنق القسم الأكبر منهم الاسلام، مع أن جميع هؤلاء هم من رعايا القاآن[6]، ثم يعرج على مدينة ليست ببعيدة عن سمرقند وهي مدينة بخارى التي يطلق عليها الرحالة أسم كركان، ويقدم لها وصفاً مشابه إلى حد كبير لتلك المعلومات التي ذكرها عن سمرقند سوى القول أن بخارى تتميز عنها بصناعات الغزل والقطن والاقمشة وغيرها[7].

---

(١) رحلات ماركو بولو ، ج١، ص ٩٧.
(٢) صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٤٣.
(٣) اثار البلاد واخبار العباد، ص ٣٠٦.
(٤) سميت ما وراء النهر بهذا الأسم لأنها تقع مابين وخلف نهري سيحون وجيحون، وتشمل معظم أراضي الدولة الخوارزمية (٤٧٠-٦١٩هـ/ ١٠٧٧-١٢٢٠م)، التي حلت محلها دولة مغول الجغتاي بزعامة جغتاي الابن الثاني لجنكيزخان. وللمزيد من المعلومات انظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، صص٤٠١-٤٠٢؛ رشيد الدين فضل الله جامع التواريخ، ج١، صص ٣٤٤-٣٥٠.
(٥) سمرقند: وهي من أشهر مدن بلاد ما وراء النهر، وتشتهر بكثافة الاشجار والبساتين والفواكه. للمزيد انظر: ياقوت ،معجم البلدان، ج٣، صص ٢٤٦-٢٤٧.
(٦) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٠٧.
(٧) ، المصدر نفسه ، ج١، ص ١٠٩.

وعلى الرغم من أن المغول أخضعوا بلاد ماوراء النهر منذ وقت مبكر في حروبهم من ايام جنكيزخان ، إلا أن مرويات ماركو بولو عن هذه البلاد التي يعرفها بأسم تركستان الكبرى تقتصر على جوانبها السياسية والعسكرية وتغطية ذلك النزاع الطويل الذي نشب بين المغول أنفسهم وحدث مابين قوبيلاي قآن، واحد أمراء الجغتاي المسمى قايدو[١]، ويعود هذا النزاع إلى أيام أعتلاء قوبيلاي قآن عرش الأمبراطورية المغولية عندما حضر عدد من أمراء الجغتاي لتقديم التهاني والولاء وفروض الطاعة له بأستثناء الأمير قايدو الذي غاب عن الحضور والذي كان يحكم قبضته على مساحات شاسعة من خانية الجغتاي التي كانت تحت قبضته، وعندما طلب منه قوبيلاي من قايدو الحضور إلى القآنية رفض الأمير ذلك، وسعى إلى تقديم الطاعة السياسية وهو في بلاده إذ خشي أن تتم تصفيته من القآن حال الذهاب إلى البلاط المغولي ، وهو ما حدا بالقآن إلى تجهيز قوة كبيرة من أجل القضاء عليه [٢]. ويذكر رشيد الدين فضل الله أن هذه الحملة أنتهت بالفشل الذريع ولم تحقق أهدافها المرجوه بسبب خيانة الأمراء من قادة تلك الحملة، وأنضمامهم إلى معسكر الأمير قايدو، ولذلك جاءت الحملة بنتائج عكسية على مركز الأمبراطورية المغولية إذ أزداد نفوذ قايدو في البلاد ، وأخذ يوسع سيطرته على مناطق جديدة تدخل في حساب ممتلكات الأمبراطورية المغولية [٣]. وما أغفله ماركو بولو في هذا النزاع الطويل هو أن قوبيلاي أضطر فيما بعد إلى عقد الصلح مكرهاً مع قايدو وبموجبه تم التوصل إلى تسوية تقضي بأقتسام السلطة مع ممثل الإمبراطورية الشرعي براق خان، إلا أن الأخير توفي في سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م مما فسح المجال لقايدو أن ينفرد مجدداً بحكم خانية الجغتاي، ولم يجرد بعدها قوبيلاي قآن أي حملة لتأديب قايدو بسبب انشغاله بمحاولة إخضاع بلدان أكثر أهمية للمغول مثل كوريا

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٤٨.
(٢) المصدر نفسه ، ج٣، صص ٤٣٩-٣٥٠.
(٣) تاريخ خلفاء جنكيزخان، صص ٢١-٢٤.

واليابان وجاوة وغيرها، حتى أن قايدو بقي في حكم خانية الجغتاي إلى ما بعد وفاة قوبيلاي نفسه في سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م [١].

في حين نجد أن روايات البلدانيين والرحالة المعاصرين لماركو بولو عن بلاد ما وراء النهر لا تختلف كثيراً عن مرويات الأخير لاسيما فيما يتعلق في وصف الطبيعة الجغرافية لتلك البلاد ومواردها، وأخضاعها من قبل المغول إذ يذكر ابن فضل العمري " أن بلاد ما وراء النهر تعد من أخصب بلاد الله، وأكثرها ماء ومرعى، وهي من ممالك جنكيزخان"[٢] في حين يذكر ابن بطوطة " أن بلاد ما وراء النهر تقوم فيها واحدة من أكبر الخانيات التي أقامها المغول خارج بلادهم وتمتد من بلاد فارس شرقاً حتى غزنة غرباً"[٣].

مرويات ماركو بولو عن بلاد التانغوت أو مملكة هسيا الصينية

يبدأ ماركو بولو في مروياته عن بلاد التانغوت [٤] بذكر موقعها بشكل عام من دون تحديدها بشكل دقيق ، ويكتفي بالقول أن هذه البلاد قريبة من التبت وأنها تبعد مسيرة ثلاثين يوماً عن صحراء غوبي، ثم يقدم وصفاً عاماً لتلك البلاد التي يشير عنها بالقول أنها أرض زراعية غنية بأنواع المحاصيل الزراعية لاسيما القمح ثم يتناول وصف الحياة الاجتماعية والدينية لسكان هذه البلاد بقوله " وغالبية سكان

(١) Herbert Franke, The Cambridge History China, Vol ٦, P.٤٥٩.

(٢) مسالك الابصار في ممالك الأمصار، ٣، ص ١١٩.

(٣) حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته، ص ١٤٨.

(٤) التانغوت: وهي بلاد تقع شرق بلاد التبت، ويحدها من الغرب النهر الاصفر أحد أشهر الانهار في الصين، وتعرف في المصادر ايضاً بأسم أمبراطورية هسيا أو هشيا، وهي واحدة من عدة ممالك منتشرة في أراضي الصين الشاسعة قبل أن يتمكن المغول من أخضاع تلك الممالك الواحدة تلو الأخرى، وتوحد البلاد تحت قبضة هؤلاء الغزاة بعد أن كانت تعاني من التجزئة طوال تاريخها السياسي. للمزيد انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٢٦؛ جون مان، جنكيزخان، صص ١٤٢-١٤٤؛
Howorth,History of the Mongols, Vol٢, P. ٢٢٤.

التانغوت هم من عبدة الأوثان، مع وجود أقليات من النساطرة والمسلمين داخل مجتمعاتها، ولكل من هؤلاء لغته الخاصة، ويوجد فيها عدد المعابد البوذية التي تزخر بأوثان مختلفة الانواع، الذين ينظرون إليها بأقصى غاية التوقير والاحترام، ويقدمون لها القرابين، وعادة ما يقيموا لها عيداً سنوياً حيث ويؤدون والصلوات الحماسية الطويلة عندها"[١].

وعن علاقة قاآنات المغول ببلاد التاتغوت يكتفي ماركو بولو بذكر أن تلك البلاد خضعت لحكم المغول منذ وقت مبكر، وأستقرت في ولائها للقاآن، دون مزيد من التفاصيل عن الطريقة التي أخضع بها المغول سكان هذه البلاد، والحقيقة أن الفترة التي عاشها ماركو بولو في أملاك قاآن المغول الأعظم كانت بلاد التانغوت تعد من أكثر البلدان ولاءاً للمغول، ولم تشهد أعمالاً عسكرية خلال فترة تواجد الرحالة البندقي ، مما جعله يعطي جل أهتمامه لما حصل من تطورات اقتصادية وأجتماعية[٢].

وما لم يشر إليه ماركو بولو أن بلاد التانغوت كانت من أكثر البلدان التي أستعصت على المغول في البداية حيث صمدت في وجه ثلاث حملات مغولية شرسة قام بها جنكيزخان بين السنوات ٦٠١-٦٠٦هـ/ ١٢٠٤-١٢٠٩م [٣]، حتى نجح أخيراً في أخضاع هذه البلاد من خلال اللجوء إلى فرض حصار محكم عليها وقد ترافق ذلك مع تخريب المزروعات وغمر الأراضي بالمياه ، مما أجبر أهلها في نهاية المطاف على الاستسلام بعد نفاذ مؤنتهم، والقبول بسيادة المغول عليهم ودفع

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١١٧.
(٢) الجوزجاني، طبقات ناصري، ج٢، ص ٦١؛ العريني، المغول، ص ٦٥.
(٣) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ١٤٢؛ سعد الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٧٧.

الاتاوات لهم فضلاً عن تقديم كميات كبيرة من المنسوجات ، وعدد من الحيوانات تمثل بعدد كبير من الجمال والنسور والصقور وغيرها من المقتنيات والهدايا (١).

مرويات ماركو بولو عن موطن المغول الاصلي (منغوليا)

تضمنت مرويات ماركو بولو عن منغوليا (٢) الموطن الاصلي للمغول أخبار وروايات عن تلك القبائل البدوية التي شغلت العالم خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث تحولت تلك القبائل الرعوية في برهة من الزمن من التقاتل فيما بينها إلى أن يصبحوا سادة العالم بفضل قدرة وحنكة زعيم هذه البلاد ومؤسسها جنكيزخان الذي لم يكتف بتوحيد تلك القبائل المتناحرة وحدها وأنما قاد أمةَ المغول لحركة توسع كبيرة أستطاع من خلالها جنكيزخان أخضاع بلدان واسعة ذات عمق حضاري كالصين وروسيا وغيرها، والحقيقة أن أعتلاء جنكيزخان الحكم في هذه البلاد يعد ظاهرة تاريخية وحدثاً فاصلاً في التاريخ الاسيوي والعالمي على حد سواء نظراً لما ترتب عليه من أحداث جسام أمتدت حتى بعد وفاته في سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م لما تركه من أثر كبير على أوضاع المعمورة آنذاك ليس بأقلها أستئصال الخلافة الاسلامية من الوجود (٣).

وفي حقيقة الأمر الواقع أن مرويات ماركو بولو عن هذه البلاد وقبائلها لا تختلف كثيراً عما أورده المصنفين والرحالة الاخرين بأستثناء أنفراده بوصف مفصل لصحراء غوبي التي يطلق عليها تسمية صحراء لوب، إذ يذكر الرحالة

---

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ١٤٢؛ الصياد، المغول في التاريخ، صص ٥٢-٥٣؛ عباس العزاوي، العراق بين احتلالين، ج١، ص٨٣؛ جون مان، جنكيزخان، ص ١٤٤.

(٢) منغوليا: وتقع في قلب آسيا، يحدها من الشمال التبت ومن الجنوب سيبيريا. للمزيد: انظر: John Masefield, Marco Polo's Silk Road, PP. ١٧٤-١٧٥.

(٣) جورج لاين، عصر المغول، ص ٤٩؛ شيرين بياني، المغول، ص ٢٠٨، Hildegard Blunck, Marco Polo The Great Adventuer, Pp.٢٤-٢٦.

البندقي أنه دخل إلى هذه البلاد من جزئها الجنوبي، وبوجه التحديد من صحراء غوبي، ويروى لنا ماركو بولو معاناة أهل القوافل والرحالة عند عبورهم لهذه الصحراء القاحلة بقوله " ويستلزم عبور هذه الصحراء ما لا يقل عن ثلاثين يوماً في أضيق أجزائها، لان محاولة قطعها في اتجاه الطول محاولة عقيمة لاجدوى منها، وتنتهي بموت هؤلاء الرحالة"[١] ثم يسهب ماركو في وصف المعاناة في هذه البلاد ، وندرة توفر سبل العيش لانه يتوجب على أولئك الرحالة الراغبين في ولوج تلك الصحاري القاحلة توفير طعام كاف لمدة شهر من السنة، وهو ما يصعب تحقيقه لذلك نرى أن الكثير من الرحالة كانوا يقدمون على ذبح الانعام التي بصحبتهم بعد نفاذ طعامهم بسبب الفقر الذي يلاقونه في هذه الصحراء الموحشة التي لا يرى فيها أي بهائم أو طيور للعيش عليها [٢].

ثم يورد ماركو بولو بعض القصص والخرافات البعيدة عن التصديق عن أهوال تلك الصحراء ومتاهاتها حتى أنه يشاع بين الناس بأن صحراء لوب مسكونة بالارواح الشريرة، ومثل تلك الاقوال تنال مصداقية عند ماركو بولو لأنه يجاهر بالقول "أننا عند وصولنا لتلك الصحراء تاكد لنا صحة تلك المعلومات الشائعة على نحو قوله " أن هذه الصحاري مأوى للأرواح الشريرة ، وأنها خلال الليل وفي بعض الاحيان تنادي بأسمائنا"[٣]. ومع أن هذه الرواية بعيدة عن التصديق، ألا أن ماركو بولو على ما يبدو قد تأثر بما سمع من أهوال هذه الصحراء ومجاهلها مع كثير من الباحثين كريشارد يرجحون في أن مثل هذه الظاهرة تحصل حقيقة بفعل تطاير ذرات الرمل الكثيفة حيث يرافق الترحال في الكثير من الاحيان رياح شديدة السرعة ينتج عنها أصوات تشابه اصوات بني البشر [٤].

---

(١) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١١٤.
(٢) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٢٨.
(٣) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١١٥.
(٤) ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٢٨؛

وبعد أن قضى شهراً من الايام المريرة تخللها صعوبة الحصول على مياه صالحة للشرب وايام أخرى حسنة في هذه الصحراء قدم ماركو وصفاً مقتضباً عن منغوليا ومركزها قراقورم[1]التي أطلق عليها تسمية كاراكوران وهي أول مدينة أتخذ منها المغول مقراً لحكمهم، إذ ذكر فيها قلعة ضخمة، وتحتوي كذلك على قصر جميل يشغله حاكم المغول[2].

وما نجده في المصادر الأخرى عن قراقورم فلا يختلف كثيراً عما وصفه ماركو بولو إذ يذكر القلقشندي " مدينة قراقورم هي عاصمة التتار وفيها مقر القآن، وهي تعني في لغة الترك الرمل الاسود"[3].

وفي أقواله عن مؤسس الإمبراطورية المغولية جنكيزخان يتحدث الرحالة بكثير من الاعجاب عن سيرته ويعده علامة فارقة في تاريخ المغول بقوله " وجنكيزخان رجل أوتي الاستقامة، وحكمة عظيمة، وفصاحة مؤثرة، وقد برز من بين أبناء جلدته بشجاعة معهودة، حتى أحبه الناس ووقروه رباً معبوداً أكثر منه ملكاً حاكماً عليهم "[4] ومثل هذا الوصف بطبيعة الحال لا يعني تمجيداً لأعمال القتل والتدمير التي قام بها جنكيزخان من خلال تلك المجازر الدموية التي قامها بحق الشعوب التي أخضعها بقدر ما هو أعجاب بتلك الشخصية البدوية التي استطاعت إخضاع شعوب وإمبراطوريات ذات تاريخ وحضارة غاية في العراقة وكيف أنه أحسن التعامل في أدارتها [5]، وما يرد في المصادر المغولية يؤكد ما ذهب إليه الرحالة عن رجل الحديد هذا إذ يذكر المؤرخ الجويني في حديثه عن جنكيزخان

Tim Mcneese, Marco Polo and the Realm of Kublai khan PP. ٧١-٧٢.
(١)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP. ١٠٠-١٠١.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٣٠.
(٣) صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٨٠-٤٨١.
(٤) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٣٣.
(٥) بياني، المغول، ص ٢٨؛
Marco Polo , The travels of Marco Polo , pp.٧٣-٧٤.

قوله " منح الله جنكيزخان العقل والمعرفة بما يفوق إقرانه، ووهبه الله قدرة التسلط على ملوك الدنيا، ووضع القوانين لحفظ مملكته"[١]. ولا يختلف الحال في هذه الاقوال عما ورد في الدراسات الاستشراقية حول شخصية جنكيزخان إذ يذكر هارولد لامب " على الرغم من أن جنكيزخان أحد ابناء البشرية العابثين، ألا أنه نعت بالبطل ونال من المدح أكثر من القدح، فهو وحيد عصره لكثرة البلاد التي فتحها والانفس التي زهقها"[٢] في حين يذكر المستشرق الالماني شبولر (spuler) أن صفات جنكيزخان وشخصيته لا تظهر في أنتصاراته العسكرية فحسب بل لحسن إدارته البلاد المفتوحة[٣].

وينهي ماركو بولو مروياته عن منغوليا بالحديث عن قساوة الطقس في هذه البلاد التي تقع في قلب آسيا ذات الجبال الشاهقة والصحاري الجرداء حيث التناقض الكبير في المناخ بين فصلي الشتاء والصيف وأثره على الفرد والمجتمع المغولي وهو ما يؤكده معظم الباحثين والمختصين بالشأن المغولي ويعدونه السمة المميزة البارزة التي صنعت من شخصية الفرد المغولي لشخصيته المميزة ، وغرست في نفوس أبنائهم الشجاعة ، وجعلت منهم مقاتلين أشداء تحلوا بقوة الصبر وتحمل المشاق التي أسهمت بشكل كبير في دفع دفة الفتوحات المغولية إلى مختلف أصقاع العالم [٤].

مرويات ماركو بولو عن الصين

تعد مرويات ماركو بولو عن بلاد الصين من أكثر مروياته أهمية وغزارة بالمقارنة مع جميع البلدان التي زارها الرحالة ، أو تلك التي أستقر فيها ليس بسبب قيمتها التاريخية وارتباطها بمركز القرار المغولي الذي مكث فيه لمدة سبعة عشر

(١) تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٦١.
(٢) جنكيزخان، ص ٢.
(٢) العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٣٧

(٣) محمد علي الباز، كيف اسلم المغول، ص ٤٨؛ بياني،المغول، ص ١٧.

عاماً فحسب وإنما الجدل الذي أثارته هذه المرويات من خلال الاتهام الذي طال أقوال هذا الرحالة من خلال التشكيك في ذهابه من عدمه أصلاً إلى الصين(١).

ومن المعروف أن أطماع المغول في الصين وأطرافها تعود إلى بداية تأسيس الأمبراطورية المغولية حين بدأ جنكيزخان هجماته على سور الصين ومملكة التانغوت(٢) واستمرار هذه الحملات منذ زمن جنكيزخان حتى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م عندما تمكن قوبيلاي قاآن من اخضاع مملكة السونغ(٣) بعد صراع مرير مع حكام وأمراء هذه المملكة التي صمدت بوجه الهجمات المغولية منذ زمن منكوقاآن ، وأعلن قوبيلاي نفسه إمبراطوراً على منغوليا والصين تحت مسمى أسرة اليوان الذي تجلى بنقل العاصمة من قراقورم إلى خان باليق(٤).

أن مرويات ماركو بولو عن الصين لها أهميتها ومغزاها بسبب طول الفترة التي مكث فيها هذا الرحالة في بلاط المغول في الصين ولتقلده عدد من المناصب بتكليف من القاآن، فقد عمل كمستشار للقاآن أول الأمر ، وفيما بعد أصبح حاكماً على أقليم هانزو ومخمناً للضرائب في مدينة كين ساي حسبما ذكر بنفسه ، ولذلك فإن قربه من مركز القرار في البلاط المغولي أعطاه الفرصة للأطلاع على تفاصيل الحوادث والوقائع التي لم تتوفر لغيره حتى أكتسبت مروياته طابع الوثيقة التاريخية ومن أجل ذلك سنحاول تسليط الضوء على الوقائع الكبرى في هذا الشان التي عدت

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، صص ٣٢-٣٣؛ فرنسس وود، ماركو بولو هل وصل الصين، ص ٢٣٠ ؛ وانظر هيلدا هوخام، تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، ترجمة اشرف محمد الكيلاني (القاهرة : المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٢م)، صص ٢٣٤-٢٣٦؛ بياني ، المغول ، صص ١١٦-١٢٤.

(٢) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ١٤٢؛ هيلدا هوخام، تاريخ الصين، ص ٢١.

(٣) مملكة السونغ: وهي مملكة تقع في جنوبي الصين ، ويسكنها أكثر من نصف سكان البلاد آنذاك، وقد أمتدت فترة حكمها لأكثر من قرن ونصف بين الفترة (٥٢١-٦٧٨هـ/ ١١٢٧-١٢٧٩م)، التي حلت محلها أسرة اليوان المغولية. للمزيد انظر:
Paul D. Buell, Historical Dictionary of the Mongol World Empire, P.P ٢٤٧-٢٤٩.

(٤)Marco Polo , Il Milione, P.١٠٥؛ Stephen Haw ,Marco Polo's China, P. ١١١.

من منجزات المغول في الصين بخلاف ما عرف عنهم من أحلال الدمار والخراب الذي عرف عنهم أينما حلوا (١).

ونحن من جانبنا أفردنا العديد من الروايات لماركو بولو عن الصين في فصول هذه الدراسة، غير أننا سنركز على ما أورده من اعمال المغول الكبرى المتمثلة في أقامه وتأسيس نظام إداري محكم، وتشييد مركز إداري حضاري من خلال أنشاء عاصمة المغول الجديدة خان باليق التي حلت محل قراقورم ، وكذلك استخدام الورق النقدي في التداول ، فضلاً عن وصف أهم المدن الصينية والتجارة فيها.

وفيما يخص النظام الاداري الجديد للمغول الذي أرسى أسسه قوبيلاي قاآن فمن المعروف أن الفترة التي تواجد فيها ماركو بولو شهد هذا التحول التاريخي فيما يخص إدارة الإمبراطورية المغولية بعد أن أثمرت جهود هذا القاآن العسكرية بإخضاع أراضي الصين كافة عسكرياً، وتوحيدها لأول مرة في تاريخ هذه البلاد تحت حكم هذا القاآن بعد أن كانت هذه البلاد تحكم من قبل عدة سلالات في شمال وجنوب الصين التي تهاوت تحت الحملات التي شنها المغول، وبفضل تلك الجهود أسس المغول حكم أسرة اليوان المغولية ذات الطابع الصيني بما يناسب التطورات الجديدة (٢).

وفي هذا السياق يمكن وصف النظام الاداري الجديد الذي أسسه قوبيلاي قاآن في الصين بأنه نظام يعتمد على التمازج بين قيم المغول الروحية المستنبطة من قوانين الياسا الجنكيزخانية وبين العادات الصينية القائمة في البلاد ، ومن أجل ذلك فقد استحدثت عدد من الوظائف الادارية الكبرى تحت أشراف القاآن الأعظم لم تكن

---

(١) بياني، المغول، صص ١١٩-١٢١؛
Marco Polo ,Il Milione ,pp.١٠٥-١٠٦.
(٢)Marco Polo , Il Milione, PP.١٠٧ ؛ Stephen Haw , Marco Polo's China, P. ٦٩; John Masefield, Marco Polo's Silk Road, PP. ١٣١-١٣٢.

موجودة في النظم المغولية القديمة يوردها الرحالة البندقي، فيقول أن أولى تلك الطبقات المرموقة التي أستحدثت هي مرتبة (الجنغ سانغ)، وهي لفظة صينية تعني كبير الاداريين ومساعديهم (١)، ويشير ماركو بولو إلى أن من يتقلد هذه الوظيفة يكون مقدماً على جميع الاداريين عنده ، وأن من أهم مهامه تقديم المقترحات والمشورة إلى القآن الأعظم للنظر فيها، وفي الكثير من الاحيان يقوم بإقرارها (٢).

كما يذكر ماركو بولو أن المغول استحدثوا وظيفة ادارية جديدة تعني بأمور العسكر ويطلق عليها (ثاي)، وهي كلمة ترد عند رشيد الدين بأسم (الطايفو) (٣)والحقيقة أن هذه الوظيفة تأتي بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد مرتبة الجنغ سانغ، ومهامها تدور حول النظر بكل ما يتعلق بأمور الجند كنقل العسكر وتمييز الاكفاء منهم لكي يحصلوا على الترقية، وتوبيخ من هم دون مستوى الكفاءة (٤).

أما الوظيفة الثالثة المستحدثة أدارياً من حيث الأهمية فهي منصب الوزارة التي يطلق عليها رشيد الدين تسمية (الفنجان)(٥)، وعدد أفرادها أربعة أشخاص على أن يرأس المجموعة أحد هؤلاء الاربعة ويكون مقدماً على الثلاث الاخرين، ويطلق عليه أسم (شوفنجان)(٦)، وجرياً على عادة المغول في أقتسام السلطة مع مختلف المكونات والاثنيات في النظام الاداري الجديد ومنها مؤسسة الوزارة فقد أسندت الوظيفة إلى أربع أشخاص ينحدرون من مختلف الخلفيات العرقية كالصينيين

---

(١) رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٧٦ ؛
= Marco Polo , Il Milione, P. ١٠٨.
(٢) Morris Russabi, Khubilai khan, P. ٧٢.
(٣) رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٧٥؛ المستوفي القزويني، تاريخ كزيدة، ص ٥٩٥؛
Marco Polo ,Il Milione, pp.١٠٥-١٠٦.
(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٦٧.
(٥) تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٧٧.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

والنصارى والمسلمين وغيرهم (١)، إلا أن الملفت للنظر أن ماركو بولو من خلال مروياته يكن العداء الشديد فقط لأحد هؤلاء الوزراء المسلمين الاربعة ويدعى احمد البناكتي(٢) حيث يتهمه بالظلم والتعسف وبكونه أستغل الحظوة التي كان قد نالها من لدن قوبيلاي قاآن لأغراضه الشخصية مما جعله يتجاوز كل حدود القواعد والاصول المغولية ، وقد بلغ البناكتي من السطوة والنفوذ حتى أنه كان يتوجه شخصياً إلى القاآن من أجل أن يقول له أن شخصاً ما قد أرتكب ذنباً في حق جلالتكم يستحق عليه عقوبة الموت، فيجيبه القاآن بأن يفعل ما يحلو له(٣)، وعلى الرغم من ما آلت إليه الأمور بحق هذا الوزير المسلم وثبوت تهمة الفساد والسرقة عليه إلا إن ماركو بولو من جهته أفرد مساحة واسعة للحديث عن الوزير البناكتي ومساوئه مما يشير إلى حالة من التنافس والغيرة بين الرجلين اللذين نالا حظوة كبيرة عند القاآن أثناء عملهما الوظيفي(٤).

ثم يفرد ماركو بولو حيزاً كبيراً في مروياته للحديث عن عاصمة المغول الجديدة خان باليق التي انشأت في سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م بعد أن أستغرق بناؤها سبع سنوات متتالية (٥)، وهذا العمل يعطي دلالة كبيرة مفادها أنه على الرغم مما أشتهر به المغول من القتال وسفك للدماء إلا أن لديهم في الوقت نفسه سجل مثير للدهشة

---

(١)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٣٠٩.

(٢) أحمد البناكتي: وهو أحد الوزراء المسلمين الذي ينحدر من مدينة بناكت في بلاد فارس الذي شغل منصب الوزارة في عهد قوبيلاي قاآن في مركز الإمبراطورية المغولية خان باليق، وقد حظي بثقة القاآن، وبقي يشغل المنصب حتى وفاته، إلا أن بعد وفاته اكتشف قوبيلاي قاآن أنه أستغل منصبه وقام بسرقات كبيرة فأمر قوبيلاي قاآن بإخراج جثته والتمثيل بها فضلاً عن قتل زوجته. للمزيد من المعلومات عن سيرته انظر: رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٨٨؛ خواندمير ، دستور الوزراء ، صص، ٣٤-٣٣٥.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٣٦.

(٤) فهمي هويدي، الاسلام في الصين (الكويت: عصر المعرفة، ١٩٨١م)، ص ٦٤ ؛ Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP.٣١٦-٣١٨.

(٥) Marco Polo, The travels of Marco Polo,pp١٤٦-١٤٤٧.

في الاستفادة من فن العمارة والادب والهندسة التي كانت تتميز بها الشعوب المغلوبة ويظهر ذلك جلياً في الصين فقد ظهرت القصور والمدن والمساكن المستوحاة من الحضارة الصينية والفارسية وغيرها(١)، إذ يذكر ماركو بولو عن خان باليق التي يطلق عليها أسم كمبالو قوله " أنها بنيت على شكل مربعات عند ضفتي نهر القراموران(٢)، وهي مدينة لا نظير لها، فقد زينت شوارع المدينة من الجانبين وشيدت فيها القصور لكبار الأمراء المغول، وأنتشرت فها الدكاكين والمعابد وزرعت فيها الاشجار على طول الطرق"(٣) وما ذكره رشيد الدين فضل الله عن مدينة خان باليق يكاد يتطابق مع ما ذكره ماركو بولو عنها بالقول " أقيمت خان باليق على نهر القراموران ، وهي مدينة واسعة جداً، وانشئت فيها على جانبي الطريق الاسواق والدكاكين وزعت الاشجار، وأقيمت على ضفتيها المعابد، ويتوسط هذه المدينة قصراً في غاية العظمة الذي زين بالرخام والمرمر والذهب والفضة"(٤).

وقد أورد الرحالة أودوريك دوربودنون المعاصر لماركو بولو معلومات مهمة عن مدينة خان باليق وكذلك قصر الزنادود بقوله " وهي مدينة كبيرة شيدها قوبيلاي، يتوسطها قصر فخم، وبنيت فيها المعابد، وزينت الشوارع، وأقيمت حولها البساتين"(٥) ولا شك أن مثل هذه المرويات التي أوردها رحالة معاصر تدعم أقوال ماركو بولو فيما يخص مشاهداته عن الصين، وهي بلا شك دليل حاسم يدحض الرأي القائل بعدم زيارته لهذه البلاد (٦).

---

(١)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ١٧٣.

(٢) القراموران: وهو نهر واسع يمتد من وسط الصين حتى جنوبها، ويقع على ضفافه مدن وقلاع كثيرة. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٩٥ ؛
Herbert Franke, The Cambridge History China, Vol٦, P.٤١٤.

(٣) رحلات ماركو بولو، ص ٣٤- ص٢١٧

(٤) تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٧٢.

(٥) مشاهدات الراهب أودوريك دوربودنون الفرنسيكاني في الصين، صص ٥١-٥٢.

(٦)Stephn. Haw, Marco Polo's China, PP. ١٧٥-١٧٦.

ومن الاصلاحات الادارية الأخرى التي استوحاها المغول من الصين هو استخدام قوبيلاي قاآن العملة الورقية عوضاً عن العملة المعدنية المصنوعة من الذهب والفضة ، وعلى الرغم من أن السلالات الصينية العريقة كانت قد استخدمت الورق النقدي ، إلا أنه لم يشع استخدامها بشكل واسع في أنحاء البلاد كافة إلا في زمن سيطرة المغول عندما أمر قوبيلاي قاآن بإصدار العملة الورقية، وتعميم استخدامها على كافة المدن الصينية (١).

وقد أعطى ماركو بولو تفاصيل وافية عن طريق إصدار النقود الورقية والمواد المستخدمة فيها بالقول " أن عملية صنع هذه النقود كانت تتم بنزع اللحاء من أشجار التوت أولاً، ثم يتم خلطها بأوراق دودة القز حتى تصبح قشرة ناعمة، ثم تنقع هذه القشرة وتدق حتى تتحول إلى عجينة يصنع منها الورق، فإذا ما أصبحت معدة للاستعمال، قطعت إلى أحجام مختلفة للاستخدام"(٢).

ثم يسهب ماركو بولو في ذكر دار لسك العملة التي أقيمت في خان باليقووضع على كل ورقة نقدية فيها ختم القاآن القرمزي ، وكان القاآن قد أصدر أمراً الزم بموجبه جميع السكان المحليين على التعامل بتلك النقود حتى وصل الأمر إلى فرض عقوبة الموت على من يرفض التعامل بها مما أدى إلى تقبلها من قبل جميع الرعايا (٣)، وما نجده في المصادر الأخرى حول استخدام المغول للعملة الورقية يتطابق تماماً مع ما ذكره ماركو بولو إذ يذكر وصاف عن ذلك بقوله " أن قوبيلاي أتخذ من النقود الورقية الكاغد بدل من النقود الذهبية، ووضع عليها ختمه الخاص"(٤) فيما يذكر الرحالة العربي ابن بطوطة عن استخدام هذا النقد بالقول "

---

(١)Marco Polo , Il Milione,P.١٠٦ ؛ Herbert Franke, The Cambridge History of China, Vol ٦, P. ٤٢١.

(٢) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٦٤.

(٣) المصدر نفسه ، ج٢، صص٦٥-٦٦.

(٤) تاريخ وصاف، ج ٣، ص ٢٧٤.

وأهل الصين، وما يتصل ببلادهم أنما بيعهم وشرائهم يتم بقطع الكاغد"[1]، والحقيقة أن أستخدام المغول للورق يعد من أهم الانجازات في ذلك العصر، وكان أمر غريب وغير مألوف بالنسبة للرحالة الأوربيين في القرن الثالث عشر الميلادي فلم يعرف الأوربيون هذا النوع من النقود إلا بعد قرون عدة من ذلك الوقت ، وهو جزءاً من رفضهم وعدم تصديقهم لأقوال وأخبار ماركو بولو ، ولا سيما أن نظرتهم عن المغول كانت لاتخرج عن نطاق قولهم بأنهم ليسوا سوى برابرة متوحشين [2].

غير أن الملفت للنظر في مرويات ماركو بولو عن الصين كذلك هو وصفه الدقيق والمفصل عن مدينة كين ساي التي تعرف في الوقت الحاضر بأسم (هانج تشيو) التي أدعى فيها هذا الرحالة بأن قوبيلاي قاآن كان قد أرسله اليها لجمع وتخمين ضرائب ثم يقدم تقريره عنها، والحقيقة أن هذه المدينة حظيت بأهتمام كبير من لدن الرحالة ماركو بولو[3]، إذ تعد من أكثر المدن وصفاً في رحلاته، ونحن من جانبنا أفردنا روايات كثيرة عن مدينة كين ساي ولاسيما فيما يتعلق بالحياة والعادات الاجتماعية السائدة لديهم من أمور الزواج والوفيات والتسلية وغيرها [4].

يبدأ بولو مروياته عن هذه المدينة بأطلاق عليها تسمية مدينة السماء، وذلك لكثرة الجبال المرتفعة فيها، ثم يفرط كثيراً في وصف محاسنها ومباهجها التي تجعل من يسكنها وكأنه مقيماً في الجنة [5]، ويثني على شوارع هذه المدينة الواسعة وقنواتها المائية الرحبة، وأسواقها الكبيرة المتنوعة التي لا تحصى ونقاء هوائها [6].

---

(١) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج١، ص ١٦٠.

(٢)Stephn. Haw, Marco Polo's China, P. ٦٥.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٣٢٢؛ ريشارد، ماركو بولو، مغامراته واستكشافاته، صص ٩١-٩٥.

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص١٧٧-١٧٩ ؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٢٦٥.

(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٦٨.

(٦) المصدر نفسه ، ج٢، ص ١٦٩.

ثم يتحدث ماركو بولو عن القوات المغولية التي تعسكر في هذه المدينة إذ يقدر عددها بنحو ثلاثين الف مقاتل لكون هذه المدينة شديدة الثراء، وجزءاً كبير من هؤلاء المقاتلين يعملوا بنظام الحراسات الليلية أو فرق الاطفاء لان هذه المدينة لم تشهد أعمالاً عسكرية بوجه حكم قوبيلاي قاآن منذ أن أخضعت للمغول، وهي مستقرة في ولائها للقاآن(١).

ثم يبدي ماركو بولو أعجابه بسكان كين ساي فيذكر " أن مجتمعهم قوم لا ينشب بينهم شجار محتدم ويعيشون فيما بينهم بمودة متبادلة، ومن يعيش من الرجال والنساء في تلك المدينة يبدون بمظهر العائلة الواحدة لمجرد ظرف الجوار القائم بينهما"(٢) وعن نسائهم اللواتي يجيدن تقديم المتع الحسية للرجال إلى الحد أن أي أجنبي يعيشها وذاق لمرة واحدة أفاويق سحرهن يظل في حالة افتتان بمحاسنهن ويصبح ماسوراً بهن، فاذا عاد المسافرين إلى بلادهم ظلوا سكارى بالمتع الحسية لنساء كين ساي، ويتلهفون شوقاً في العودة إليها (٣).

ثم يذكر ماركو بولو معلومة غريبة ولا نعرف مدى صحتها، ولم نجد ما يناظرها في المصادر الأخرى ومفادها أن قوبيلاي قاآن أصدر أوامره بإحصاء عدد سكان هذه المدينة، وأمر رب كل اسرة بأن يلصق على داره قائمة بأسماء الاشخاص الذين يعيشون في بيته ، كما أن عليهم أن يشطبوا كل شخص يتوفى أو يغادر المنزل، وأن يعلنوا كذلك عدد الخيول والماشية لأغراض الجباية، والحقيقة أن الضرائب التي كانت تفرض على الماشية أمراً ليس مستحدثاً وتجمع عليها المصادر ولكن يبدو من الغرابة أن يتم أجراء أحصاء للسكان في ذلك الوقت المبكر من التاريخ (٤).

---

(١) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٩٧.
(٢) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٧٥.
(٣) ، المصدر نفسه ، ج٢، ص ١٧٢.
(٤) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٩٨.

وينهي ماركو بولو مروياته عن مدينة كين ساي بذكر مقدار الضريبة التي كان يدفعها السكان للمغول وكان قد جباها ماركو بولو بنفسه على السلع غير القابلة للعد في هذه المدينة في أحد السنوات دون أن يحدد الرحالة هذه السنة بدقة (١)، ويذكر أنه تم تخمين الملح الذي هو أكثر انتاجاً ورسوماً، والذي يتوفر بكثرة في هذه المدينة وذلك لكثرة البحيرات المالحة التي يتبلور فيها الملح أثناء حرارة الصيف التي تقدر بنحو ستة ملايين أوقية صينية، وهو رقم هائل من دون أدنى شك، حتى أنه يذكر أن أملاح هذه المدينة وافرة تكفي لتغطية بلدان عديدة (٢) . أما مقدار الجباية الذي يفرض على السكر والنبيذ ومشروب الارز الصيني فيصل ما مقداره ثلاثة ونصف في المائة، في حين فرضت على الماشية والطيور ونحوها ثلاث لكل مائة من كل نوع من هذه الحيوانات(٣). وفي الواقع أن وصف ماركو بولو لهذه المدينة فاق وصف كل المدن التي وردت في رحلاته من حيث غزارة المادة التي قدمها والتي تجمع المصادر الأخرى على صحة معظم الروايات التي دونها مما يدلل على أن ماركو بولو قد زار الصين فعلاً ومكث في هذه المدينة على الرغم تشخيص عدد من المبالغات الواردة في هذه الروايات (٤).

وكانت أخر محطة لماركو بولو في الصين فهي مدينة تن جوي شرق البلاد، وهي المدينة التي تعرف في المصادر العربية باسم مدينة الزيتون (٥) ويصفها ماركو بولو بالمدينة المبهجة، وهم من رعايا القآن الأعظم، ويغلب عليهم الوثنية وهم مسالمون وفيها منازل فخمة أهلة بالسكان، غير أن أهم ما يميز هذه المدينة هو مينائها التجاري الذي يعد واحداً من أعظم الموانىء القائمة على ظهر

---

(١)Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٢٦٥.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٨٨.

(٣) ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ج٢، ص ١٨٩.

(٤)Stephn. Haw, Marco Polo's China, P. ١٧٦.

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج٢، ص ١٩٧؛ بدر الدين الصيني،العلاقات بين العرب والصين، ص ١٢٩؛ فهمي هويدي، الاسلام في الصين، ص ٧٣؛
Marco Polo , The travels of Marco Polo,p.٢٦٣.

البسيطة ، وعن طبيعة عملها التجاري يذكر ماركو بولو أن هذا الميناء يوفر مبالغ ضخمة من المال للقآن إذ يفرض على كل تاجر يستثمر أمواله، وتدخل بضاعته رصيف هذا الميناء ضريبة مقدارها ١٠% من قيمة البضاعة المصدرة أو الواردة مع أن بعض السلع الثمينة آنذاك تصل الجباية عليها إلى ٤٠% من قيمتها كالفلفل وخشب الصندل [١] وما يرد من روايات عند الرحالة المعاصرين عن مدينة الزيتون تكاد تتطابق مع ما يذكره ماركو بولو عن نشاطها الاقتصادي إذ يشير الرحالة الراهب أودوريك دوربوردنون ما نصه " أن مدينة الزيتون ولاية واسعة، يجد فيها الانسان كل ما يحتاج إليه من ماكل ومشرب وملبس وغيرها، وفيها ميناء تنشط فيه حركة السفن التجارية، ويعد من أعظم مراسي الدنيا"[٢] وهي أقوال يؤكدها ايضاً الرحالة المغربي ابن بطوطة بقوله " وفي جنوب شرق الصين تقع مدينة الزيتون التابعة لقآن المغول، وفيها مرسى تجاري يعد من أعظم مراسي الدنيا"[٣].

مرويات ماركو بولو عن مملكة ميين (مينمار)

يقول الرحالة البندقي في مذكراته عن مملكة ميين[٤] أو ما تسمى مينمار حالياً أن هذه الاصقاع مملكة واسعة وفخمة، يعبد سكانها الأوثان، ولهم لغتهم الخاصة، وهي بلاد غنية بالذهب والفضة، وتحيط بها الجبال من أغلب جهاتها، وفيها غابات مملوئه بالفيلة فضلاً عن أعداد لا تحصى من الحيوانات البرية ولاسيما المتوحشة

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، صص ١٩٨-١٩٩.
(٢) مشاهدات أودوريك دوبوردنون الفرنسيكاني في الصين، صص ٢٢-٢٣.
(٣) تحفة النظار، ج٢، صص ١٩٧-١٩٨.
(٤) مملكة ميين: وهي مملكة تقع إلى الشمال الشرقي من الصين، ويحدها الهند من الجنوب وقد عرفت فيما بعد بأسم بورما، ومن ثم مينمار التسمية الحالية لهذه البلاد. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، صص ١٢٤-١٢٦؛ مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج٥، صص ٣٣٤-٣٣٥ ؛
Howorth, History of the Mongols, Vol٢, P. ٢٤١.

منها[١] وبعد هذا الوصف المقتضب عن مملكة ميين أشار ماركو بولو الصديق المقرب لقوبيلاي قاآن بأن هذا القاآن أخذ يفكر بأخضاع هذه البلاد ولاسيما بعد أن ضم الصين وأطرافها لأمبراطوريته، تراءت أمام أعينه هذه المملكة، وبعد استشارة كبار قادته ارسل قوبيلاي سفارة إلى ملك ميين من دون أن يسميه ، لكن مصادر أخرى تشير له بأسم الملك ناراثي هيبت (narathihapte)[٢] طالباً منه الاذعان والقبول بسيادة المغول على مملكته فضلاً عن الطلب منه القبول بدفع أتاوة سنوية للمغول ، وعند وصول الرسل إلى مملكة ميين ثارت ثائرة الملك ناراثي هيبت، الذي عد الأمر شيء مهين بحق مملكته ورفض تلك المطالب بشكل تام، ولكي يظهر الجدية في الدفاع عن بلاده أقدم على قتل الرسل ، مما اثار حفيظة المغول ولاسيما الأمر الذي يتعلق بقتل هؤلاء الرسل [٣] ، فأمر قوبيلاي قاآن بأعداد حملة عسكرية كبيرة لمعاقبة الملك هيبت وأخضاعه عسكرياً، ويقول ماركو بولو أن هذه القوة المغولية كانت مؤلفة من اثنا عشر الفاً من المحاربين والفرسان الذين صدرت لهم الاومر للزحف بأتجاه تخوم تلك المملكة [٤]، إلا أن العساكر المغولية أخطات على ما يبدو بتقدير أعداد القوات المدافعة التي بلغت نحو قرابة ستين الف من محاربي هذه المملكة ، فضلاً عن وعورة وطبيعة الأرض والغابات في المملكة التي أمتازت بكثافة الاشجار مما أعطى ميزة أخرى لقوات مملكة ميين بالمقاومة وهو ما عَقد من مهمة انتصار المغول [٥]. ويذكر ماركو بولو أن القوات المغولية تفاجئت عند

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، صص١٢٤-١٢٦ ؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٧٥-٨٠.

(٢) ناراثي هيبت: وهو اخر ملوك مملكة ميين الذي عاش بين السنوات (٦٥٤-٦٨٦هـ/ ١٢٥٦-١٢٨٧م)، وتذكر المصادر أنه واجه الغزو المغولي ببسالة نادرة، وكان يتقدم الجنود في الدفاع عن بلاده ، إلا أن ذلك لم يمنع الغزو المغولي لبلاده، فأضطر إلى الانسحاب في نهاية المطاف بعد أن أدرك حتمية الهزيمة أمام المغول، والعيش في الهند حتى توفي سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م . للمزيد انظر:
Howorth, History of the Mongols, Vol٢, P. ٢٤١.

(٣)Ibid, Vol٢, PP. ٢٤١-٢٤٢.

(٤) Phillips.D, The Mongols (London: ١٩٦٩), PP.١٠٨-١١٠; Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, PP.٢٤٠-٢٤٤.

(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٢٥ ؛

اقتراب الجمعان من بعضهما بأستخدام قوات الملك ناراثي هيبت لأعداد كبيرة من الفيلة حتى أن بعض المصادر تسمي تلك المعركة بمعركة الفيلة (١) .

وعندما أصبحت المواجهة بينهما أمر لا مفر منه قسم الملك ناراثي قواته إلى ثلاثة اقسام كبيرة حيث جعل الفيلة في المقدمة، والفرسان والمشاة بجهتين مختلفتين مؤذناً بقرع طبول الحرب، ويذكر ماركو بولو أنه ما أن أشتبك الطرفان حتى فزعت خيول المغول عند رؤية الفيلة الفخمة القادمة بأتجاهها ، وهي تطلق الاصوات العالية وكذلك بفعل الاصوات الرهيبة التي كانت تطلقها الآت بأتجاه عساكر المغول مما أدى إلى فقدان المغول السيطرة على خيلهم التي حاول جندوها الاستدارة والفرار مما أدى إلى أنكسار المغول في بداية المعركة (٢). ومن أجل مواجهة هذا الأمر فقد أتخذ قادة المغول قراراً بربط الخيول والترجل نحو المعركة، وبدؤا باطلاق وابل من السهام نحو تلك الفيلة في محاولة لأرباك قوات المملكة وهو ما جنت ثماره القوات المغولية وأحدث أرباك كبير في صفوف القوات المدافعة حيث تراجعت قوات الملك هيبت بفعل شدة السهام الموجهة نحوها حتى أنها أصبحت تدوس على أصحابها حتى أنتهت المعركة بهزيمة نكراء لعساكر مملكة ميين (بورما) وهروب ملكها ناراثي هيبت ومن بقي معه من المقاتلين إلى الهند (٣). ويعزو ماركو بولو تلك الهزيمة النكراء إلى عدم أرتداء عساكر ميين الدروع مما سمح لسهام المغول بأختراق أجسادهم بسهولة بفعل مهارة المقاتلين المغول في تصويب السهام نحوهم، وكان من نتائج هذه المعركة ضم مملكة ميين إلى

John Masefield, Marco Polo's Silk Road, PP. ٣٤٣-٣٤٥.
(١)Stephen. Haw, Marco Polo's China, P. ٤٧؛ Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu,P. ٢٤٠.
(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٢٦-١٢٧.
(٣)Howorth ,History of the Mongols, Vol٢, P. ٢٤٢ ,John Man, Kublai khan, P. ٣٤٣.

الإمبراطورية المغولية في الصين فضلاً عن الاستحواذ على أعداد كبير من الفيلة واستخدامها في معارك المغول اللاحقة (١).

وعند تحقيق المغول النصر، ودخول الفاتحين إلى مركز المدينة يروي ماركو بولو أنهم وجدوا الكثير من الابراج الذهبية والفضية عند شواخص وقبور(٢) حكام مملكة ميين السابقين على نحو من قوله "أعتاد ملوك هذه المملكة ببناء قبور لهم أثناء حياتهم لتخليد ذكراهم، حيث يوجد في كل قبر برجين أحدهما مغطى بطبقة من الذهب والاخر غطى بطبقة من الفضة، وقد علقت فوقها أجراس صغيرة من الذهب والفضة ايضاً، وهي تحدث رنيناً كلما حركتها الرياح لتذكر سكان المملكة بملوكهم الراقدين، وعندما رأى التتار هذه القبور لم يمسوها حتى تصل اليهم أوامر القاآن فيما يتعلق بها، ولكن عندما علم قوبيلاي قاآن بأن هذه الابراج أقيمت تكريماً لملوك سابقين، وتكريماً لأرواحهم والرغبة بأن لا تفنى ذكراهم ، أبى القاآن أن يأذن بانتهاكها ولا المساس بها بأية حال من الاحوال نظراً لما جرت عليه عادة المغول من اعتبار ازالة أي شيء تابع للموتى يعد أثماً كبيراً وخطيئة فاحشة لايجب أزالتها لذا تركت هذه الشواخص رغم قيمتها المادية الكبيرة" (٣) والحقيقة أن ما ذكره ماركو بولو في هذه الرواية صحيح ولاخلاف عليه، إذ إن احترام قدسية الموتى عادة دابت عليها الأمم على اختلاف أعراقها وأديانها، والمغول ليسوا أستثناء من تلك الفطرة البشرية حيث تذكر المصادر أن المغول أبان احتلالهم لروسيا وجدوا عند قبور قياصرتها عدد كبير من المجوهرات والمعادن الثمينة كالذهب والفضة فلم

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٢٩.

(٢) قد تكون هذه الشواخص والقبور رمزية أو فيها أجزاء من أجساد هؤلاء الملوك على أعتبار أن ديانتهم البوذية تقضي بحرق أجسادهم لكن هذا لا يمنع من تخليد ذكراهم عبر أقامة هذه القبور والشواخص. للمزيد من المعلومات انظر: ماركو بولو رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٧٩ ؛
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٣٥٢.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ١٣١-١٣٢؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٨١.

تمسها يد الفاتحين ولم يجرأ على انتهاكها [١]، ولكن هذا لا يمنع من حدوث بعض الحوادث الاستثنائية، ولاسيما الاشخاص ممن اتهموا بالخيانة العظمى لدى الفاتحين ، وكنا قد أسلفنا رواية عن الوزير المسلم احمد البناكتي الذي أمر قوبيلاي قآن باخراج جثته من قبره والتشفي بها بعد فترة وجيزة من وفاته عند ثبوت أختلاسه أموال كبيرة من القاآن[٢].

مرويات ماركو بولو عن مملكة زيامبا (كمبوديا)

يبدأ ماركو بولو مروياته عن كمبوديا بالقول أن هذه المملكة تدعى زيامبا وهي بلاد ذات إتساع عظيم، يحكمها ملوكها الوطنيين، الذين يتحدثون بلغتهم الخاصة ، وسكانها من عبدة الأوثان [٣]، ويذكر في مروياته أن قوبيلاي أمبراطور المغول عندما سمع بثراء تلك المملكة صمم على أخضاعها بالسيف ، وأرسل عساكر جرارة من الفرسان والمشاة لكسب الحرب ، مع أن الرحالة البندقي لم يحدد حجم تلك القوة وأعدادها [٤]، ولكن ما لدينا من مصادر أخرى رفيعة تقدر تلك القوة بأكثر من خمسة عشر الف محارب [٥]، ومع ذلك فإن ماركو بولو وقع في خطأ فادح عندما ذكر أن تلك الحملة لقوبيلاي قآن على مملكة زيامبا وقعت في سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م إذ من المعروف أن جده جنكيزخان كان لا يزال حياً في هذا التاريخ، وأن قوبيلاي نفسه كان طفلاً صغيراً لا يتجاوز الثمان سنوات من عمره

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٢، ص ٢٨٧.

(٢) رشيد الدين فضل الله، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص ٢٨٨؛
Marco Polo, The travels of Marco Polo,p.١٢٤.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٢٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٧٧.

(٥)Morris Russabi, Khubilai khan, P. ٢١٦.

[(١)]، وحقيقة الأمر أن المصادر تجمع أن هذه الحملة أنما وقعت في سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م وليس السنة انفة الذكر [(٢)].

ويضيف ماركو بولو في مروياته عن هذه المملكة وعن تبعيتها للإمبراطورية المغولية فيقول أنه كان لهذه المملكة ملك طاعن في السن من دون تسميته، وكان قد أدرك عدم قدرته على مواجهة جند المغول فأنسحب من الميدان إلى معاقل حصينة في البلاد، ومن هناك بدأ بالدفاع عن نفسه ببسالة متميزة رغم كبر سنه في وقت كانت معظم مدن زيامبا ترزح تحت حكم المغول، ولكن ملك البلاد عندما شعر أن بلاده ستدمر عن آخرها أن ظل يقاوم هؤلاء العسكر فطلب من القاآن أن يقر بحكمه على أن يقبل بسيادة المغول على بلاده فضلاً عن دفع جزية سنوية لهم [(٣)].

ومع ذلك يرى ماركو بولو أن قوبيلاي قاآن حقيقة لم يقس على غريمه، بل على العكس من ذلك أخذته نوع من الشفقة السياسية في التعامل مع الملك العجوز لان ذلك الشيخ الطاعن في السن قبل بتبعيته للمغول عندما قال " منذ ذلك الوقت أخذ يرسل ملك زيامبا مقداراً ضخماً من الخشب مصحوباً بعشرين من أضخم واجمل الفيلة وعلى هذا النحو أصبح الملك من رعية القاآن"[(٤)] وهو نصر مكن وعزز بدون شك نفوذ المغول في آسيا وفسح المجال أمام غزوات جديدة هناك [(٥)].

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٢٧٧.

(٢)Morris Russabi, Khubilai khan, P. ٢١٧; John Masefield, Marco Polo's Silk Road, PP. ١٩٣-١٩٧.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٢٧٨.

(٤) رحلات ماركو بولو ، ج٣، ص ٢٧٨.

(٥)John Masefield, Marco Polo's Silk Road, PP. ١٩٧.

مرويات ماركو بولو عن سهول البارجو (سيبيريا)

يطلق ماركو بولو على البلاد الواقعة أقصى شمال قراقورم تسمية سهول البارجو ليدل بها على البلاد التي تعرف حالياً بأسم سيبيريا[١]، وفي الواقع أن التسمية الأخيرة وقعت على تلك البلاد وأطرافها في حقيقة الأمر بعد وفاة ماركو بولو إذ يشير الرحالة الأمريكي المتأخر جيرمايا كيرتن (jeremiah cartin) الذي زار هذه البلاد في بداية القرن التاسع عشر أن تسمية سيبيريا ظهرت لأول مرة في السجلات الروسية في عام ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م بعد أن كان يطلق عليها قبل هذا التاريخ اسم يوجاريا[٢].

وعن علاقة هذه البلاد بالمغول يذكر بولو أن سهول البارجو هم من رعايا القآن الأعظم بعد أن كانت سابقاً تحكم من قبل أهل البلاد أنفسهم، ولا يذكر الرحالة البندقي مزيداً من التفاصيل حول كيفية خضوعها لحكم المغول، لكن المصادر تجمع أن هذه البلاد خضعت للمغول بوقت مبكر، وفي حياة جنكيزخان الذي أوكل أنجاز المهمة لأبنه الأكبر جوجي في سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م الذي أنجز المهمة بنجاح[٣]، وفي الوقت نفسه تشير بعض المصادر إلى أن الذي حفز جنكيزخان لفتح تلك البلاد وأخضاعها لحكمه سياسياً هو وفرة أجود أنواع الفراء والخيول في أصقاعها، فضلاً عما تشتهر به نسائهم من جمال آخاذ [٤]، ورواية الرحالة ابن بطوطة عن هذه البلاد التي يطلق عليها بلاد الظلمة تتفق مع ما يرد من مرويات لماركو بولو عن ثراء تلك

---

(١) سيبيريا: وتقع هذه البلاد في شمال الشرقي من روسيا، وتمتد إلى غرب جبال الأورال، وتصل إلى حدود منغوليا والصين جنوباً. للمزيد انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، الحاشية ، ج١، ص ٢٨٨.

(٢) رحلة إلى جنوب سيبيريا، ترجمة عدنان خالد عبد الله (ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة ، ٢٠٠٩م)، صص ٢١-٢٢.

(٣) وصاف، تاريخ وصاف، ج١، ص ٢٧٧؛ الباز العريني، المغول، ص ١٥٧.

(٤) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته ، صص ٣٠-٣١.

البلاد بالفراء فيقول " أن خير تجارة في هذه البلاد هي تجارة الفرو شديد البياض وهو من أجود أنواع الفرو "(١).

ثم يسهب ماركو بولو في وصف تلك البلاد فيذكر " بأن البارجو بلاد شديدة البرودة لاسيما الاصقاع الشمالية حيث تقع مناطق الظلمة، ويحجب بها نور الشمس طوال فصل الشتاء بحيث يكون فيها ضياء الشمس قريباً من ضوء الفجر، ولا يمكن للمرء أن يميز الاشياء على طبيعتها، وهم يعتمدون في معيشتهم على الحيوانات البرية لاسيما الايائل، وكذلك على صيد الطيور والأسماك التي تملئ البحيرات والخلجان في شهور فصل الصيف بعد ذوبان الثلوج"(٢).

ويحدثنا الرحالة ماركو بولو عن سكان سهول البارجو فيقول " أن أهل هذه البلاد طوال القامة حسنو الهيئة، وأن اصحاب البلاد الاصليين يعيشون في المناطق الشمالية من البلاد، أما المناطق الجنوبية والغربية يسكنها التتار "(٣).

ويختم ماركو بولو مروياته عن هذه البلاد بذكر أن معظم التتار هم من أبناء قبيلة المركيت(٤) الشديدة المراس الذين استقروا بعد هجرتهم في سهول البارجو وهي رواية تؤكدها معظم المصادر المغولية التي تؤكد أن هؤلاء التتار نزحوا في ايام الفتوحات الأولى واستقروا في تلك البراري والاصقاع ليصبحوا منذ حينئذ من سكان ورعايا أهل البلاد (٥).

---

(١) حسين مؤنس،ابن بطوطة ورحلاته، ص ١٤٢.
(٢) رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٤٩؛ ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٢٩.
(٣) ريشارد، ماركو بولو مغامراته واستكشافاته، ص ٢٩.
(٤) المركيت: وهم من أشهر القبائل المغولية، وقد عرف عنهم بالصبر والشجاعة الشديدين. للمزيد انظر: رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج١، صص ٧١-٧٣؛ العريني، المغول ، ص٣٥.
(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ١٤٨؛ هارولد لامب، جنكيزخان، ص ٢٣.

مرويات ماركو بولو عن روسيا

ذكر ماركو بولو في رحلاته عن البلاد الروسية بأنها ولاية واسعة الارجاء مترامية الاطراف، تنقسم ولاياتها إلى اجزاء كثيرة من الاصقاع والقصبات وسكانها نصارى يتبعون الطقوس الاغريقية في صلواتهم ومراسيهم الكنسية (١)، ويتحدث ماركو بولو عن أهل تلك البلاد الاصليين بقوله أن " رجال روسيا حسان الوجوه، طوال القامة، شقر البشرة، ويصف نسائهم بأنهن شقروات ممتلئات الاجسام مع شعر فاتح"(٢).

أما عن علاقة هؤلاء الروس بالإمبراطورية المغولية فلا يتحدث عنها الرحالة إلا بشكل مقتضب ويكتفي بذكر أن هذه البلاد تخضع لسيطرة التتار الغربيين أو دولة المغول القبجاق ، وأن السكان الروس يدفعون جزية سنوية لهم دون تحديد مقدارها، من دون مزيد من التفاصيل عن كيفية اخضاع تلك البلاد (٣)، وما نتج عن تلك الاحداث مثل قيام خانية القبجاق، والحقيقة أن هذه الخانية أقيمت على الأرض الروسية منذ سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م بناءاً على أوامر جنكيزخان، عندما أقدم هذا المؤسس على تقسيم أملاكه بين أفراد اسرته، لتصبح تلك البلاد من نصيب أبنه الأكبر الأمير جوجي، مع وضع قوة كبيرة تحت تصرفه، فضلاً عن أعداد من العسكر قدرت بالآلاف من المقاتلين التركمان من المناطق التي خضعت للمغول (٤) يتقدمهم القائد سبوتاي(٥).

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٤٧؛ شيرين بياني، المغول، ص٢٦؛ Marco Polo, Il Milione , p.١٨٢.

(٢) رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٤٧.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٣٤٧.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ،ج١٠، ص٤٠٠؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٢٥.

(٥) سبوتاي: وهو أحد أشهر وأعظم قادة المغول العسكريين، وساهم في حملات أخضاع كل من بلاد ماوراء النهر وبلاد فارس وقسم كبير من أوربا. للمزيد من المعلومات انظر: الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ١٢٧؛ لامب ، جنكيزخان، صص ١١٧-١١٨.

ويلاحظ أن مغول تلك البلاد غلب عليهم الطابع الاسلامي منذ أن اعتلى بركة خان خانية مغول القبجاق في سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م الذي دخل في تحالف وثيق مع السلطة المملوكية التي كانت تحكم مصر وبلاد الشام ضد أبناء جلدته من المغول الايلخانيين حكام ايران والعراق بعد أنقراض الخلافة العباسية عن بغداد (١).

وعلى الرغم من أن ماركو بولو تجاهل ذكر الاحداث الهامة المبكرة التي أسلفنا ذكرها والتي وقعت في البلاد الروسية في الشطر الأول من تأسيس الأمبراطورية المغولية، إلا أنه مروياته المتاخرة عن هذه البلاد أتسمت بالكثير من الدقة، لاسيما أنه عاش لمدة ما يقرب عام في تلك الربوع ، والتقى خلال وجوده فيها حاكمها بركة خان الذي وصفه بالحاكم المسلم المتحضر، فضلاً عن أن هذا الرحالة أنفرد بالكثير من التفاصيل والجزئيات في النزاع الذي نشب بين بركة خان وهولاكو التي أوردناها سلفاً (٢).

مرويات ماركو بولو عن بلاد اليابان وفشل حملات المغول العسكرية لإحتلالها

ينفرد ماركو بولو دون غيره من رحالة العصور الوسطى بما فيهم الرحالة المسلمين بمعلومات مهمة عن الجزر اليابانية الواقعة في بحر المحيط الهادي في أقصى شرق آسيا(٣)والتي يطلق عليها تسمية زيبانجو(٤)، وقد وصفها هذا الرحالة البندقي بأنها جزر واسعة المساحة يتميز سكانها بحسن الخلقة وتنم عادتهم عن التحضر، وهم يعبدون الأوثان، غير أن أهم ما يقدمه ماركو بولو عن هذه البلاد بأن

(١) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج١، ص ٥١٨؛ بارتولد، بركة خان، دائرة المعارف الاسلامية، ج٢، صص ٥٦٤-٥٦٨.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ص ٣٣؛
Tim Mcneese, Marco Polo and the Realm of Kublai khan P. ٣٠.

(٣) من الصعب جداً تصور وصول الرحالة إلى تلك البلاد آنذاك بما فيهم ماركو بولو نفسه الذي لم يدع أنه زار اليابان، وانما دون رواياته بحكم وجوده في البلاط المغولي. للمزيد انظر
Laurence Bergreen, Marco Polo from Venice to Xanadu, P. ٣٠١

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣ ، ص ٢٧١.

أهلها أناس مستقلون تماماً عن كل نفوذ اجنبي، ولا يحكمهم سوى ملوكهم الوطنيين [١]، وهذا في الحقيقة وصف دقيق عن اليابانيين إذ أجمعت كل المصادر التاريخية المتداولة القول بأن هذه البلاد كانت عصية على الوقوع في براثن الدول الغازية التي كانت تطمع في حكم البلاد بما فيهم المغول أنفسهم [٢]

وعن موارد هذه الجزر يشير ماركو إلى أن اليابانيين لديهم معدن الذهب بأعظم وفرة لاتنفذ لوجود مقادير ضخمة منها في سواحل هذه الجزر، ويقر ماركو بولو الصديق المقرب لقوبيلاي أن الثراء في هذه الجزر المنعزلة وشيوعها بين الاسيويين هو الذي حفز الأمبراطور المغولي في الصين والرغبة في غزوها، وأن يلحقها بممتلكاته [٣].

ومن أجل تنفيذ هذه الرغبة أعد قوبيلاي اسطولاً ضخماً محملاً بأعداد كبيرة من العسكر لكن ماركو بولو لا يعطي ارقاماً محددة بشأن أعداد هؤلاء الجند، غير أن المصادر اليابانية تشير أن الاسطول المغولي كان يضم نحو ثلاثمائة سفينة كبيرة، واربعمائة سفينة اصغر حجماً، يقودها خمسة عشر الف من المحاربين المغول والصينيين والكوريين [٤]، وما لم يشر إليه الرحالة أن هذه الحملة كان قد سبقتها وفوداً أرسلها قوبيلاي قآن إلى ملوك اليابان من اسرة الهوجو[٥]أبتداءاً من سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م يطلب منهم الاعتراف بسيادة المغول عليهم وتقديم فروض الطاعة ودفع الاتاوات السنوية للمغول، والجدير بالذكر أن مجموع السفارات المرسلة بلغ أربع سفارات، لكنها لم تأت بثمارها وفشلت جميعها في تحقيق ما يصبو

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣، ص ٢٧١.

(٢) Nakaba Yamaha, TheMongols Invasion of Japan, (London: ١٩١٦), P. ١٤٩.

(٣) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣ ، ص ٢٧١.

(٤) NakabaYamaha, The Mongols Invasion of Japan, PP. ١٥٥-١٥٧; Morris Russabi, Khubilai khan, P. ١٠٠.

(٥) أسرة الهوجو: وهو سلالة حكمت اليابان للفترة بين السنوات (٥٩٦-٧٣٤هـ/ ١١٩٩-١٣٣٣م)، وقد سميت بهذا الأسم نسبة إلى مدينة في اليابان تحمل هذا الأسم. للمزيد انظر J.J. Sanders, The History of The Mongols Conquests, P. ١٢٢.

إليه أمبراطور المغول قوبيلاي قآن بضم هذه البلاد إلى دائرة نفوذه، ومن أجل ذلك قرر قوبيلاي غزو الجزر اليابانية وأخضاعها في سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م (١)، ومع أن ماركو بولو ذكر الحادثة لكنه يخطأ في تحديد تاريخ غزوها ويضعها سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م أي بأقل من عقد من التاريخ المقدم ، والحقيقة أن هذا التاريخ الأخير كان يمثل بداية لارسال المغول للسفارات صوب أسرة الهوجو اليابانية وليس تاريخ هجوم الاسطول المغولي عليها (٢).

على أية حال يذكر ماركو بولو أن الحملة البحرية المغولية المرسلة لم تحقق سوى نجاحات محدودة بسبب مقاومة اليابانيين أولاً، وثانيهما وهو الأهم أن الاسطول المغولي كان قد تعرض لضربة قاصمة عند ما حدثت عاصفة هوجاء ضربت سفنه، وأغرقت معظم مراكب الاسطول المغولي (٣)، وهو ما يؤكده ماركو بولو حيث تتطابق مروياته مع وقائع الحوليات اليابانية التي تذكر أنه قبل وصول الاسطول المغولي السواحل اليابانية هبت ريحاً عاصفة على ذلك الاسطول، وقد أشتدت فيها تلك الزوبعة حتى أغرقت أعداد كبيرة من السفن ، وهو ما أدى إلى مقتل أعداد كبيرة من المحاربين المغول والمتحالفين معهم، وبمثل تلك ألاهوال البحرية لم تحقق الحملة الاهداف المنتظرة منها، وأنتهت بالفشل الذريع (٤). غير أن ماركو بولو ينفرد برواية أخرى عن سبب أخفاق تلك الحملة وفحواها يدور حول الاختلاف الذي قام بين اثنين من أبرز قادتها، لم يسميهما ماركو بولو، وحينها أمر قوبيلاي بمعاقبتهما من خلال قتل أحدهما ونفي الاخر إلى أحد الجزر النائية الموحشة (٥). وفي هذا السياق يعزو لورنس بيركين أسباب فشل تلك الحملة البحرية في أن معظم القوة المغولية كانت من الرعايا الاجانب الذين خضعوا لحكم المغول أفتقدوا للحماس

---

(١)Morris Russabi, Khubilai khan, P. ١٠١.

(٢) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣ ، ص ٢٧٢.

(٣)Laurence Bergreen, Marco Polo from venice to Xanadu, P. ٣٠٤.

(٤) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣ ، ص ٢٧٢ ؛
Nakaba Yamaha, The Mongols Invasion of Japan, PP.١٤٦-١٤٨.

(٥) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج٣ ، ص ٢٧٢.

في تلك الحرب إذ كانوا يشعرون بأنها ليست حروبهم وبصفة خاصة العنصر الصيني ، وهو رأي يحظى بالقبول لاسيما أن أعداد هؤلاء يفوق أعداد المقاتلين المغول بكثير (١).

ولكن ما لم يشر إليه ماركو بولو ايضاً في مروياته عن اليابان هو أغفاله الحديث الحملة البحرية الثانية على الجزر اليابانية سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، وهو أن القوة اليابانية المدافعة أستطاعت أنزال هزيمة أخرى في الاسطول المغولي، ولم ينوه عنها ماركو بولو، لكن ما يرد في المصادر الأخرى مفادها أن عاصفة أخرى جديدة هبت على الاسطول المغولي المهاجم بحيث أغرقت معظم سفنه مما جعل اليابانيين يطلقون عليها أسم الريح الالهية أو الكاميكاز(٢)، وتزعم الحوليات اليابانية أن من نتائج هذه الريح الالهية مقتل أكثر من مائة الف من عساكر المغول والمتحالفين معهم (٣)، وفي حقيقة الأمر أن مثل هذه الهزائم البحرية المتكررة للمغول على الجزر اليابانية ترجع إلى عدم خبرة المغول في القتال بالبحار، وعدم مراعاة ظروف المناخ البحري وتوقيت الحملات في الاشهر التي تكثر فيها تلك العواصف مما أدى في النهاية إلى فشل المغول في أحتلال بلاد اليابان أو أي من جزره (٤).

وأخيراً يمكن القول أن أعتلاء جنكيزخان لعرش المغول، وضم هذه البلدان والاصقاع تدريجياً بما يفوق نصف أراضي العالم المعروف آنذاك يعد ظاهرة تاريخية كبيرة وحدثاً مفصلياً في التاريخ العالمي أنجزه المغول بقوة السلاح، كما أن هذه الفتوحات وحركة التوسع الجنونية التي لم تتخذ طابعاً دينياً، وهي حالة نادرة في توسع الامبراطوريات لا تقارن بأي حركة توسع مماثله سوى حركة الفتوحات الاسلامية في مختلف عصورها وأن كانت الأراضي التي خضعت للدولة الاسلامية

---

(١) Marco Polo from venice to Xanadu, P. ٣٠٥.
(٢) John Man, Kubilai khan, P. ٢٧٩.
(٣) Nakaba Yamaha, The Mongols Invasion Of Japan, P. ١٨٤.
(٤) Stephn. Haw, Marco Polo's China, P. ١٦٢.

أقل بكثير مما أنجزه المغول وبزمن أطول ، كما أن حصر عوامل النجاح للمغول من خلال أستخدامهم القوة والقتل والتنكيل قد يعطي جزءاً من التفسير لما حدث دون أن يعطي فهماً كاملاً وحقيقياً عما حدث في قراقورم وخان باليق ، فكل الأمبراطوريات أستخدمت القوة لتوسيع نفوذها دون أن تحقق النجاح الذي حققه المغول في تلك المدة الوجيزة ، وفي ضوء هذا نعتقد أن هذه الظاهرة تحتاج دراسة مفصلة لطبيعة المجتمع الرعوي المغولي لتحليل شخصية الفرد المغولي وقدرة قادته وقبائله لمعرفة أسباب النجاح الأخرى بجانب أستخدام القوة المفرطة والغاشمة في أخضاع هذه البلدان التي مكنت المغول من أقامة أكبر أمبراطورية عرفها التاريخ البشري .

الخلاصة

الخلاصة

إستعرضنا في فصول هذه الاطروحة الاربع سيرة وحياة الرحالة البندقي الشهير بماركو بولو ومروياته ورحلاته ومغامراته في ربوع بلاد المغول بالصين والبلدان التي خضعت لهم ، وقد توصلت الدراسة الى الاستنتاجات الآتية :

(١) أن أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة هو تأكيدها على صحة وحقيقة معظم المرويات التي أوردها الرحالة ماركو بولو عن المغول ، وذلك لان مثل تلك النصوص والمرويات تتطابق مع الحقائق التاريخية الثابتة بمجملها ، وتؤكد على صحة تلك الروايات على نحو ما وردت عن المغول في المصادر الصينية والفارسية ، فضلاً عما يورده الرحالة المعاصرين الآخرين المؤيدين لمروياته أمثال ابن بطوطة، ووليم الروبريك، وكاربيني وغيرهم ، وعلى الرغم من إقرارنا وتاكيدنا على أن ما يرد في رحلات ماركو بولو من مبالغات في الوصف الذي نعتقد أنه يعد أسلوب صياغي دأب عليه معظم الرحالة والمغامرين في وصف رحلاتهم للتعظيم من شأنهم وتمجيد أعمالهم ، وقد تم تشخيص عدد من هذه المبالغات التي أشرنا إليها بين ثنايا هذه الاطروحة .

(٢) فيما يتعلق بزيارة ماركو بولو إلى الصين والمكوث فيها لأكثر من عقد ونصف، فإن هذه الدراسة تؤكد على حقيقة لاتقبل الشك وهي أن هذا الرحالة قد وصل إلى هذه البلاد بالفعل وعاش في ربوعها لمدة تزيد عن سبعة عشر عاماً، وحظي خلالها برعاية خاصة من قبل قاآن المغول قوبيلاي شخصياً .

فمن خلال دراسة مستضيفة لمروياته عن الصين يتبين لنا أن ما أورده من وصف للأحداث التاريخية ووقائعها عن مركز الامبراطورية وبلاطها في العاصمة خان باليق يتطابق إلى حد كبير مع ما ذكره

مؤرخي المغول والرحالة المعاصرين الذين زاروا الصين وقتئذ خلال حقبة أسرة اليوان ، مما يدلل على أنه كان شاهد عيان لكثير من الوقائع والاحداث أيامها .

كما أن هذه الدراسة أنفردت برأيين توصلت لهما فيما مايخص زيارة ماركو بولو للصين دون غيرها من المصادر والدراسات الحديثة ، أولهما أن معظم الدراسات وكتابات المؤرخين والباحثين الذين شككوا في مصداقية مروياته عن الصين ونفوا حقيقة وصوله اليها أستناداً لبعض الثغرات التي جاءت بها هذه الروايات (ولكنهم مع ذلك) يؤكدون على أن هذا الرحالة عبر صحراء غوبي وحل في منغوليا دون زيارته للصين وضواحيها ، ولم يستثن من ذلك سوى الدراسة التي قامت بها فرنسس وود التي زعمت فيها أن ماركو بولو لم يتجاوز القسطنطينية في رحلاته ، ومثل هذا الاجماع يؤكد في حقيقية الامر أن الرحالة قد وصل إلى الصين بطريقة غير مباشرة إذ أن الانتقال إلى الصين عبر منغوليا كان يحدث كأي انتقال من بلد الى اخر فالمصاعب التي كانت تواجه الرحالة والمغامرين تكمن في تلك الصحاري الجرداء ، وبما أن المصادر المخالفة تقر بأن ماركو بولو قد عبر صحراء غوبي وتسلَم في مروياته عن منغوليا ، فبدون أدنى شك أن الرحالة قد وطئت أقدامه أرض الصين وزار مدنها الرئيسة، وعليه نعتقد أن أدعاءات تلك المصادر المخالفة ومؤرخيها بأن ماركو بولو لم يصل الصين لا قيمة لها أكاديمياً، وثانيهما تستدل الدراسة بصدق معلومات ماركو بولو عن الصين هو وصفه الدقيق لمدينة كين ساي الصينية التي قال بخصوصها أن أمبراطور المغول قوبيلاي قاآن قد عينه عليها كمخمن للضرائب وجبايتها، وهذا القول شيء مهماً في تجديد المصداقية وأصالتها ، وقد أسهب ماركو بولو في وصف أحوال هذه مدينة كين ساي ووكل مايتعلق بأعمالها التجارية وأهم مواردها ، وكذلك تقديمه أرقام وأحصائيات

دقيقية عن الضرائب المفروضة على السلع التجارية في هذه المدينة، ومن خلال هذا كله يستشف أن الرجل قد زار الصين فعلاً وعمل كمخمن ضرائب في مدينة كين ساي .

(٣) كشفت لنا هذه الدراسة أن المرويات التي قدمها ماركو بولو عن المغول ليست عملية مقارنة لروايات هذا الرحالة مع نظيرتها في المصادر المغولية والاسلامية فحسب ، بل أنها نالت السبق في وصف ملامح وسمات لمرحلة كانت تمثل بداية لعهد جديد عند المغول ، ومؤشر على قدرة هؤلاء الاقوام والقبائل البدوية على الاندماج والانصهار في المجتمعات الاسيوية المتحضرة ، وتقديم نموذج فريد في الادارة المدنية التي كان ماركو بولو أحد رجالها، وذلك من خلال مزج قوانين الياسا الجنكيزخانية مع الثقافات وقوانين الشعوب التي خضعت لهم، ومن هنا فقد أبرزت الدراسة الجوانب الحضارية والعمرانية التي أقامها هؤلاء المغول على خلاف الفكرة النمطية التي حملها المؤرخون في مروياتهم عنهم والتي وسمتهم بكل صفات القتل والهمجية والبربرية أينما حلوا .

(٤) أظهرت الدراسة العوامل التي أسهمت في تكوين وصقل مواهب ماركو بولو إذ يعود إلى الدور الذي لعبته أسرته في البندقية ، والتي مهدت له الطريق في نجاح مغامراته ، ولاسيما أنه لم يكن صاحب فكرة التوجه إلى القسطنطينية وأقصى الشرق بل ترجع بالاساس إلى والده نيقولا وعمه ماتيو ، وكان ماركو بولو حين رافقهما في الرحلة الثانية الى الصين شاباً صغيراً لا يتجاوز عمره السادسة عشرة عاماً آنذاك ، لكن سرعان ما برزت مواهبه بما يفوق دور أفراد أسرته جميعهم ، فمن خلال نبوغه وقوة الشخصية التي تميز بها ماركو بولو إذ تمكن هذا الرحالة من أسر قلب أمبراطور المغول قوبيلاي قاآن وعطفه الذي عينه كمستشار له في القاآنية ومن ثم حاكماً لأقليم هانزو، أحد أكبر أقاليم

الصين فضلاً عن المناصب الادارية الرفيعة الاخرى التي تقلدها في سنوات أقامته .

(٥) أما فيما يخص العادات الاجتماعية للأقوام التي تشكل منها الامبراطورية المغولية والتي تميزت بها مرويات الرحالة ماركو بولو عن سواها من المصادر فقد كشفت هذه الدراسة عن قدرة المغول الهائلة في التعامل مع المجتمعات والشعوب المغلوبة وأستيعابها على الرغم من الاختلاف والتناقض الكبير بين مجتمعاتها ومختلف الاديان والاعراق والاثنيات التي كانت تزخر بها بلدان تلك الامبراطورية ، فلم يتدخلوا في تفاصيل حياتهم وعاداتهم الاجتماعية بل أن المغول تمكنوا من أستيعاب عادات وتقاليد تلك الشعوب والاثنيات بكل سلبياتها وايجابياتها معاً بحنكة ومهارة منقطعة النظير على الرغم من معارضة بعض كبار الامراء ذات التوجه القبلي الصارم الذين راؤا من الحرج أستيعاب تلك العادات التي تمس عاداتهم القبلية وسيادتها ولكن في النهاية أن المغول كانوا أقلية بين تلك الشعوب قد حتم عملية أنصهارهم بل والذوبان في هذه المجتمعات وصيرورتها سياسياً بمرور الوقت .

(٦) وفيما يتعلق بالديانة المغولية الشامانية فقد أنفردت هذه الدراسة برأي يكاد يخالف ما أجمعت عليه المصادر الاسلامية عن العقيدة المغولية الشامانية التي تزعم بأن اصول هذه الديانة أنما تقوم على عبادة مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والرعد والجبل ونحوها من مظاهر الطبيعة ، فقد توصلت الدراسة إلى أن العقيدة الشامانية تقوم على أن هناك الهاً واحداً للكون ، وهو لايختلف عن الذات الالهية عند الاديان السماوية الاخرى ، وقد أطلقوا عليه أسم (الاله تنغري) أي الاب السماوي ، وأنهم قدسوا إلى جانبه مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر وغيرها لانها تثير الرعب في نفوسهم ، كما أن تسمية الشامانية في المعنى مشتقة من كلمة شامان وهو رجل الدين او الكاهن في الديانة الشامانية بخلاف

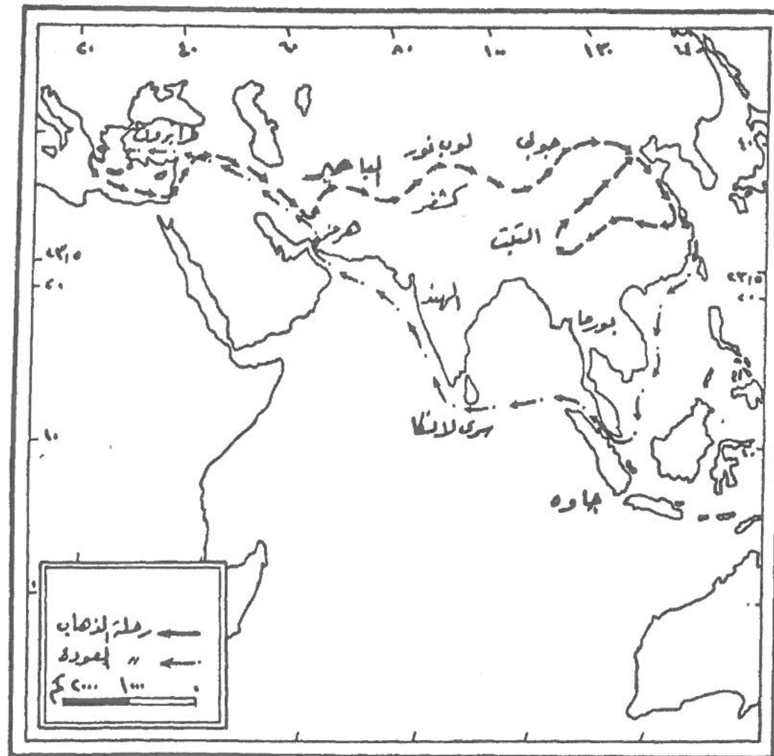
ماتورده بعض المصادر الاسلامية بأن الشامانية مشتقة من الشمس أو غيرها من مظاهر الطبيعة .

(٧) وفيما يتعلق بالبلدان التي خضعت للمغول تبرز هذه الدراسة ألاحوال السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لعدد كبير من البلدان التي جعلت من الامبراطورية المغولية الاكبر في التاريخ من حيث المساحة والطبيعة السكانية فقد تناولت هذه الدراسة مرويات ومغامرات للرحالة ماركو بولو في العديد من البلدان التي خضعت لدولة المغول مثل بلدان العراق وبلاد فارس وآسيا الصغرى أو(تركيا) وأرمينية وجورجيا وبلاد ماوراء النهر وبلاد آريانا أو (افغانستان) فضلاً عن منغوليا الموطن الاصلي للمغول والصين وبورما وروسيا وسيبيريا واليابان التي فشل المغول في أجتياحها ، وفي الواقع أن المغول أستخدموا المهارة العسكرية في ادارة تلك البلدان ، وحكموا كل بلاد بما تقتضي خصوصياته وسمحوا لمجتمعاتهم بالكثير من العدالة والحريات طالما كانت سيادتها لاتتعارض مع الوجود العسكري المغولي على أراضيهم مما سهل ادارة هذه البلدان وأحتوائها رغم تعدد أثنياتها وأعراقها وأديانها .

(٨) كان من أهم نتائج رحلات ماركو بولو هو أنه أسهم بشكل كبير في فك الكثير من الغاز واسرار الشرق الغامض بالنسبة للاوربيين ، بل ويمكن القول أن هذه المرويات كانت سبباً رئيساً في دفع عملية الاستكشافات الجغرافية اللاحقة من خلال وصفه للطرق والمسالك التي أستعان بها هؤلاء الرحالة للمستكشفين الذين تلو رحلاته أمثال كريستوفر كولمبس الذي أطلع على رحلاته ماركو واكتشف العالم الجديد أو مايعرف بالقارة الامريكية فيما بعد .

الملاحق

خريطة توضح البلدان التي زارها ماركو بولو في رحلة الذهاب والعودة[1]

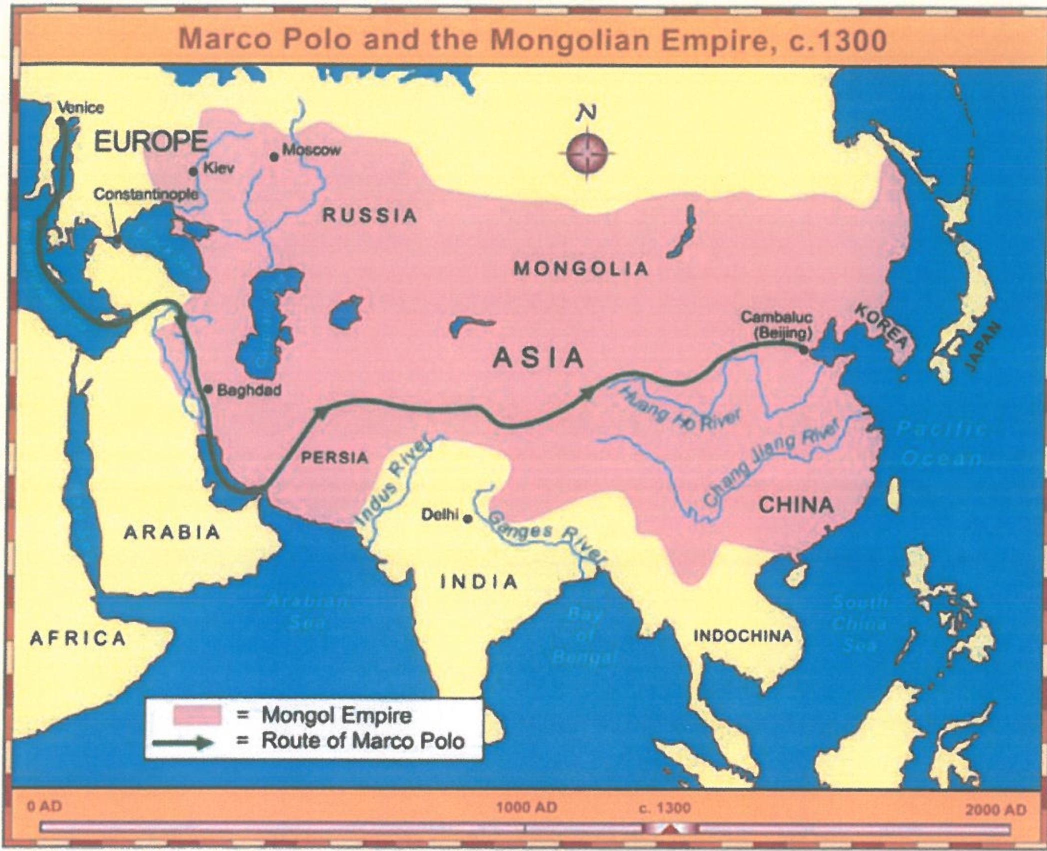


شكل رقم (١٢)
رحلات ماركوبولو

٥٦

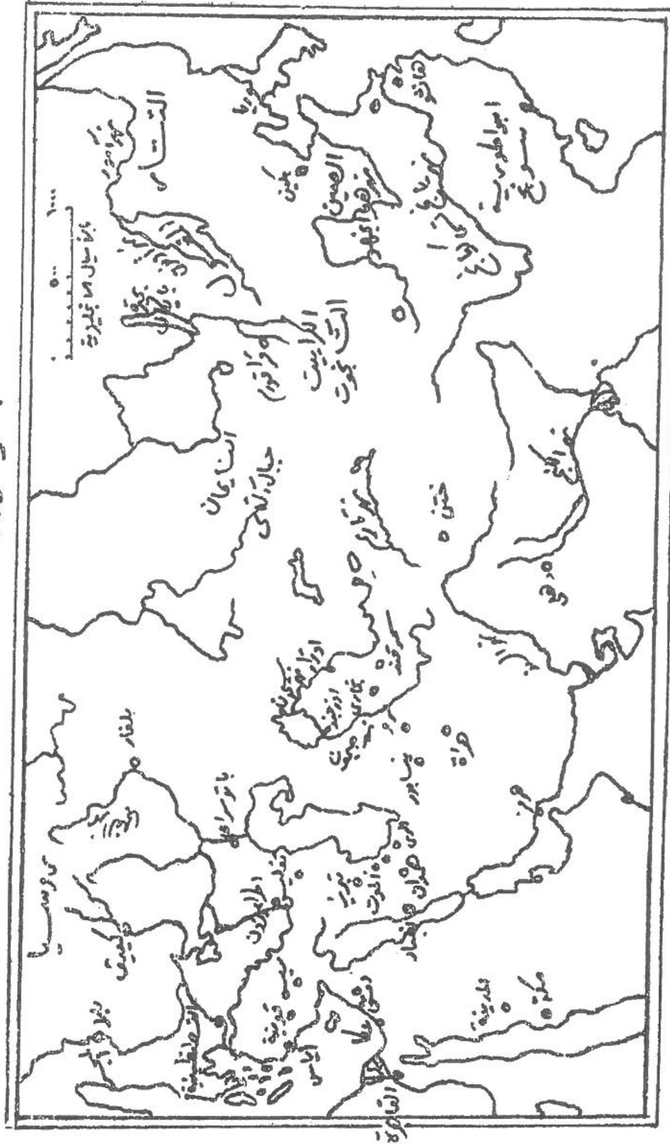
(١) عيسى علي ابراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، ص ٥٦.

خريطة توضح الطريق الذي قطعة ماركو بولو واسرته في طريقهم نحو بلاط المغول(1)



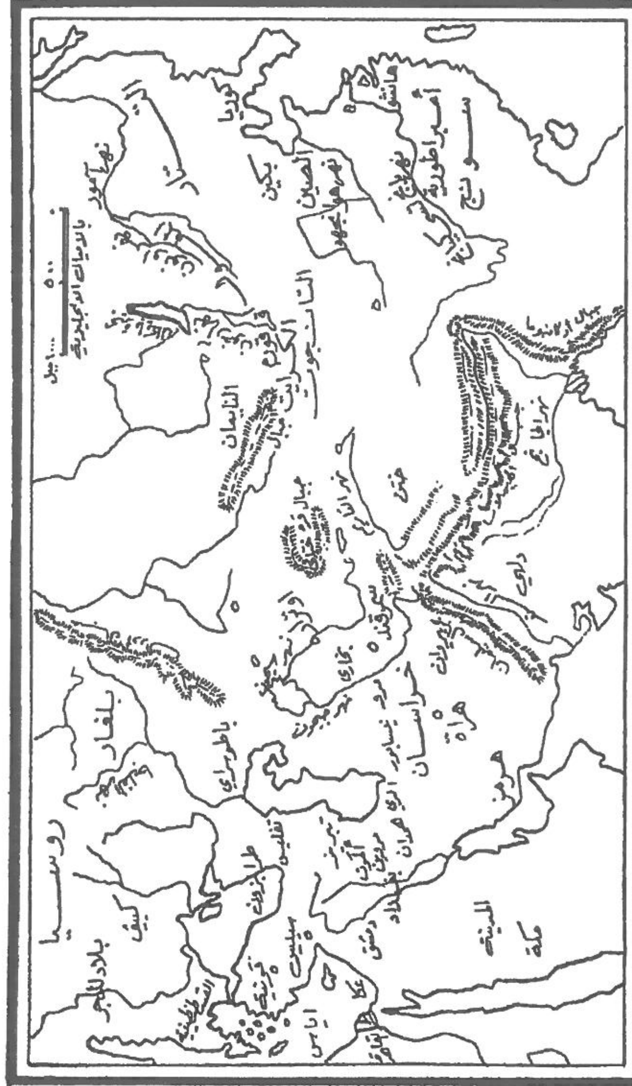
(1)Tim Mcneese, Marco Polo and the Realm of Kublai Khan,p.٦٤.

خريطة توضح البلدان التي أخضعها المغول(١)



(١) عبد السلام فهمي، الدولة المغولية في ايران، ص ٢٧١.

خريطة توضح الامبراطورية المغولية في أقصى إتساع لها [1]



(٢٦)

(١) الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٤٠٢.

صورة تقريبية متداولة للرحالة البندقي ماركو بولو(١)



(١)Tim Mcneese , Marco Polo and the Realm of Kublai Khan, p ٤.

ثبت المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

❖ المصادر العربية والمعربة .

- إبن الأثير، عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م).
- ابن ايبك، ابي بكر عبدالله (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م).
كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور(القاهرة: دار صادر، ١٩٧٢م).
- إبن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي(ت٧٧٩هـ/١٣٧٩م).
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار(بيروت: دار صادر، ١٩٩٢م).
- البغدادي ، عبد القادر بن طاهر بن محمد (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)
الفرق بين الفرق (بيروت: دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٩م) .
- بولو ، ماركو (٧٢٥هـ/١٣٢٤م) .
رحلات ماركو بولو، ترجمة،عبد العزيز جاويد (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب ،١٩٩٦م).
- إبن تغرى بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأمير سيف الدين (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة(القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٨م).
- الجويني ، علاء الدين عطا ملك (ت٦٨١هـ/١٢٨٣م) .

تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، نقله عن الفارسية محمد التونجي (دمشق :دار الملاح للطباعة والنشر ،١٩٨٥م)

- الحنبلي ، ابن العماد ابو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)
شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٧٩م) .
- ابن حوقل ، ابي قاسم محمد بن علي (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)
صورة الارض (بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، د.ت)
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر ١٩٧٩م) .
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٣م)-
وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس(بيروت: دار صادر، د.ت).
- خليفة ، حاجي بن مصطفى بن عبدالله (ت١٠١٧هـ/١٦٠٨م)
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون (بيروت :دار أحياء التراث العربي ، د.ت) .
- الخوارزمي ، محمد بن احمد بن يوسف ابو عبدالله(ت٣٨٧هـ/٩٩٧م)
مفاتيح العلوم ، تحقيق ابراهيم الابياري (بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت) .
- دبوردون ، أدوريك (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)
مشاهدات أودوريك دبوردون الفرنسيكاني في الصين (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د.ت) .
- الادريسي ، ابي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس(ت٥٦١هـ/١١٦٥)
نزهة المشتاق في اختراق الافاق (بورسعيد : مكتبة الثقافة الدينية، د.ت) .

- الدويدار ، ركن الدين بيبرس (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م).

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق، دون ريتشالد،(بيروت: شركة المتحدة، ١٩٩٨م).

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

دول الأسلام، ط٢(حيدر أباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٨٥م).

تاريخ الاسلام، تحقيق، بشار عواد معروف واخرون (بيروت: مؤسسة الرسالة ،١٩٨٦م).

- ابن رسته ، ابي علي أحمد بن عمر(ت٣٠٠هـ/٩١٢م)

الاعلاق النفيسة (ليدن :١٨٩١م) .

- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م).

طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي(القاهرة : دار احياء للكتب العربية ، ١٩٠٦م).

- ابن سلام ، ابو عبيد القاسم (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م)

الاموال ، تحقيق محمد عمارة ط١ (بيروت : دار الشروق ١٩٨٩م) .

- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر بن محمد (ت٩١١هـ/١٥٠٥م).

تاريخ الخلفاء،(بيروت: دار ابن حزم ،٢٠٠٧م) .

- ابو شامة ، شهاب الدين ابي محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)

تراجم القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ط٢ (بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٤م) .

- ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)

تاريخ الملك الظاهر ، تحقيق احمد حطيط (بيروت : المعهد الالماني للأبحاث الشرقية ، ١٩٨٣م) .

- الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي أحمد(ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)

الملـل والنحـل ، تحقيـق عبـد الاميـر علـي مهنـا واخـرون (بيـروت : دار المعرفة،١٩٩٣م) .

- الصفدي، صلاح الدين بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م).

الوافي بالوفيات، تحقيق، احمد الارناؤوط ،تركي مصطفى(بيروت :دار أحياء التراث العربي، ٢٠٠٠م).

- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا(ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م).

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٦م).

- ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م).

مراصـد الاطـلاع علـى أسـماء الأمكنـة والبقـاع، تحقيـق علـي محمـد البجاوي(بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م).

- ابن عبد الظاهر ، محي الدين ابو الفضل بن عبدالله(ت٦٩٢هـ/١٣٩٢)

تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل (القاهرة :وزارة الثقافة والارشاد ، ١٩٦١م) .

- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن اهرون(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

تـاريخ مختصـر الـدول، تصـحيح وفهرسـة، أنطـوان صـالحاني اليسـوعي، ط٢(بيروت: دار الرائد اللبناني، ١٩٩٤م).

- العسقلاني، احمد بن علي بن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م).

الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمود سيد جاد الحق (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٦م) .

- أبن عرب شاه ، احمد بن محمد بن عبدالله (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م)

عجائب المقدور في اخبار تيمور(القاهرة :المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ) .

- العمري، وهو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى(٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (بيروت: دار الكتب العلمية،٢٠٠٦م).

- ابن العميد ، المكين بن جرجيس (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)

اخبار الايوبيين ، تحقيق كلود كاهن (دمشق:١٩٨٥م).

- العيني، بدر الدين محمود(ت٨٥٥هـ/١٤٥١م).

عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، تحقيق، محمد امين (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب،١٩٨٧م).

- الغساني ، الاشرف اسماعيل بن العباس (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)

العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم (بغداد : دار البيان ، ١٩٧٥م) .

- أبو الفداء، إسماعيل بن محمود تقي الدين (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م).

تقويم البلدان،(باريس،١٨٤٠)

المختصر في أخبار البشر، تحقيق، محمد زينهم عزب، يحيى سيد حسين(القاهرة: دار المعارف، د.ت).

- إبن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م).

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق،بشار عواد معروف وعماد عبد السلام رؤوف(بيروت: دار الغرب الاسلامية/١٩٩٧م).

- القرماني، ابو العباس احمد بن يوسف (ت١٠١٩هـ/١٦١٠م).

اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، تحقيق: احمد حطيط وفهمي سعيد (بيروت :عالم الكتب، ١٩٧٨م).

- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/١٢٨٤م).

اثار البلاد وإخبار العباد(بيروت: دار صادر د.ت).

- القلقشندي ،أبو العباس احمد بن علي(ت٨٢١هـ/١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الانشا(القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٢م).

- الكتبي، محمد بن احمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م).

فوات الوفيات، تحقيق أحسان عباس(بيروت: دار صادر ،د.ت).

عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ، (بغداد :دار الرشيد للنشر،١٩٨٠م).

- إبن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

البداية والنهاية، تحقيق، عبد المحسن التركي(الرياض: هجر للطباعة،١٤١٩هـ).

- المغربي ، ابن سعيد علي بن موسى (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي (بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٧٠م) .

- المفضل ، ابن ابي الفضائل (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)
- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس : مطبعة بلوشيه ، ١٩١٢م) .
- المقدسي ، محمد بن احمد البشاري (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) .
- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط٣ (القاهرة : مكتبة المدبولي ، ١٩٩١م) .
- المقريزي، أحمد بن علي(ت٨٤٥هـ/١٤٢٢م).

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد مصطفى زيادة (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٦م).

- النسوي، محمد بن احمد بن علي(٦٣٩هـ/١٢٤١م).

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق، حافظ حمدي(القاهرة :دار الفكر العربي،١٩٥٣م).

- النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

نهاية الارب في فنون الادب ، تحقيق سعيد عاشور (القاهرة : الهيئة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٨٥م) .

- ابن واصل ، محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)

مفروج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : دار القلم، د.ت) .

- ابن الوردي ، زين الدين بن عمر(ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

تتمة المختصر في اخبار البشر(بيروت : دار المعرفة ، ١٩٦٩م) .

- الهمذاني ، رشيد الدين بن فضل الله بن عماد الدولة ابي الخير (ت٧١٨هـ/١٣١٨م)

جامع التواريخ ، نقله عن الفارسية ، فؤاد عبد المعطي الصياد ويحيى الخشاب (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٨٣م) .

- ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي(ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

معجم البلدان (بيروت :دار صادر ١٩٧٧م).

- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد الحنفي(ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م) .

ذيل مرأة الزمان (حيدر أباد :مطبعة دار المعارف العثمانية، ١٩٥٤م) .

❖ المراجع.

- ابراهيم، عبدالله

عالم القرون الوسطى (بيروت :أبو ظبي ، ٢٠٠١م).

- إبراهيم ، عيسى علي

الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية،٢٠٠٠م) .

- اقبال، عباس.

المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة، عبد الوهاب علوب(ابو ظبي: المجمع الثقافي،١٤٢٠ه/٢٠٠٠م).

- الأمين ، حسن .

المغـول بـين الوثنيـة والنصـرانية والاسـلام (بيـروت : دار المعـارف للمطبوعات ، ١٩٩٣م) .

- ارنولد ، توماس

تراث الاسلام (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢م) .

- انجي ، صالح

تاريخ الاديان (اسطنبول : ٢٠١٤م) .

- بارتولد، فاسلي فلاديمير.

تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم(الكويت: مطبعة قسم التراث العربي، ١٩٨١م).

- الباز ، محمد علي

كيف اسلم المغول (عمان : دار الفتح للدراسات والنشر ، ٢٠٠٨م) .

- بدر، مصطفى طه .

محنة الإسلام الكبرى (القاهرة: الهيئة العامة للكتب،١٩٩٩م)

مغول ايران بين المسيحية والاسلام (القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت).

- بدوي ، عبدالرحمن

من تاريخ الالحاد في الاسلام ط٢ (القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٣).

- بياني ، شيرين.

المغول، التركيبة الدينية والسياسية ،ترجمة سيف علي(بيروت :المركز الأكاديمي للأبحاث ،٢٠١٣م).

- تانر ، ستيفن

افغانستان التاريخ العسكري ، ترجمة نادية ابراهيم (القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٠م) .

- التونجي ، محمد

التيارات الادبية ابان الغزو المغولي ط١ (دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر والترجمة، ١٩٨٧م) .

- جاسم، عبدالله

العلاقات السياسية بين المغول ومملكة ارمينية الصغرى وأثرها في التاريخ الاسلامي (بيروت : دار العلوم العربية ، ٢٠٠٧م).

- جمال الدين ، محمد سعيد

الدولة الاسماعيلية في ايران ط١ (القاهرة : الدار الثقافية للنشر، ١٩٩٩م) .

علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد ، ط١ (القاهرة : د. م ، ١٩٨٢م) .

- جوردا ، بيير

رحلة الى الشرق ، ترجمة مي عبد الكريم (دمشق : الاهالي للطباعة والنشر، ٢٠٠٠ م) .

- حمدي ، حافظ احمد.

الدولة الخوارزمية والمغول (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٤٩م) .

- الخالدي، اسماعيل عبد العزيز.

العالم الاسلامي والغزو المغولي (الكويت: مكتبة الفلاح،١٩٨٤م).

- خانجي ، انطوان

مختصر تواريخ الارمن (القدس: مطبعة الابا الفرنسيسكانيين، ١٨٦٨م) .

- خصباك، جعفر حسين.

العراق في عهد المغول الايلخانيين (بغداد: مطبعة العاني ،١٩٦٨م).

- الخوند ، مسعود

الموسوعة التاريخية الجغرافية (بيروت : دار رواد النهضة للطباعة والنشر ،د.ت) .

- دفتري ، فرهاد

مختصر تاريخ الاسماعيليين ، ترجمة سيف الدين قصير(دمشق : دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٨م) .

- دوكنز ، ريشارد

وهم الآله ، ترجمة بسام بغدادي (ستوكهولم، ٢٠٠٩م)

- رجب ، محمد عبد الحليم

انتشار الاسلام بين المغول (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨٦م) .

- رستم ، اسد

الروم ط١ (بيروت : دار المكشوف ، ١٩٥٥م) .

- رنسيمان، ستيفن.

تاريخ الحروب الصليبية، نقله الى اللغة العربية، الباز العريني (بيروت: دار الثقافة،١٩٦٩م).

- الزوكه ، محمد خميس
- اسيا دراسة في الجغرافيا الاقليمية (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٦م) .
- سابل ، لين

١٠٠٠ حدث عظيم (دمشق :دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ١٩٨٨م) .

- السامر ، فيصل

الاصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية في الشرق الاقصى (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٦م) .

- سوسة ، احمد ومصطفى جواد
- دليل خارطة المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، ط٢ (بغداد : مطبعة الكتاب ،٢٠١٠م) .
- سعفان ، كامل

معتقدات اسيوية (القاهرة : دار الندى ، ١٩٩٩م) .

- شبولر، بارتولد.

العالم الاسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد احمد عيسى(دمشق:دار حسان،١٩٨٢م).

- الصاوي ، محمد

هولاكو الامير السفاح (الجيزة : دار طيبة للطباعة ، ٢٠١٢م) .

- الصياد، فؤاد عبد معطي.

مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله (القاهرة :دار الكتاب، ١٩٦٧م)،

المغول في التاريخ (بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٨م).

- الصيني ، بدر الدين

العلاقات بين العرب والصين (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠م)

- طقوش، محمد سهيل

تاريخ المغول العظام (بيروت: دار النفائس،٢٠٠٧م).

تاريخ القبيلة الذهبية والهند(بيروت: دار النفائس للطباعة،٢٠٠٧م).

تاريخ سلاجقة الروم في اسيا الصغرى (بيروت : دار النفائس ، ٢٠٠٢م).

- العبودي ، محمد ناصر

المسلمون في لاوس وكمبوديا (مكة المكرمة : ١٤١٦ه)

- العريني، الباز.

المغول (بيروت:دار النهضة العربية،١٩٨٦م).

- عثمان ، شوقي عبد القوي
- تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون ، ١٩٩٠م) .
- العزاوي، عباس.

تاريخ العراق بين احتلالين(بغداد: مطبعة بغداد، ١٩٣٥م).

التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان(بغداد:مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٩٥٧م).

تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية،(بغداد:شركة التجارة والطباعة ،١٩٥٨).

- عكاشة، ثروت.

اعصار من الشرق (القاهرة : دار الشروق،١٩٩٢م).

- الغامدي، سعد بن محمد.

سقوط الخلافة العباسية (رياض: .بلام،١٩٨٣م).

- فامبري، ارمينوس.

تاريخ بخارى منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة : احمد محمد الساداتي ، ط٢ (القاهرة : مكتبة نهضة الشرق ،١٩٨٧).

- فهمي، عبد السلام عبد العزيز.

تاريخ الدولة المغولية في ايران (القاهرة :دار المعارف،١٩٨١م).

- فهيم ، حسين محمد

ادب الرحلات (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، ١٩٨٩م) .

- فييه ، جان موريس

احوال النصارى في خلافة بني العباس ، ترجمة حسني زينة (بيروت : دار المشرق ، ١٩٩٠م) .

- القزاز ، محمد صالح داود.

الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (النجف: مطبعة القضاء،١٩٧٠م).

- كيرتن ، جيرمانا

رحلة الى جنوب سيبيريا ، ترجمة عدنان خالد عبد الله (ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة ،٢٠٠٩م) .

- لامب، هارولد.

جنكيزخان إمبراطور الناس كلهم، ترجمة بهاء الدين نوري(بغداد: مطبعة السكك الحديدية،١٩٤٦م).

- لاين ، جورج.

عصر المغول ،ترجمة تغريد الغضبان (ابوظبي:هيئة ابو ضبي للسياحة والفنون ،٢٠١٢).

- لسترنج ، كي

بلدان الخلافة الشرقية ، نقله الى العربية ، بشير فرنسيس ، كوركيس عواد (بغداد: مطبوعات المجمع العلمي العراقي ،د.ت)

- لوبون ، غوستاف

حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، ٢٠١٣م).

- لويس، برنارد.

أصول الإسماعيلية، ترجمة خليل احمد جلو، وجاسم محمد رجب (القاهرة: دار الكتب ،د.ت).

- مان ، جون

جنكيزخان ، ترجمة حسن عبد العزيز عويضة (ابو ظبي : هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة ، ٢٠١٣م) .

- مانسيل ، فيليب

القسطنطينية ، ترجمة مصطفى محمد قاسم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، ٢٠١٥م) .

- محمود ، انيس

بلاد التبت بين الماضي والحاضر (بيروت : دار الحرية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩م) .

- مؤنس ، حسين

ابن بطوطة ورحلاته (القاهرة : دار المعارف ، د.ت) .

- ولز ، ه ، ج

معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط٤ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م) .

- ولش ، ريشارد

ماركو بولو مغامراته واستكشافاته ، ترجمة حسين حسن الياس (بغداد : دار منشورات البصري ، ١٩٥٩م) .

- وود ، فرنسس

ماركو بولو هل وصل الصين ، ترجمة فاضل جتكر ، ط١ (دمشق : قدمس للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩م) .

- هلال ، عادل

العلاقات بين المغول واوربا وأثرها على العالم الاسلامي ، ط١ (القاهرة : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ١٩٩٧م) .

- هويدي ، فهمي

الاسلام في الصين (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، ١٩٨١م) .

- هيلدا ، هونام

تاريخ الصين منذ ماقبل التاريخ حتى القرن العشرين ، ترجمة اشرف محمد الكيلاني (القاهرة : المجلس الاعلى للثقافة ، ٢٠٠٢م) .

- يوسف ، جمشيد

الزرادشتية الديانة والطقوس (بيروت : منشورات زين ، ٢٠١٢م) .

❖ **المصادر الفارسية**.

- خواندمير، غياث الدين محمد بن همام الدين (ت٩٤٢هـ/١٥٤٤م).

دستور الوزراء، نشر وتصحيح سعيد النفيسي (طهران: ١٣١٧ه.ش)

تاريخ حبيب السير في اخبار افراد البشر(طهران: جاجانه حيدري،١٣٦٢هـ.ش).

- القزويني، حمد الله بن ابي بكر (ت٧٥٠ه/١٣٤٩م).

تاريخ كزيدة، باهتمام عبد الحسين نوائي،(طهران:١٣٣٦هـ)

- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله(ت٧١٨ه/١٣١١م).

جامع التواريخ ، تحقيق بهمن كريمي (طهران : شركة نسبي حاج وشركائه ، ١٣٣٨هـ. ش) .

- ميرخواند، حميد الدين محمد بن خدا بن محمود (ت ٩٠٣هـ/١٤٩٨م)

تاريخ روضة الصفا في سير الانبياء والملوك والخلفاء (طهران:جاب بيروز، ١٣٣٩هـ.ش).

- وصاف ، شهاب الدين بن عبد الله بن فضل الله الشيرازي(ت ٧٣٥هـ/١٣٣٤م).تجزية الامصار وتزجية الاعصار والمعروف بتاريخ وصاف (طهران: خيابان حافظ، ١٣٤٦ هـ . ش).

❖ الاطاريح والرسائل الجامعية.

- حيدر، احمد فرطوس.

١-الامبراطورية المغولية في عهد قوبيلاي قاآن، رسالة ماجستير غير منشورة(جامعة بغداد،٢٠١٣م).

- حيدر، عبد الرحمن فرطوس.

الإيلخان هولاكو ودوره في نشأة وقيام الدولة الايلخانية أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد ،كلية الآداب ٢٠٠٣م.

❖ الدوريات والمقالات.

- حيدر، عبد الرحمن فرطوس.

سعد الدولة اليهودي ودوره في اعلاء شان اليهود اثناء الحكم الايلخاني(مجلة كلية الاداب، ع ٧٩ ، ٢٠٠٧)

- دائرة المعارف الاسلامية ،تحرير هوتسما وآخرون، ترجمة :احمد الشنتناوي وآخرون ،(بلا.ت)،

المقالات : بارتولد

(بركة خان) (براق خان) (خان باليق) (جغتاي).

❖ المصادر الانكليزية.

- Albion , Robert Marco Polo

  Encyclopedia International (Washington : ١٩٦٤) .

- Bergreen , Laurence

  Marco Polo from Venice to Xanadu (New York : ٢٠٠٧) .

- Blunck , Hildegard

  Marco Polo Great Adventurer (Glasgow: ١٩٦٧) .

- Buell,Pual D.

  Historical Dictionary of the Mongol World Empire (London,١٩٨٧).

- Carpini , Juvani Dela

  The History of the Mongol that we called them Tattar (London : ٢٠٠٠).

- Conklin , Suzanne

  Marco polo and the Encounter of East and West (Canada; University Of Tornto, ٢٠٠٨) .

- Cordier , Henri Marco Polo

  Encyclopedia Britannica (London : ١٧٦٨) .

- D'ohsson ,

Histoire des Mongol depuis Tchinguiz Khan Jusqu a Timour (Amesterdam , ١٨٥٢) .

- Franke ; Herbert and Denis Twitchett,

The Cambridge History Of China (Cambridge : ٢٠٠٨).

- Gaspar.v.Gil   Marco Polo

Encyclpedia Italiana (Milano:١٩٩٦)

- Grigor , Aknerli

The Mongols (Istanbul: ١٩٥٤) .

- Haw , G, Stephen

Marco Polo's China (New York : ٢٠٠٧).

- Herron , John

The Arts Of Ming Dynasty (Detroit : Institute Of Arts , ١٩٥٢) .

- Howorth , H

History of the Mongols (London: ١٩٢٧) .

- Kirakus

Armenian History (London : ١٩٠٠) .

- Lesley , A, Dutemp

  The Great Wall Of China (New York: ٢٠٠٣) .

- Man , John

  Khubilai Khan (London : ٢٠٠٧) .

- Martin John and Dennis Romano

  Venice (London : ٢٠٠٠) .

- Masefield , John

  Marco polo"s Silk Road (London : ٢٠١١) .

- Mcfarren , Khathleen

  Marco Polo (Minnesota : ٢٠٠٤).

- Olschki , L

  Marco Polo's Asia (Barkely : ١٩٦٠) .

- Phillips , D

  The Mongol (London: ١٩٦٩) .

- Polo , Marco

  The travels of Mrco Polo, translated by William Marsden (London;١٩٣١).

- Polo , Marco

Di Marco Polo, Il milione (Milano: ١٩٧٥)

- Rishardson , Douglas

  Philippe Iv (London : ٢٠١١) .

- Rebruk , William

  The Mission of William Rebruk

- Russabi Morris

  Khubilai Khan (California : ١٩٨٨) .

- Saunders , J

  The History of the Mongol Conquests (London:١٩٧١).

- Tanwir , Halim

  Afghanistan History (Washington: ٢٠١٢) .

- The Secret History of the Mongols , translated by Urgunge Onon (London:٢٠٠١)

- Tim Mcneese

  Marco Polo and the Realm Of Kublai Khan (Philadelphia: ٢٠٠٦) .

- Vogel , Hans

  Marco Polo was in China (Denver : ٢٠١٣).

- Yamada , Nakaba

  The Mongol Invasion of Japan (London: ١٩١٦).

- Yule. Henry

  The Book of Marco Polo (London: ١٩٠٣).

Abstract

The Venetian Traveller Marco Polo and His narratives on the Mongols

The present study, which is entitled (The Venetian Traveler Marco Polo, died in ٧٢٥ H, ١٣٢٤ AD, and His tales on about the Mongols), discusses the most prominent historical narratives told by this Venetian traveller about Mongols in the middle ages. This traveler, no doubt, gained a prominent fame that none of the European travelers who preceded him acquired. There are two reasons behind this, firstly for the value of the narratives he wrote about Mongols whether it was from historical point of view or reports counties when they were at the summit of their prominence full of wars and unrest, and secondly, for the great impact these historical narratives had on the European thinkers and their societies about Asian Orient in general and specially the Mongol peoples, who quickly turned from tribes fighting each other to conquers of the world. They had conquered half of the world during the seventh Hegira Century, Thirteenth AD.

This dissertation is consist of four chapters, introduction, conclusion, plus list of and appendixes a list of Source material.

Chapter one discusses the life and time of the traveller Marco Polo beginning with his birth in Venice, and his growing statehood , his famous travel to China and post in the Mongol Royal palace till his departure to Venice and his death in ٧٢٥H, ١٣٢٤ AD.

Chapter two deals with the social traditions and habits of the Mongols and the countries submitted to them through a contrastive study between Marco Polo's narratives and those of other contemporary sources in this respect concerning all social life of Mongol life.

Chapter three is about Marco Polo's narrratives on the Ilkhanid Empire found by Hulagu Khan in the Eastern Islamic territories after the fall of the Abbasid state. This chapter, also, discusses important issues, such as the fall of Baghdad and the death of the Abbasid Caliph "Al-Musta'sim Billah".

Chapter four discusses the most important descriptions of countries visited by Marco Polo, including wide parts of the Mongol Empire.

The study has concluded the following results:

١- This study affirmed the authenticity and truth of most narratives mentioned by the traveler Marco Polo about the Mongols, through the corresponding of these stories with approved historical Chinese and Persian sources that documented the news of these peoples, besides the corresponding of material in general, with those of other travelers such as William of Rubruck and Ibn Battuta among others, However we affirmed the exaggeration in the description of some of Marco's travels.

٢- Concerning debate by some researchers about the authenticity of Marco's visit to China and his residency there, the study confirmed the authenticity of Marco Polo's visit to China and his residency there for seventeen years. During this period, he enjoyed a special care of the Mongol Emperor Kublai Khan. Through a detailed study of Marco Polo's narratives about China, we found out the precision of the description of the historical incidents. He was accurate in describing Mongols and their capital Khanbaliq which precisely corresponding to the stories of the Mongol historians and contemporary travelers who visited China during the era of the Mongol Yuan Dynasty.

٣- The study reveals that the importance of Marco's narratives about Mongols relies in the fact that they were not only corresponding to those in the Mongol and Islamic sources, but they represent in addition describing a new era of history in which those Mongols and their nomad

tribes had the capability to turn from nomades into civilized societies, as they presented a unique system of administration, of which Marco Polo himself was one of this administration. They could mix the 'Yassa', The Mongol code of law created by Genghis Khan, and the laws of other peoples who submitted to them, unlike the common idea known about Mongols in most of other writings, which described the Mongols as murders savage and barbarian tribes.

٤- The study, through Marco Polo's narratives, uncovered many various social traditions of peoples forming the Mongol empire, proving the ability of Mongols to deal with conquered peoples and comprehend wide discrepancies and contradictions among various religions, race and ethics with a unique skill and wisdom.

٥- Concerning Mongol Shamanism, which was the religion embraced by Mongols, the present study shows first one which contradict Islamic source that materials with religious Shamanism in claim that the origion of that religion dictate in both the worship of one mighty God.

Ministry of Higher Education
And scientific Research
University of Baghdad
College of arts



Marco Polo The Venetian traveller (d.٧٢٥ H/١٣٢٤M) and his narratives on the Mongols A study in Mongolian and Islamic Sources

A Thesis
Submitted by
Ahmad Fartus Haydar

To the Councel Of Collge Of Arts/ Baghdad University,in partial fulfilment for requierment for the (Ph.D) degree in Islamic History

Supervised by
Prof.Dr. Murtada Hasan AL- Nakeeb

١٤٣٨ H ٢٠١٧M